حائز جائزة معرض لايبزيغ للكتاب
وهي مـن أرفع الجوائز الأدبية في ألمانيا

## دافيد فاغنر

# حياة

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

حياة

دافيد فاغنر

# حياة

رواية

ترجمة: سمير جريس(*)

(*) حصل المترجم على جائزة معهد غوته للترجمة الأدبية في عام ٢٠١٤ عن ترجمته مقطعاً من رواية «حياة»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

**Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.**

**© جميع الحقوق محفوظة**

**لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.**

**يُمنع تصوير و/أو تحميل و/أو نشر هذا الكتاب إلكترونيًا أو بأي شكل من الأشكال دون موافقة الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من قبل الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلف.**

**القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون، لا تكن شريكًا**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

**شركة المطبوعات للتوزيع والنشر** ش.م.ل.

**ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.**

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
**email: publishing@all-prints.com**
**tradebooks@all-prints.com**
**website: www.all-prints.com**

**الطبعة الأولى ٢٠١٨**
**ISBN: 978-9953-88-985-6**

Originally published as: **Leben.**
Author: **David Wagner.**

Copyright © 2013, by Rowohlt Verlag Gmbh, Reinbek bei Hamburg, Germany.

**The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs**

**This edition has been produced with a subsidy by the *Spotlight on Rights programme* in Abu Dhabi.**

تدقيق لغوي: غالب هاشم
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

كلّ شيء كان هكذا بالضبط

وكان، أيضاً، مختلفاً تماماً

# دم

أصلُ إلى المنزل بُعَيْد منتصف الليل. الطفلة عند أمّها، الصديقة ليست هنا، أنا وحدي في الشقة. أعثر في الثلاجة على علبة زجاجية مفتوحة فيها «موس»[1] التفاح، أبدأ بأكله بالملعقة، وألقي نظرة على الصحيفة التي ما زالت على مائدة المطبخ. أقرأ شيئاً عن الناموس، وسؤالاً: لماذا لا تقتله قطرات المطر النازلة؟ قبل أن أفهم تماماً كيف ينجو من المطر، أشعر بغصّة في الحلق. هل شرقت بـ «موس» التفاح؟

أنهض وأذهب إلى الحمّام، أنظر في المرآة، ولا أجد شيئاً لافتاً، كلّ شيء كما هو، قد أكون شاحباً بعض الشيء. ولأنني أقف في الحمّام، أفكر في تنظيف أسناني أيضاً، فبعد قليل سأذهب إلى الفراش. غير أنني أشعر في اللحظة نفسها برغبة في التقيّؤ. أستدير، وأنحني فوق المغطس، إلا أن جوفي يسبقني في تفريغ ما فيه. عندما أفتح عينيّ، أتعجّب من الدماء الكثيرة في المغطس. ببطء تسير في اتجاه البالوعة.

أعرف ماذا يعني ذلك. «ب»، طبيبي الذي يعالجني منذ عامي الثاني عشر، حذّرني بما فيه الكفاية من سنوات كثيرة. أعرف

(١) «موس» التفاح: عصيدة من التفاح المهروس المطبوخ، يُضاف إليها سكّر وعصير ليمون وقرفة (المترجم).

أن دوالي المريء، أي الأوعية الدموية في المريء، قد انفجرت. أعرف أنني الآن أنزف نزفاً داخلياً، وأن عليّ ألا أفقد الوعي. عليّ أن أستدعي الإسعاف. ورغم ذلك أفكر، أفكر ببطء بالغ في أن أركب سيّارة أجرة إلى المستشفى، غير أنني في النهاية أقرر الاتصال بالإسعاف. ألاحظ في المرآة أنني أصبحت أكثر شحوباً، أسير باحثاً عن الهاتف، وأجده على مكتبي. غير أنني أتّصل برقم الطوارئ الخطأ، واحد واحد صفر، وأسمع صوتاً يقول: لكي تصلك سيارة إسعاف عليك أن تتصل بواحد واحد اثنين. أضع السماعة وأسأل نفسي هل هذه إشارة ما؟ هل من الأفضل أن أبقى في المنزل؟ قد يكون من المبالغ فيه أن أستدعي سيّارة إسعاف! أنتظر دقيقة والهاتف في يدي، ثمّ أقول لنفسي إنّ من الأفضل ألا أفقد كل دمي هنا. نحن ما زلنا في إجازة عيد الفصح، وفي الأسبوع المقبل ستكون الطفلة هنا مرّة أخرى. أضغط إذاً، وهو ما يحدث بسهولة تامّة، فالأزرار بعضها إلى جانب بعض، على الأرقام: واحد واحد اثنين. صوت لطيف يردّ على الهاتف قائلاً: يجب عليّ أن أفتح باب الشقة، وينبغي أن يبقى مفتوحاً. غير أنني أقرّر أن أنتعل حذائي وألبس معطفي ثانيةً، وأن أسير لمقابلة الطبيب. أعرف أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلي في الشقة، يجب أن أدخل المستشفى.

أقابل طبيب الإسعاف وكلا الممرّضين على الدرج. أحيّيهم وأقول: أنا الذي اتّصلت، يجب نقلي إلى المستشفى. ألاحظ على الفور أنهم يعتبرونني مدّعي مرض، فهم لم يروا المغطس. في سيارة الإسعاف أجلس على الكرسي النقّال وظهري في اتجاه السير.

لم يكن الطبيب يعرف كيف يتعامل معي. يُلقي نظرة على بطاقة الإسعاف وبطاقة التبرّع بالأعضاء. وأقول له يجب نقلي إلى فيرشو، مستشفى الشاريتيه الجامعي في فيرشو، وأحدّثه عن مرض التهاب الكبد المناعي الذاتي الذي أُصبت به، عن التليّف، ودوالي المريء، والضغط المفرط في الأوعية الدموية بسبب كبدي المريض، أتحدّث وأتحدّث، وأشعر مرة أخرى بشيء في حلقي. بالكاد أضع يداً أمام فمي، إلا أن الدم يندفع بعنف كبير من داخلي إلى درجة أن رذاذه يملأ نصف السيارة. كأنه مشهد من أحد أفلام الرعب والعنف، مشهد قد يثير ضحكي، غير أن الدم المتناثر هنا ليس دماً مصطنعاً. مرعوباً يبدو طبيب الإسعاف ودمي يسيل على عدستَيْ نظّارته. يضع في ذراعي وصلة، ثم يعلّق لي محلول الملح، وتنطلق السيارة أخيراً. بعد وقت قصير، أرى هامات الشجر في الشارع والنجوم فوقي، وأتساءل: لماذا لم يعد لسيارة الإسعاف هذه سقف. يتحتم عليّ التقيّؤ مرة أخرى. راقداً لا أصيب تماماً الكيس الشفاف الذي يضعونه أمام فمي، معظم الدم يسيل بجانبه ويغطي الأرضية. أعرف أنني سأقترب من الموت والأموات إن لم يتم إيقاف هذا النزف بسرعة.

دواعي العلاج: تبيّن السيرة المرَضية نزفاً في الجهاز الهضمي، وكذلك إصابة معروفة بمرض دوالي المريء.

الدواء والجرعة: ١٠٠ مليغرام بروبوفول حقناً في الوريد.

نتيجة الفحص: في الثلث الأسفل من المريء يمكن رؤية أربعة أحزمة من الدوالي يبلغ قطرها أكثر من ٥ مليمترات (تبرز الدوالي بنسبة ٥٠٪ من قطر المريء، أي إنها تتلامس، وهي من الدرجة الثالثة). في الجانب الأصغر تصل الدوالي حتى أسفل القلب. على الدوالي علامات حمراء اللون. هناك نزف نشيط. الدماء المتجلطة تملأ المعدة، ولا يمكن الحكم عليها بما يكفي.

العلاج: على مسافة ٣٤ سم حتى ٣٩ سم من صف الأسنان توضع ستة أربطة مطاطية، ويجري إيقاف النزف باستخدام المنظار.

## ١

أستيقظ، ولا أعرف أين أنا. أنبوب مثبّت في أنفي، هواء بارد منعش يسري داخلي، هواء جبلي تختلط به رائحة ما. خرير الغدير الذي تجمّد نصفه ينساب بين أشجار غابة الصنوبر السامقة، الأعشاب التي غدت بيضاء من التجمّد تتلألأ في الشمس. يبدو أنني أرسم لنفسي صورة خلاّبة كتلك التي تُعلق على الحائط. أسمع تنهّدات وفوضى من الأصوات، أسمعها تتساقط في قطرات، أسمع خريرها، وأشعر بيد على عضدي الأيسر، يد تمسك بي، نعم، تمسكني، تتشبّث بي، ثم تخفف قبضتها وتتركني. سرعان ما ألاحظ أنها ليست يداً، إنه جهاز آلي لقياس ضغط الدم برباط ينتفخ كل ربع ساعة ليقيس ضغط الدم، ثم يسجّله، وبعد ذلك يتراخى. كأن الصوت يصدر عن شخص ينفخ حشوة هوائية. على هذه الحشوة الهوائية أطفو على البحر.

## ٢

يقفون على الشاطئ ويلوّحون. ينتظرونني، اجتمعوا هناك، أمّي، جدتي، ريبيكا، ألكسندرا، جدّي بالزيّ العسكري، ووالدا جدّي اللذان لا أتعرّف إليهما من النظرة الأولى لأنّني لم أرهما قط. جاؤوا ليرحّبوا بي، يقفون على الشاطئ ويلوّحون، نعم، حقاً، أسمعهم

ينادون، إنهم ينادون: مرحباً، ها أنت هنا ـ عندئذ تنكسر موجة كبيرة وتقذفني، لا على الشاطئ كما توقعت، لا، تيّار سفلي يسحبني مرّة ثانية إلى البحر، يسحبني بعيداً، وبسرعة يضيعُ من عيني الشاطئ.

٣

أفتح عينيّ «المُعمَصتين». كل شيء غائم. غرفة ممتلئة بالبقع الملوّنة. ولكن ـ هذا ما يخطر ببالي ـ قد يرجع ذلك إلى أنني لا أرتدي نظارتي. لا أعرف أين هي. لكنني أستطيع رغم ذلك التعرّف إلى بعض الأشياء، عليّ أن أضيّق عيني قليلاً فحسب: إلى اليمين نافذة، إلى اليسار باب، الباب مفتوح. أجهزة كثيرة جداً حولي، كبلات، ثلاثة رشاشات أو أربع. أسمعُ صفيراً. مركز القيادة؟ تعجبني سفينتي الفضائية، أنا خفيف للغاية، لا ثقل لي، أستطيع الطيران.

٤

سماء نيّرة فوق المدينة، أحلّقُ وأنظرُ إلى أسفل. أرى كل شيء وأتعرّفُ إليه مرة أخرى، لم أنسَ شيئاً. سقوف المستشفى المسطحة، والحصى الأبيض، والقناة، ومفاعل الطاقة، والقضبان، بإمكاني رؤية كلّ هذا، أرقد، أطير فوق المدينة، وبعد مرور دقائق أو ساعات أو أيّام ينبغي أن أعود إلى جلدي، إلى هذا السرير.

٥

لا، لا، أنا لا أرقد في المدافن، لا أرقد تحت سطح الأرض. ينتشر الضوء، ثم تُظلم الدنيا ثانيةً. إنني أرقد على سرير في المستشفى،

على سرير بعجلات، يمكنهم أن يدفعوني إلى خارج الغرفة. إذا أدرت رأسي، أرى السماء. بيضاء هي اليوم، غصون شجرة البتولا العارية تمتدّ أمامي. النافذة مفتوحة بشكل مائل إلى أعلى، الهواء البارد له رائحة منعشة وحلوة، أسمعُ الطيور التي تطلق زقزقة واعدة. شعاع شمس يخترق السحب الكثيفة. على الجانب الآخر من المستشفى، خلف السور المبنيّ بالطوب الأحمر، على الجانب الآخر من شارع «زيه-شتراسه» تقع مقبرة، كنتُ هناك مرّةً.

٦

يُغسل ظهري، وتُنظّف أسناني. لا ينبغي لي أن أفعل شيئاً، عليّ أن أرقد فحسب. ليس عليّ حتى أن آكل، إحدى الممرّضات تحضر لي غذاء روّاد الفضاء، وجبات سائلة تحتوي على ما يحتاج إليه الجسم. مشروب روّاد الفضاء له طعم الموز. الآن أعرف، أعرف تماماً أن هذه الغرفة هي سفينتي الفضائية، وأنا في طريقي إلى المرّيخ. على الأقل إلى المرّيخ. حتى لو كان وضع النجوم في المسار مناسباً فلا بدّ من أن ذلك سيستغرق عاماً تقريباً، أو ربما أكثر. أتهيّأ لذلك. سأبقى.

٧

أجد نظارتي مرّة أخرى. أضعها على وجهي، وأتلفّت حولي، ثم أخلعها مرّة ثانية. أظنّ أنني لا أريد أن أرى كلّ شيء بهذا الوضوح.

٨

أسأل عن «ب» وأسمع أنه ليس موجوداً، أنه في إجازة. يدخل الغرفة

طبيب متخصّص في أمراض الجهاز الهضمي ويشرح لي كيف نجحوا في إيقاف نزف الدوالي. خِيطت الجروح باستخدام المنظار، أي إنّهم أدخلوا أنبوباً في المريء النازف، والأنبوب كان مزوّداً بجهاز يضع مشابك مطاطية على الدوالي المتفتقة، وهكذا جرى إيقاف نزف الدوالي. لقد حالفني الحظ، فهذه التقنيّة مستحدثة من فترة قصيرة. قبل عشرين عاماً لم يكن الأطبّاء يستطيعون فعل الكثير في حالات نزف كهذه. فقدتُ بضعة لترات من الدم، نسب الهيموغلوبين في دمي سيّئة، أمّا إنزيمات الكبد فهي أسوأ، وهو ما يرجع أيضاً إلى الصدمة الزُلالية التي تعرّضت لها بعد كلّ هذه الدماء في المعدة. ولكنني حيّ.

## ٩

أحد المرضى ـ لا أستطيع رؤيته، ولكنني أسمعه عبر الباب المفتوح ـ يشكو من أنهم لا يعلقون ساعات في الغرف. إنه يريد أن يراقب مرورَ الزمن، سرعتَه أو بُطأه. هل يسير أصلاً؟ وإن كانت الإجابة بنعم، ففي أيّ اتجاه؟ لم أعد متأكداً من ذلك.

## ١٠

أُنقل من العناية المركّزة إلى الـ «غاسترو»، القسم العادي لأمراض الجهاز الهضمي. هنا يرقد مرضى الجهاز الهضمي الذين يُطلق عليهم «غاسترونومن» وهو ما يثير ضحكي[1]. طوال فترة ما

(١) تثير كلمة Gastrnonmen الضحك لأنها قريبة من كلمة Astronomen (أسترونومن) التي تعني «علماء الفلك» (المترجم).

قبل الظهر كان يرقد معي في الغرفة طبّاخ. يسمحون له بمغادرة المستشفى، يعقبه نادل يُعدّد لي كل الحانات الموجودة في شرق برلين: تروكسا بيربار، بورنهولمر هوته، متسر إيك، أودركان، وترومركوته التي كانت في الماضي في كاستانين ـ أليه، ناصية أودربيرغر شتراسه. في المنزل الذي يوجد فيه الآن محلّ لنسخ المستندات، وهو، بحسب روايته، حانة لعتاة السكارى. كان يعمل نادلاً في مقهى الأوبرا؛ ولأن مقدّمي الشراب والطعام في ألمانيا الشرقية كانوا يتمتعون بسلطة عظيمة كان يحق له ـ كنادل في مقهى الأوبرا ـ أن يسكر أينما شاء. مجّاناً. هه، والآن تصلني فاتورة الحساب، يقول لي.

يُسمح للنادل بالذهاب إلى المنزل. يرقد الآن إلى جانبي جزار. يعمل جزاراً منذ ٤٥ عاماً، وقت طويل للغاية، والكثير الكثير من السجق. نعم، كان لدينا دائماً ما يطيب من الطعام، يقول لي، لم نجُع قطّ. غير أن العمل لم يعد في السنوات العشر الأخيرة يُدخل السرور إلى نفسه كما في الماضي. كان لا بدّ من إغلاق محلّ الجزارة الذي عمل فيه طوال ٢٤ عاماً. بعدها عمل في مصنع سجق. الأشياء المُنتجة هناك، لم يكن يريد أن يأكلها في منزله. في العام الماضي قضى ستة عشر أسبوعاً في المستشفى. لقد تحمّل الإقامة هنا مع كثيرين. كلٌّ منا يترك الآخر في حاله.

## ١١

إحدى الممرّضات تدخل الغرفة وتقول إنهم جاهزون لنقلي. ينبغي

أن أذهب إلى قسم التصوير بالموجات ما فوق الصوتية، ولكن يمكنني البقاء راقداً. كم هو واسع وكبير هذا المستشفى. ممرّات طولها كيلومترات، كلّ المباني تقريباً متّصلة بعضها ببعض، ثمّة طرق سريعة للأسرّة تحت الأرض. المبنى الخاصّ بأسرّة المرضى هو في الأصل مبنى متحرّك على أربع عجلات، سيّارة إسعاف. راقداً أتحرّك إلى الأمام، أُنقل عبر ممرات طويلة، وأُدفع في مصعد. أفكر في عربة التسوّق، ثم في عربة الأطفال. اليوم يدفعني أفريقي. يشرع في الغناء بالمصعد وعبر الممرّ تحت الطريق الأوسط. فوقنا جذور أشجار الكستناء. أسأله عمّا يغنيه، وما اللغة التي يغنّي بها. لغة في ساحل العاج، يقول لي، وعندما أواصل أسئلتي يحكي لي أنه وُلد في باريس، في الحيّ التاسع عشر، غير أنه لا يطيق فرنسا أو الفرنسيّين، رغم أنه فرنسي. ويضيف، متحدّثاً طوال الوقت بالفرنسية، أنه عاش هناك ثمانية عشر عاماً، هذا يكفيه، إلى الأبد.

ألم أسكن ذات يوم في باريس، في «باربيس»، على الجانب الأيمن من «بوليفار روشيشوار»؟ ألم أكن أسير كلّ يوم إلى سوق «غوت دور»؟ راقدٌ أنا، وهو يدفعني. أودّ أن أسأله: هل تُوفي مريض في عهدته خلال الطريق؟ غير أنني لا أجد الشجاعة الكافية.

## ١٢

هل متّ حقاً؟ هل يعنيني كل ما يحدث؟ أم أنا مجرد متفرّج؟ يحتمل أنني أحلم بهذا الحاضر، وربما عنتِ الأبدية أن أرقد على

سرير وأجد نفسي مجبراً على تذكّر قصص حياتي ونوادرها، شئت هذا أم أبيت. أمس، أو قبل أمس، كانت جنازتي، وقد تكون اليوم، أو غداً.

١٣

في الغرفة يصلونني بالمحلول مرّة أخرى، لا أسمعه، أرى القطرات فحسب، وأتفرج عليها.

١٤

يحكي لي الجزار أنه كان يزن في ما سبق ١٥٥ كيلوغراماً. كانت شهيّته مفتوحة دائماً على الطعام، فخذ خنزير شهيّة، بيرة لذيذة، هذا هو ما جناه الآن من ذلك، تشمّع الكبد، ثم يقول لي بلهجته البرلينية إنه ينتظر كبداً جديدة. يعاني الآن من الاستسقاء ، يحمل معه في بطنه دائماً صندوقي بيرة ممتلئين. ما زال يستطيع النهوض في أي حال. على الأقل، يقول، لم يعد الإنسان يحتاج إلى شراء أسطوانة فونوغراف ذات مدّة عزف طويلة.

تظل الجملة تدور في رأسي. هل ما زال بإمكاني أن أشتري أسطوانة طويلة؟ هل ما زال الأمر يستحق؟ ما المدّة التي تحتاج إليها الطفلة حتى تكبر؟ فجأة أفهم كلمة «أسطوانة طويلة» على نحو حرفي تماماً. منذ متى لم أشتر أسطوانة، أسطوانة طويلة؟ كانوا في الماضي يختصرون الكلمة بحرفين: LP. كان هذا الاختصار يوماً ما اختصاراً مهمّاً، ومألوفاً للغاية. إنّ مَن يتمكّن من شراء أسطوانات

طويلة، يوم كانت الموسيقى لا تزال تُقتنى، يُفترض أنه شارف سنّ البلوغ. مشترو الأسطوانات الطويلة كانوا يفهمون في الموسيقى، لقد اجتازوا مرحلة التحمّس لأغنية واحدة، ولم يعودوا يشترون أسطوانة فيها أغنية منفردة. للأسطوانة الطويلة ثمن، ثمن غالٍ، يعادل مصروف الجيب لمدّة شهر تقريباً.

١٥

يُحضِر الزوّار أزهاراً معهم، قريباً سيبدو المكان كأنّه محلّ أزهار، أو كأنني في جنازة. لم يعودوا يضعون باقات الأزهار خلال الليل في الخارج، في الممرّ أمام باب الغرفة. شاهدت ذلك بنفسي في المستشفى وأنا طفل. تقول لي الممرّضة التي أسألها عن ذلك إنّ لديهن من العمل ما يكفي، كما أن ذلك ليس ضرورياً على الإطلاق. ما دامت الغرفة، وهذا هو الأهم، تُهوّى بين الحين والآخر فإن كل مريض يحصل على كفايته من الأكسجين.

١٦

لا تأتي الطفلة لزيارتي، ترى أمّها أنها لا ينبغي أن تراني هكذا. ليست مخطئة، أنا أيضاً لا أريد أن أراني هكذا.

١٧

أحب أغطية السرير بعد تغييرها. ملمس الأغطية والشراشف قاسٍ وليّن في آن، وهي دائماً نظيفة. إنهم يزوّدونني بما أحتاج إليه،

يعتنون بي، كل شيء يُفعل من أجلي، يقدّمون إليّ يد العون، حالتي جيدة، حالتي تتحسّن دوماً، لقد نجوت.

## ١٨

عندما يشاهد المريض في السرير المجاور التلفزيون ـ بعد وضع السمّاعة على أذنيه ـ أتفرّج أحياناً معه، وأشاهد أناساً عجيبين، يفعلون أشياء عجيبة. أستمتع بالتلفزيون الصامت. الشاشة معلقة تحت السقف، يمكن التحكم في الجهاز عبر أزرار جهاز الهاتف العتيق العاجيّ اللون الموضوع على الكومودينة بجانب كلّ سرير. ولكن مشاهدة التلفزيون هنا ليست مسلية، فالشاشة ـ وهي شاشة ضخمة ثقيلة مربّعة ـ عالية جداً، كما أن تبديل القنوات أمر شاق. لاختيار القناة يجب في كل مرة الضغط على مجموعة معقدة من الأزرار، وإثر ذلك تظلم الشاشة، وتبقى مُظلمة إلى أن تضيء في ارتعاش صورة القناة المرغوبة بعد مرور أربع ثوان. وفي بعض الأحيان لا يحدث ذلك. أربع ثوان من الممكن أن تكون وقتاً طويلاً للغاية في المستشفى، ولهذا لا يُدخل التنقل بين القنوات السرور في نفس المريض.

## ١٩

عندما كنت في الثالثة عشرة قضيت بضعة أسابيع في المستشفى. آنذاك حمل أبي جهاز سوني الصغير معه إلى المستشفى. لم تكن الحجرات في تلك الفترة مزودة بأجهزة تلفزيون صغيرة، على الأقل

ليس في المستشفى الذي كنت مريضاً فيه، وبالتأكيد ليس في قسم الأطفال. مَن كان لديه جهاز صغير نقّال كان يحضره معه، أو كان يجعل أحداً يحضره إليه. جهازي، المأخوذ في الحقيقة من غرفة مكتب والدتي، كان كبيراً جداً قياساً على الكومودنية. كان يعرض كيف انفجرت سفينة الفضاء تشالينجر. شاهدتها تنفجر المرّة بعد الأخرى، وكانت تتطاير في الفضاء المرّة تلو الأخرى، لعبة نارية. الكارثة التلفزيونية الأولى الكبرى في حياتي، تختلط صورها الآن في رأسي بصور الكارثة التلفزيونية الكبرى التالية، انهيار البرجين التوأم. يسقط البرجان، سفينة الفضاء تنفجر، وفجأة أشعر كأنني عرفت منذ تلك اللحظة، آنذاك، في قسم الأطفال، عندما انفجرت تشالينجر، أن غزو الفضاء قد انتهى أمره. كانت ملاحةُ الفضاء مستقبلَ سنوات الستينات، مستقبلَ الماضي، مستقبلاً لم يتحقق. لم يعد أحد ينطلق إلى القمر، ولم يسافر أحد إلى المرّيخ.

٢٠

يمكن ضبط السرير. بإمكاني أن أزيد من ارتفاعه أو أقلل منه، ويمكن ثني الجزء الذي يرقد عليه رأسي أو أضع عليه قدمي. ولكن عليّ، هكذا أقول لنفسي، ألا أجعل وضع السرير مريحاً أكثر من اللازم. وإلّا فلن أنهض أبداً.

٢١

في أيّام السبت لا يُقدَّم إلينا سوى المرق والعصيدة، وفي الآحاد لا

يكشف الأطبّاء على المرضى. في أيّام الاثنين تهب رياح العمل في الممر، وكأن عليهم أن يتداركوا ما فاتهم في اليومين اللذين يقلُّ فيهما العمل. فيما عدا ذلك لا تكاد الأيام تختلف بعضها عن بعض. كانت العصائد تُقدَّم أيضاً في طفولتي، في أيّام السبت، بالبازلاء أو بالعدس، أكل بسيط لأن أمي تكون مسافرة، أو لأنها لا تكون راغبة في الطبخ.

مسموح لي بأن آكل من جديد، غير أنني حذر للغاية. في البداية لا أتناول إلا المهروس من الطعام. خائفٌ أنا من أن أجرح نفسي أثناء البلع. أليس من الممكن أن ينفجر وعاء دموي مرة أخرى بسبب أيّ شيء لم يُمضغ جيداً، أو شيء حادّ، أو قضمة تُبلع بسرعة؟ لا أريد أن أتذكّر الدماء في المريء.

٢٢

أشعر بالساعة على معصمي، ساعة أبي التي تعمل من تلقاء نفسها. ألاحظ أنها توقفت. على زجاج الساعة بقعتان حمراوان ضئيلتان، رذاذ دموي، أحكّها وأحرك ذراعي عدة مرات يميناً ويساراً إلى أن يقفز عقرب الثواني مرة أخرى. تسير الساعة، ولكنها لا تشير إلى الوقت الصحيح. أحياناً، عندما أشعر ببعض القوة الباقية لديّ، أحرّك الذراع حتى لا تقف بعد برهة من جديد. عندئذ أحسّ كأنني ألوّح لشخص غير موجود على الإطلاق.

٢٣

أنام في كابينة خارجية، في جدار السفينة كوّة، أرى المياه، مياهاً

كثيرة، في بعض الأحيان تمرّ بنا جزيرة، غوّاصة تظهر من تحت الماء، جبل جليدي يقترب، أو سبّاح وحيد كادت قواه تخور. لا بدّ من أن هذا هو الماضي.

ركبت السفينة، أنا الآن بداخلها، وهي تتحرك في غرفة المستشفى، من الوسادة حتى الكومودينة، من الكومودينة إلى الخزانة في تجويف الجدار، من الخزانة إلى المائدة، على الكرسيّ، بجوار النافذة، إلى الحمّام، إلى التلفزيون على الجدار، ثم أواصل التحرك. أنا في الطريق، أخرج من الغرفة على السرير، يدفعونني، المرض هو الرحلة الكبرى، أو الجولة الكبرى le grand tour، إلى العالم السفلي، ذهاباً، وربّما إياباً. المرض زمن شاغر، إنه رحلة الفقراء. ألم أقرأ ذلك في مكان ما؟

## ٢٤

جزء أزرق من السماء أعلى النافذة. أشمّ عبير الورد على الكومودينة، ورائحة أغطية السرير النظيفة التي ما زالت متماسكة. تعجبني الخطوط الزرقاء الباهتة عليها، القماش مفرود على بشرتي. أزهار جميلة على الكومودينة. تقول الممرّضة، خارج الغرفة يسطع النهار، هذا شيء ربّما لن يلفت أبداً نظر مَن لا يعيش هنا. تضع لي، مثل كل يوم، جهاز ضغط الدم وتلفّ الرباط حول عضدي، ثم تغلقه بالشريط اللاصق. أجهزة قياس ضغط الدم، هذا ما لاحظته، مزوّدة بشرائط لاصقة تحدث صوتاً عالياً للغاية، من الآن أنتظر بشوق الصوت الذي سأسمعه عندما يُفتح الشريط مرّة ثانية. تنفخ الممرّضة الرباط

بالمنفاخ الكروي في يدها اليسرى، ثم تترك الهواء يخرج ببطء، تضغط طرف السماعة على بشرتي فوق ثنية الذراع، وتصغي مبقية العدّاد تحت نظرها. في الحقيقة تحتاج إلى أيادٍ أكثر، يد للسماعة، وأخرى لضبط صمام العداد، وثالثة لذراعي. ولكن ليس لها، مثلي، سوى يدين.

تعجبني اللمسة.

# حوتي الأبيض

بعد تسعة أيّام يسمحون لي بمغادرة المستشفى. ما زال «موس» التفّاح على المائدة، ومنظر البانيو ليس جميلاً. عادت ابنتي من رحلتها، تمر هي وأمّها لزيارتي وتتعجّب، وهي التي لم تتعدّ الثالثة، من ضعف الأب. «امشِ صح»، تقول لي، عندما نهضت محاولاً السير خطوتين، ثلاث خطوات، أربع خطوات. «عليك أن تسير هكذا»، تقول لي وتبيّن لي كيف: منتصبة القامة، مستقيمة، تمدّ قدماً أمام الأخرى. الأب، أتذكر، عليه أن يكون طويلاً وقوياً، لا يمرض، ولا يموت.

السيدة روتشكي تحضر لي لحم بقر مطهوّاً في الفرن. أرقد على فراشي، أنام كثيراً، بالكاد أذهب إلى الحمّام، وأشاهد مسلسلات، مسلسلات كثيرة. لديّ وقت. أشاهد مسلسل Six Feet Under ومسلسل The Sopranos وLost.

بعد أسبوع أنزف مرة أخرى، وأذهب مرة أخرى إلى المستشفى. وفي هذه المرّة، يتجمّع الدم داخل الجسم. أركب بالفعل سيّارة أجرة. يُغمى عليّ في قسم استقبال حالات الطوارئ، عملية أخرى، الكيّ مرة أخرى، ثم غرفة العناية المركزة مرة أخرى. لم يعد لديّ دم كثير. أحصل على كيسين من البلازما.

٢٥

عندما استيقظت، رأيت «ب» في غرفتي. ضاحكاً هنّأني، لأنني ما زلت هنا، لأنّني ما زلت حيّاً، هذه معجزة صغيرة. يواصل حديثه، أصغي إليه، أحبّ صوته الذي أعرفه منذ فترة طويلة، منذ أربعة وعشرين عاماً. وأعرف ما سيقوله لي هذا الصوت حالاً، أنني يجب أن أوضع مرة أخرى على القائمة، لا بد من أن أعود إلى قائمة المنتظرين لكبد جديدة، وهي القائمة التي كنت مسجّلاً فيها حتى بضعة أشهر مضت. «يجب أن توضع مرة أخرى على القائمة». نعم، أجيب، أعرف.

٢٦

نتائج التحليل سيّئة، يجب أن أبقى في المستشفى.

أرقد فترة، أشعر بالملل، وأتعلم ببطء السير ثانية. ممسكاً بيد متخصّصة في العلاج الطبيعي أزحف عبر الممرّ، تحذّرني، يجب أن أرفع قدميّ لا أن أجرّهما. أواصل جرّ قدميّ لأنني أودّ سماعها مرّة أخرى تقول: «من فضلك، لا تجرّ قدميك». يعجبني صوتها أيضاً. ممسكاً بيدها أترجّح حتى نهاية الممرّ، وهناك نقف متجاورين. أنظر إلى مهبط المروحيات. حرف H ضخم مرسوم على الأرضية. فجأة أتخيّل أنني أركب المروحية معها، مع المتخصّصة الجميلة

في العلاج الطبيعي التي يعجبني صوتها كثيراً. وأصعد وأطير في السماء التي تميل إلى اللون الرمادي، إلى مكان ما، أحلم بالهروب الكبير. لكنها تقول إن علينا أن نواصل السير عائدين إلى الممرّ، مارّين بصور مستلّة من روزنامة قديمة، ومؤطرة بشكل مائل؛ صور معلقة يميناً ويساراً على الجدار: سلياندسفوس، أي شلّال المياه في إيسلندا؛ تماثيل المواي في جزيرة الفصح؛ جبلان عند غروب الشمس؛ مونومنت فالي، أي وادي النصب؛ يوتا، وتلك الأشياء المأخوذة من إعلانات السجائر وأفلام الكاوبوي لجون فورد. الصورة تحركت من مكانها داخل الإطار.

ثمّة مقاعد في الناحية الأخرى من الممر، مائدة من أسلاك بيضاء مضفورة، وثلاثة كراسيّ، اثنان منها مبطنان. زهرة أوركيد بيضاء تزهر في رفّ خالٍ تماماً ـ هل هي من البلاستيك؟ لا، هذه النباتات تبدو كأنها مصطنعة. ما زلت ممسكاً بيد متخصّصة العلاج الطبيعي، اسمها، البطاقة الصغيرة المعلقة على صدرها تنبئني بذلك، يوهانّا، أستدير وأترجّح ثانية في اتّجاه مهبط المروحيات. على الحائط تلفت نظري صورة أخرى، جزيرة الأحلام بورا بورا، في بولينيزيا الفرنسيّة، ألوان الصورة مقتصرة على الأخضر والفيروزي والأزرق. أقول: يوهانا، أريد أن أذهب معك إلى هناك.

٢٧

يطلق الدرويش على الحياة تسمية رحلة. أتمكّن مرة أخرى من الذهاب إلى الحمّام. على الأقل أقوم بهذه الرحلة.

## ٢٨

بعد عدّة أيّام يُسمح لي بالسير في الممرّ بدون يوهانا، أتأمّل مطفأة حريق معلقة على تجويف بالجدار، كان يمكن أن يُعلّق عليه أيضاً تمثال قدّيس. درابزين خشبي يمتد على طول الجدار في الممر. أسير ببطء بالغ حول عربة الأدوات الطبية، وعليها رباط للجروح (معقم ومغلف)، فيكسومول ستريتش، مرهم بيبانتين، وقفازات تُستخدم مرّة واحدة. خلف العربة سريران فارغان مغلفان كلياً بالبلاستيك الشفاف، ينتظران مرضى جدداً. بالغلاف البلاستيكي الشفاف تبقى الأسرّة خالية من الجراثيم ونظيفة تماماً. أُجري مناورة حول السريرين، أستند إلى رأس أحد السريرين، وأجد نفسي مرة أخرى عند زهرة الأوركيد البيضاء قرب مجموعة الكراسي المصنوعة من الأسلاك المضفورة. على حافة النافذة المجلة التي توزع مع صحيفة «دي تسايت»، لم أرها في اليوم السابق. أمدّ يدي في اتّجاهها، وأفتحها، وأقرأ بضعة أسطر في ريبورتاج عن مكبّ قمامة ضخم في القاهرة. تعجبني المجلة، تعجبني المجلة أكثر من المعتاد، غير أنني أستغرب شيئاً. هناك خطأ ما. السيّارات المُعلن عنها على صفحات كاملة، الموديل الجديد من «ساب» مثلاً، سيّارات قديمة وغير متناسقة في الشكل، إعلانات صغيرة عن شركات لم أسمع عنها منذ زمن بعيد. هل شركة فانغ كمبيوتر ما زالت قائمة؟ ألقي نظرة على صفحة الغلاف وأتعجّب: مجلة «دي تسايت» صدرت عام ١٩٨٧. ١٩٨٧؟ كيف وصلت إلى هنا؟ وفي أيّ عام نعيش الآن؟ هل عدت إلى الخامسة عشرة، الرابعة عشرة، الثالثة عشرة؟

٢٩

أنا الآن في الثانية عشرة، وأشعر بمغص في البطن، أعاني كثيراً من مغص في البطن، غير أنني لا أهتم بذلك. مرّةً كنت مع أبي في إجازة للتزحلق على الجليد قبل رأس السنة وبعده. الطبيب، صديق لصديق لوالدي، يلقي نظرة على بطني، يتحسّسه، ويكتشف أن كبدي متضخّمة. يقول إنني يجب أن أذهب إلى الطبيب بعد عودتي إلى المنزل. بعد أسبوع تشخص طبيبة العائلة إصابتي بالتهاب في الكبد. يجب أن أذهب إلى المستشفى، لكن الأطبّاء هناك لا يجدون شيئاً يشير إلى سبب الالتهاب، لست مصاباً بالتهاب الكبد الفيروسي أ أو ب، ولا بفيروس آخر سواهما، كما كانت الأنماط المختلفة لهيباتيتس ج تُسمّى في مطلع الثمانينات. وبعد أخذ عيّنات عديدة من كبدي للتحليل يكتشفون في نهاية المطاف أنني مصاب بالتهاب الكبد المناعي الذاتي أرقد الآن في مستشفى بون الجامعي للأطفال. جهاز المناعة لديّ يعتبر خلايا الكبد في جسمي أنسجة غريبة، ولهذا يكوّن أجساماً مناعية ذاتية مضادّة، وهذه الأجسام المضادّة هي سبب التهاب الكبد. إلى يومنا هذا لا يُعرف سبب تصرّف جهاز المناعة على هذا النحو.

٣٠

أتطلع من النافذة وأراقب تحضيرات العملية الجراحية في الدور الأول من المبنى المقابل، امرأتان ترتديان ثياب غرفة العمليات الخضراء تقفان في الغرفة ذات الجدران المكسوّة بالسيراميك. إحداهما ترتدي

الآن قفازاً مطاطيّاً، ترتبان معاً أدوات الجراحة وتتبادلان الحديث خلال ذلك. بعد هذه النافذة بعدّة نوافذ، وفي طابق أعلى، أرى رجلاً أشيب الشعر في غرفته. يجلس إلى الطاولة متطلعاً من النافذة. يبدو أننا ننظر إلى الشجرة نفسها، الشجرة المزروعة أمام نافذتي، شجرتي التي لا يحيد بصري عنها طوال اليوم. هو يعتبرها ملكه. في الأسفل، أسمع صرير بدّال درّاجة، ثم يمرّ سائق الدرّاجة مرتدياً بدلة الشغل، ربما كان موظفاً في القسم التقني في المستشفى. يجلس على درّاجة يمكن طيّها. يبدو كأنه يقود درّاجته بهدف الاسترخاء، بتؤدة وهدوء يدوس على البدّال.

## ٣١

أنا في الثانية عشرة، ثم الثالثة عشرة، وكبدي تالفة، بالتأكيد كانت الكبد ملتهبة منذ فترة. كبدي، رغم أنني ما زلت طفلاً، تشبه كبد مدمن كحول منذ خمسين عاماً. غير أنني أستطيع أن أواصل الحياة بثلث كبد، وبمستوى من إنزيمات الكبد أقلّ من المستوى المرغوب. المهم ألا تسوء نسب إنزيمات الكبد، يقول «ب»، طبيبي. أبدأ علاجاً مختلطاً، كورتيزون وأدوية مثبطة لعمل الجهاز المناعي. يهدأ الالتهاب، ويبقى التليّف. حالتي جيدة. حالتي جيدة إلى أن تظهر أولى بوادر الأعراض الجانبيّة للأدوية. ينتفخ وجهي ويصبح دائرياً، وجه المراهق، الذي هو أنا، يبدو كوجه حيوان الهامستر، الوجه أكثر امتلاءً من وجه هيلموت كول. بشرتي تصبح رقيقة، وعظامي ليّنة، أعاني من هشاشة العظام كامرأة عجوز. أُصاب المرّة بعد الأخرى

بالتهاب في الأربطة، ومن أخفّ لمسة تظهر الكدمات الزرقاء. أُصاب بالمياه الزرقاء لأن الكورتيزون يرفع ضغط العين الداخلي، يجب أن أضع قطرات في العين تجعل حدقتي صغيرة كسنّ إبرة. لا أكاد أستطيع التعرّف إلى شيء، ويبدو منظري كمدمني الهيروين. أُصاب بقصر النظر، وأحصل على نظارة، وعلى شرائط لاصقة على البشرة لتوسيع الحدقة. أتناول عدداً أكبر فأكبر من الأدوية لمواجهة الآثار الجانبية للأدوية، وهي بدورها لها آثار جانبية. لم تعد لديّ مشاكل إلا مع الآثار الجانبية للأدوية. بسبب الآثار الجانبية وحدها ألاحظ كم أنا مريض. هذه هي الجملة التي أكرّرها المرة تلو الأخرى للأطبّاء، منذ نحو ثلاثة عقود إلى الآن. أتناول أدويتي، منذ ثلاثة وعشرين، أربعة وعشرين، خمسة وعشرين عاماً، صباحاً وظهراً ومساءً، وأتناول أدوية لمواجهة الآثار الجانبية للأدوية. أحياناً، هكذا أتخيّل، أسمع سيمفونية الأدوية تصدح في داخلي. ما أجمل تآلف نغماتها، ويا لروعة هذا الصخب!

٣٢

شجرتي تومئ بأغصانها. تومئ في ضوء الصباح، وخلال هبوب الريح. أمّا هامة الشجرة فتتماوج في رقة.

أحد العاملين في الحديقة يقف في الأسفل ويرشّ الحشائش، المسافة الصغيرة الظليلة نفسها، مثلما فعل في اليوم السابق. نعم، أعتقد أنه زرع هناك شجرة جديدة. على الطريق عربة يدويّة صغيرة، فيها كيس قمامة أزرق، متجعّد، وممتلئ حتى منتصفه.

٣٣

هنا يتعثر الوقت، يتراكم. في الحقيقة ينبغي أن أتذمّر بسبب كل هذا الوقت.

٣٤

أنا في الخامسة عشرة، والضغط الداخلي للعين عالٍ جداً بسبب الكورتيزون. ولهذا يجب قياسه كل أسبوعين. ولكن بدلاً من الذهاب إلى طبيب العيون الذي تقع عيادته في المنزل المجاور للمدرسة، أفضّل الذهاب إلى مستشفى العيون، وبذلك يكون لديّ سبب لمغادرة المدرسة مرّة أخرى بعد الحصة الثانية أو الثالثة، وأركب الترام حتى محطة السكك الحديدية، ومن هناك أتوجّه عبر طرق ملتوية، غالباً سيراً على الأقدام وأحياناً بالباص، إلى مستشفى العيون على جبل فينوس. معي كتاب لا أقرأ فيه معظم الأحيان، ودفتر لتدوين الملاحظات لا أدون فيه شيئاً.

أنا متعب. أنا دائماً متعب ـ وهذا من الأعراض المصاحبة للكبد المريضة. ربّما كان هذا مجرد تعب عادي تماماً، من يستطيع أن يعرف؟ تعب يصيبني كما يصيب الآخرين. هل يشعر كل الناس بالتعب الدائم؟

الكبد، الحوت الأبيض داخلي، ترقد تحت التجويف الأيمن لضلوعي، كبدٌ كبيرة وهادئة ومتضخمة تبرز بوضوح، لكنّني لا أشعر بها. تنخفض كفاءتها ببطء، لكنها تنخفض.

ومهما كان ما يحدث، ومهما كان اليوم ـ مثيراً، خارجاً عن المألوف، مملاً، أو عادياً ـ أجد نفسي ثلاث مرات على الأقل يومياً أفكر كم سيكون جميلاً أن أموت، كم سيكون جميلاً أن أهبط إلى أعماق المياه، أن أقفز من السطح، أو أن أطلق رصاصة على الرأس، لو كان لديّ مسدس. لا أريد أن أفهم أو أنني لا أستطيع أن أفهم ما يقوله «ب» لي دائماً، وهو أن لتعكر مزاجي وأفكار الانتحار سبباً فيزيولوجياً أيضاً، وأن كبدي التالفة هي التي تمنعني باطراد من التركيز في شيء، أو استجماع قواي لفعل شيء أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، رغم أنني لن أتّهمها بذلك، وأنا سعيدٌ بوجودها داخل جسمي. في الأيّام غير الجيدة أتحرّك وأنا شبه ذاهل، في الأيّام السيئة أذهب بعد الاستيقاظ مباشرة إلى الفراش، وفي خيالي أرى العالم شبه المحجب يتراقص.

## ٣٥

يدخل طبيب إلى الغرفة، طبيب لم يتعرف إليّ بعد، ويفحصني للمرة الأولى. يتعجب من أنني أتحدث معه بعقل صاف. المرضى الآخرون، يقول لي، يكونون مع ارتفاع مشابه في نسبة الأمونيا في الدم مشوّشين للغاية. أقول لنفسي: وأنا أيضاً، غير أنني أُحسن إخفاء ذلك، بعد ثلاثة وعشرين، بل أربعة وعشرين عاماً تقريباً، أصبح لديّ بعض الخبرة في ذلك، أستطيع التوافق مع تشوّش ذهني، ألفْتُه. ولكن، مَن يعرف، قد أكون أكثر تشوّشاً ممّا أعتقد. قد يكون كلّ شيء مختلفاً تماماً عمّا أعتقده. من يعرف إلى أيّ مدى انحرف

وعيي؟ أيّ وعي هو الصحيح إذاً؟ هل هناك ذلك الوعي؟ هل ما أراه وأسمعه وأشعر به وأفكر فيه هو الواقع؟ أم هو ربما كان مختلفاً تماماً؟ هل أرى كل شيء مصطبغاً بصبغة بيوكيميائية؟ ملوّناً؟ وهل يحدث بالفعل كل ذلك حولي؟

الكبد السليمة، يشرح لي الطبيب، مسؤولة عن التخلص من الأمونيا. إذا زادت نسبة الأمونيا في الدم على حدّها يشعر الجسم بالتعب، ويفكّر في أشياء غريبة.

صحيح، أنا متعب. متعب دائماً. أنا متعب للغاية، وهذا التعب لا يزول بالنوم. أنا أسكن الآن في بلاد الواق واق، يعجبني هذا، فهي جميلة، ومريحة، وكلّ ما ليس مريحاً مستبعدٌ فيها. لم أعد أعرف أين أنا، ولم أعد أعرف أين كنتُ لتوّي، أدخلُ غرفةً ولا أعود أعرف ما كنت أريده. أنا أفكر، بكلّ وضوح، هكذا هو الأمر، والفكرة ـ هكذا أتوهّم ـ تريد أن تُنطَق، غير أنني لا أستطيع أن أنطقها عندئذ، يتضح أن الفكرة شعور مبهم لا يمكن تحويله إلى أصوات ونغمات. أحياناً يجب عليّ أن أتخيّل كل ما أودّ قوله ككلمات مكتوبة حتى أنطق به. أحياناً أكتبه فعلاً، فأنا أحمل معي دفتراً صغيراً، ولكن ماذا كانت الفكرة؟ ها هي قد طارت. انزلقت. غرقت. تاهت في النسيان. كثيراً ما أتلعثم، ولا أعود أعرف بمَا كنت أفكّر. إنني أغرق. أيقظني من فضلك، أخرجني من هنا.

لا أستطيع شرح ذلك للطبيب. رغم ذلك أحاول، أحاول أن أصف له شعور الإنسان بالتسمّم الذاتي، هذه الغلالة التي تغطي كل شيء، هذه الإزاحة، الإزاحة المرحلية، في بعض الأحيان أرى

الناس، مثلاً، وهم يحرّكون شفاههم، غير أنني أسمع الصوت بعد ذلك بفترة أطول، وكأن الصوت اختلّ وتزحزح عن مكانه في الواقع. أحاول شرح ذلك، وأسمع نفسي أتحدّث، وأتعجب مرة أخرى من غرابة وقع ما أقوله على أذني. أيّ أصوات هذه؟ هل تعني هذه الأصوات شيئاً؟ ما أغرب سماع صوت الذات، ما أعجبه!

هل أنا مَن أنا بسبب التسمّم البطيء فحسب؟ هل سأسمع نفسي على نحو مختلف تماماً من دون أمونيا؟ أم السبب يكمن في الأدوية؟ ألا يقولون إن الكورتيزون يسبّب الاكتئاب؟ هل تؤثر الكيمياء في شعوري ووعيي للأشياء؟ أليس من الممكن ألا أكون ذلك الإنسان الذي أعتقد أنني هو، لأن الأدوية التي أتناولها منذ فترة طويلة، منذ سنوات وسنوات، قد حوّلتني إلى إنسان آخر؟ هل ما أشعر به، وما أعتقد أنني هو، ليس إلا نتيجة للمرض؟ حالة مَرَضية؟ هل لحزني أسباب كيميائية بسيطة للغاية؟ هل تُحدّد الكيمياءُ الحيويةُ في جسدي مشاعري؟

## ٣٦

عندما غادر الطبيب الغرفة، نهضت وذهبت إلى الخزانة، وبحثت عن ملابسي، وارتديتها وسرت إلى مكتبة المستشفى. أعرف هذه المكتبة، لقد زرتها مرات عدة. أضع معطفي في إحدى الخزانات وأغلقها، ثم أسير إلى صالة القراءة البيضاء المُنارة، وأختار من الكتب المعروضة في الصالة بعض الكتب التعليمية الطبّية، وأنظر تحت كلمة «كبد»، وأبدأ بالقراءة. أقرأ أن الكبد تنتج البروتينات وتوفر الطاقة، وتخزن

الغليكوجين والفيتامينات، وتساعد على هضم الدهون، وتتخلص من المواد السامة، وتنظم تجلط الدم، وتكافح العدوى. هناك نحو خمسمئة وظيفة يمكن نسبتها إلى الكبد. أتتبّع الإحالات، وأصل إلى الاكتئاب التخفيفي، وغيبوبة الكبد، والاعتلال الدماغي بسبب الأمونيا التي قد تسبب تشوّش الوعي والهذيان الارتعاشي والأحلام. أنا هنا في الموضع الصحيح، الحالة الحُلمية تثير اهتمامي. أليست تلك الحالة المعلقة، البين بين، هي تحديداً ما يعجبني في الوجود؟ أيحوّل التسمّم البطيء، ربما، كل شيء إلى أشياء جميلة؟ نظرتي الإنستغرامية؟

الكبد، أواصل القراءة، كانت لوقت طويل عضواً محاطاً بالأسرار. لم تكن فائدتها معروفة، هذه الغدة الكبيرة، أثقل الأعضاء وزناً في جسم الإنسان؛ كان معروفاً فحسب أن سبب فقدان القدرة على التركيز واللون الأصفر هو أمراض الكبد. كان جالينوس وأبقراط يعتقدان أن الكبد مركز الروح في الجسد، المكان الذي تنبع منه حرارة الجسم، ومصدر الدم.

مصدر الدم؟ الدم ينساب عبره في أي حال، من دون توقف. كما أن الكبد تنتج عُصارة المرارة. أبدأ بالاهتمام مرة أخرى بعصارات «علم العناصر» القديم؛ كان ذلك العلم ينادي بأن للكبد علاقة بتقلّبات المزاج. ووفقاً لتعاليم أبقراط كان المصابون بالسوداوية والكآبة يُنصَحون باحتساء النبيذ الأبيض الذي يكون له مفعول ضد المرارة السوداء. في النهاية، وخلال قراءاتي العشوائية، أعثر على نظرية ينادي بها بعض الأطبّاء الذين يعتنقون نظرية التطوّر، وهي

تدعي أن الأحوال السوداوية لها وظيفة، فهي في أي حال موجودة لدى كافة الثقافات والشعوب، حتى عند الشعوب البدائية. يبدو أن الإمعان في التفكير والتأمّل يمنحان ميزة تطوّرية. ففي بعض الأحيان، وبعد عدة سنوات يقضيها المرء في الكهف، أو على الأريكة، أو هنا في المستشفى، قد يخطر على بال الإنسان شيء ما.

أغادر المكتبة وأسير تحت شجرة الكستناء ذات الأزهار الحمراء، وأعود إلى المبنى الذي يضم حجرات المرضى. في الطريق الأوسط، يتحتم عليّ أن أغمض عيني نصف إغماضة، أشعر كأنني على أرض جامعة أميركية: لديّ غرفة في بيت الطلبة، أتقاسمها مع زميل الدراسة. الفارق هو أنهم هنا لا يهتمّون بتربية الذهن، بل الجسد. يفعلون به ما يشاؤون.

٣٧

بطني ممتلئ بالماء، هذا شيء لا أستطيع إنكاره. أحمل في جوفي أربعة، خمسة، ستة، سبعة لترات من الماء، سرّتي بارزة، أستطيع أن أضغط عليها وأُدْخِلها، غير أنها تبرز من جديد بعد وقت قصير. بطني كبطن طفل في الثانية أو الثالثة من عمره.

٣٨

عاقب زيوس بروميثيوس لأنه أحضر النار للإنسان، فقيّده بالسلاسل إلى صخرة، وسلّط عليه نسراً ينهش كلّ يوم قطعة من كبده. كان بروميثيوس مقيّداً، غير أنه لم يمت. تعرّف الأسطورة القدرة المدهشة

للكبد على تجديد ذاتها. أنسجة الكبد تنمو ثانيةً، مَن كان يظن ذلك! انمي إذاً يا كبدي العزيزة!

٣٩

في روما القديمة كان المشاهدون يحاولون أحياناً انتزاع قطعة من كبد مصارع شجاع قُتل خلال المصارعة: تناول كبد المصارع تسع مرات يمكن أن يشفي من الصرع. للأسف، لست مصارعاً.

٤٠

يرقد بجواري تاجر مشروبات، نعم، أعرف سبب وجوده هنا: يتحتم على تجّار المشروبات أن يفرطوا في الشراب في المتجر. لا يبدو أنه يشعر بمرضه، فهو ينهض مرة بعد أخرى، ويغادر الغرفة، ويتقابل، بحسب ما يحكي لي، مع عشيقته. لا زوجته ولا الأطبّاء يجب أن يعرفوا عن ذلك شيئاً. ينبغي أن أقول إنّه يتمشى في الحديقة. تأتي زوجته لزيارته أيّام الأحد، وتحضر له بيجامات نظيفة. عشيقته ـ لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يحكي ذلك لي، وأنا لم أدرك على الفور أنه يريد بحكاياته أن يتباهى ـ لديها استديو للعناية بالأظفار في «مولر-شتراسه»، على مسافةٍ غير بعيدة من هنا، أي إنه يحتاج إلى عشر دقائق فقط حتى يصل إلى غرفتها الخلفية. لا أريد على الإطلاق أن أسمع هذا كله. إضافة إلى مشكلة كبده ـ مرض المهنة لتاجر مشروبات بالجملة ـ هناك ظهره التالف. لقد أُجريَت له أيضاً عملية انزلاق غضروفي.

نزهاته تلهمني بفكرة. بعد العشاء الذي أتناوله راقداً كالمعتاد، أنهض وأرتدي ملابسي، وأغادر الغرفة والقسم، وأهبط مستخدماً المصعد. أسير إلى المدخل الرئيسي، وأركب سيّارة أجرة قاصداً عشاءً دعاني إليه أحد معارفي. نجلس نحن التسعة حول مائدة كبيرة في مطبخه الواسع: ناشرة إحدى المجلات الفنّية (حامل) وصديقها، وناقدة فنّية، وصاحب غاليري، وعازفة موسيقية، ومُديرة معارض فنّية، وفنّان فيديو. تدور الأحاديث حول عُمان كبلد سياحي، والوضع السياسي في إيطاليا، ومزايا شاي الزنجبيل وفاعليته عند الإصابة بالبرد. أشعر كأني ضيف في مسلسل تلفزيوني، كومبارس؛ لا أحد هنا يعرف أنني الآن في المستشفى، لا أبوح بأيّ شيء. تلاحظ الممرّضة الليلية ـ الآن، ربما في هذه اللحظة ـ سريري الشاغر خلال جولتها الأولى. أمكث ساعتين، آكل قليلاً، لا أشرب سوى الماء، ثم أستأذن منصرفاً، وأطلب هاتفياً سيّارة أجرة وأعود إلى المستشفى. إلى البيت. لا يراني أحد في الممرّ. لقد أشعلوا الإضاءة الليلية. آخذ زجاجة مياه من الصندوق إلى جانب عربة الشاي، وأجلس في الغرفة المشتركة وأشغّل التلفزيون.

فيما بعد ـ أرقد الآن ثانية على سريري ـ تدخل الممرّضة الليلية إلى الغرفة شبه المعتمة، وتتأكد عند سرير جاري من عمل جهاز القسطرة الوريدية، ثم تعلّق زجاجة جديدة، وتفرغ قارورة البول. بصوت خافت تتمنّى لي ليلة طيّبة.

يدخل طلبة إلى الغرفة فيذكّرونني بأنني في مستشفى جامعي. هنا يتدرّب الأطبّاء. حالتي مثيرة للاهتمام، تعالوا وانظروا إليّ، إنني أؤدّي دوري في السرير، يا أطبّاء المستقبل، ماذا نتعلم اليوم؟ انظروا، هل تتعرّفون إلى مرضي؟ هل تفهمون العلامات والكتابة على بشرتي؟

قبل سنوات، في العام ١٩٩٢ أو ١٩٩٣، ذهبت بالفعل إلى قاعة المحاضرات ووقفت أمام الطلبة خلال محاضرة لطبيبي «ب»، كبرهان على أن المريض يستطيع العيش بكبد دُمّر ثلثاها. قلت جملاً قليلة ـ إنني أتدبّر أموري، نعم، إنني في الحقيقة أعيش حياة عاديّة تماماً، إنني في كثير من الأحيان لا أفكر في مرضي إطلاقاً طوال أيّام، بل طوال أسابيع، وإنني نادراً ما أشعر بنفسي مريضاً، إن مرضي ليس له دور، أو لا يكاد يكون له دور في إدراكي لنفسي، رغم أنني بالطبع أتناول الأدوية في كل يوم، صباحاً ومساءً ـ «غير أنه في بعض الأحيان لا يتناولها»، قال «ب» معترضاً، وهو ما أنكرته رغم أنه قد يكون محقاً. على الأرجح دار الحديث آنذاك أيضاً ـ غير أنني لم أكن أريد سماع حرف عن ذلك ـ حول عملية محتملة لزرع كبد. عرضتُ ساعديّ على الطلبة في الصف الأمامي الذين يكبرونني ـ إنْ كانوا يكبرونني ـ بعامين أو ثلاثة أعوام فحسب. كان عليهم أن يتعرّفوا إلى ما يظهر عليهما ممّا يطلق عليه الأطبّاء Spider naevi، أي الأورام الوعائية العنكبية، وعلامات مرض الكبد الأخرى، ثم طرحوا أسئلة عن أعراض المرض، مثل التعب واصفرار البشرة. وقفت أمامهم بترحاب عارضاً عليهم بشرتي.

راح الطلاب الذين يقفون الآن في حجرتي ـ والذين لم يعد أحد يطلق عليهم تسمية «طلاب»، بل تسمية «دارسين» ـ يلمسونني. لا مانع لديّ. إنهم يتعلمون تحسّس المريض، والنقر على جسده، يتعلمون تكوين صورة عن الأعضاء الداخلية من دون موجات فوق صوتية، يتحسّسون حجم كبدي المتضخمة ووضعها، وحوصلتها المرارية، وطحالي. لا أعتقد أنهم يتعلمون ذلك بجدّية. يُعرَض عليهم فحسب كيف كان الأطبّاء يفحصون المرضى طوال سنوات، وكيف يستطيعون أن يفعلوا ذلك إذا انقطع التيّار الكهربائي. بكل تأكيد سينسون ذلك سريعاً، فلم يعد أحد يفحص المرضى إلّا باستخدام السونار. هنا وهناك يخطون خطاً بقلم الحبر الجاف، ويرسمون شيئاً على بشرتي. يعجبني هذا. بأدب يسألونني المرّة تلو الأخرى هل يُسمح لهم بأن يتحسّسوني هنا أو هناك مرة أخرى. أسمح لهم. عدا ذلك لا يلمسني أحد تقريباً، فالمهم هو نتائج التحليل وحدها، الشفاء عبر وضع اليد لم يعد مألوفاً، لا في هذا المستشفى ولا في أيّ مكان آخر. كنت أحب الطريقة التي يتحسّسني بها «ب»، كيف ينقر على جسدي، وينصت إلى سمّاعته: طوال سنوات كان الفحص يسير على هذا النحو، السبابة الممتدة على جدار البطن، ثم النقر بجوارها. ترى، ماذا كان يسمع؟

عندما انصرفوا، رحتُ أتأمّل العلامات حول سرّتي محاولاً أن أفكّ شفرتها، غير أنني أخفق في قراءة ما خلّفوه. غداً، أقول لنفسي، سأغسل ذلك، غير أن الكتابة تمّحي قبل ذلك؛ رشات قليلة من السائل المطهّر ثم الفرك مرّتين، فإذا بها تختفي. يخطر في بالي

عندئذ أن ظهوري في قاعة المحاضرات أمام طلاب «ب» كانت له تبعات. بعد أربعة أسابيع أو خمسة ـ كنا قد بلغنا الصيف، وكاد الفصل الدراسي ينتهي ـ خاطبتني امرأة ذات شعر أشقر يميل إلى الحمرة في مقهى «سافيني»، وقالت لي إنها رأتني في المحاضرة. ضحكتْ واعترفتْ بأن الأمر يسبّب لها بعض الحرج لأنها تعرف الكثير عني، لكنّني لم أشعر بالحرج على الإطلاق، بل العكس. حكت لي أنها ستطير بعد عدّة أيّام إلى الولايات المتحدة، إلى مدينة ما في وسط الغرب، وأنها ستعمل هناك ثلاثة أشهر في مستشفى. أتذكر أننا التقينا مرّة أخرى، وقمنا برحلة وداع مع أصدقائها إلى قرية صغيرة في براندنبورغ، وتبادلنا القبل خلف كنيسة كبيرة واقعة على بحيرة ومبنيّة بالطوب الأحمر. بعد ذلك كنت على الدوام أتطلّع إلى رؤيتها، غير أنّنا لم نتقابل مرّة أخرى.

## ٤٣

تدخل الغرفة إحدى الممرّضات وتجسّ نبضي، وتقيس ضغط دمي. أشعر كأن جسمي ملك لها. أفكر في كل مَن تحسّس جسدي طوال سنوات حياتي، فأتذكر أمي وأبي، وكل الأطبّاء وأطبّاء الأسنان الذين تردّدت عليهم، والحلاقين والحلاقات، والنساء اللائي نمت معهن، وأولئك الأشخاص الذين تمتعوا بثقة غير محدودة ففقأوا بثور ظهري وأنا نائم إلى جوارهم، واختصاصية العلاج الطبيعي التي تدلّك كتفي، والطفلة التي ألعب وأتصارع معها فوق السجّادة. وما أكثر أولئك. أغلب الوقت قضيته مع نفسي وحيداً تماماً. لكن الجسد

الذي يُعالج هنا في المستشفى لم يعد ملكي. لقد سلمته، ووقّعت على ذلك. أترك للآخرين حرّية التصرّف.

٤٤

أنا أصغر المرضى في القسم، لم أعد كذلك في أماكن أخرى. عُمر جيراني في غرفة المستشفى ضعف عمري، تاجر المشروبات من الممكن أن يكون أبي. أمّا الممرّضات فينادونني بـ«الشاب»، وهو ما لم أعد أسمعه كثيراً. أقول لنفسي إن هذا، على الأرجح، ليس إلا سخرية برلينية.

٤٥

في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان أحد خيالاتي المحبّبة أن أتصوّر جنازتي. أتخيّل نفسي أمثل وقوع حادثة خلال السباحة أو على القارب، ثم أختفي. البحيرة التي غرقت فيها ـ هكذا يجب أن تسير الأمور ـ لا تمنح أحداً جثتي. وأخيراً، وبعد بحث غير مُجدٍ، يعلنون وفاتي، ويقولون إن جثتي ترقد في الطبقة العميقة من الرمال والطحالب في قاع بحيرة لاخ. وبينما أختفي عن الأنظار وأسافر عبر إسبانيا إلى أميركا اللاتينية، أودُّ ـ وهذا من تناقضات خيالي ـ أن أحضر جنازتي بأيّ حال من الأحوال، وأن أراقب من مسافة معقولة، متنكراً جيّداً، كيف يدفنون تابوتي الفارغ.

٤٦

كنتُ في السادسة عشرة، أو ربما في السابعة عشرة، عندما ادّعى

«ب» أنني لم أتناول أدويتي، فلا شيء غير هذا يفسّر تدهور نتائج التحليل؛ ونتائج التحليل كانت دائماً هي كل شيء، كانت وما زالت هي حياتي. غير صحيح، لقد تناولت الأدوية بكل تأكيد، قلت له، غير أنني لم أصدّق تأكيداتي تماماً. ربما لم آخذ قرصاً هذه المرّة أو تلك، أو نسيت أحياناً قرصاً، أو ظننت خطأ أنني تناولته. في بعض الأحيان لا أتناول عمداً ربّما هذا القرص أو ذاك، لأن الكورتيزون، واسمه التجاري أوربازون، كان يترك دائماً ذلك الطعم المرّ في فمي إن لم أبلعه بالسرعة اللازمة. من الممكن أن أكون تناولت مرّةً قرصاً أقلّ، أو ابتلعت نصف قرص فحسب بدلاً من قرص كامل، لا أتذكر بدقة، غير أنني أتذكر أنني آنذاك كنتُ كثيراً ما أفضّل أن أكون ميتاً على أن أكون حيّاً، لأن تخيّل الموت كان أكثر سهولة من تخيل الحياة، هذه الحياة التي قد تمتدّ أمامي، وقد لا تمتدّ. لم أكن أعرف: ماذا أفعل بها؟ وأين؟ ومع مَن؟ ثمة احتمالات عديدة، احتمالات لا حدّ لها. تخيّل عدم بقائي على قيد الحياة كان أكثر سهولة من أن أصبح أيّ شيء، فالحياة أكثر تعقيداً بكثير من الموت.

٤٧

أنا هنا، ربّما، لا لشيء سوى أن أتذكر كلّ شيء مرّة أخرى. رصيدي من الوقت لا ينفد.

٤٨

ذات مرّة قفزت من رافعة بناء، من ارتفاع تسعين متراً. ثمة حبل

مطاطي كان مربوطاً بقدمي. في البداية قفزت كاتيا، التي كانت صديقتي آنذاك، ثم أنا. قفزنا لأنّ كلاً منا كان يقف على الحافة متهيّئاً للقفز، أو كان يبحث عن قفزة. لم أعد أعرف إلى أين كانت كاتيا تريد الوصول. كل ما أعرفه هو أنّني كنت قد سئمت السكن مع أبي في بيت أمّي المتوفاة. لم تعد لديّ رغبة في الذهاب إلى المدرسة، ولم تعد لديّ رغبة في الحياة في بون. لم تعد لديّ رغبة في أيّ شيء. كان سيعجبني لو تحطم كلّ شيء. كنت أتمنّى أن أراقب جمهوريّة ألمانيا الاتحادية وهي تنهار، وأن أراها تسقط. لكن جمهورية ألمانيا الاتحادية لم تسقط، ولم يُجبر هِلموت كول على الرحيل إلى المنفى الأرجنتيني، وذهب هونيكر بدلاً منه إلى تشيلي، واختفت جمهورية ألمانيا الديمقراطية؛ وهو أمر ليس بالمؤسف أيضاً، ولكن حدوث العكس كان سيفرحني آنذاك أكثر.

سافرنا أنا وكاتيا إذاً من بون إلى كولونيا. الرافعة التي أردنا القفز من فوقها كانت في كورفايلر، في ساحة كبيرة غير مبنيّة ممتلئة بالأنقاض، تحيط بها أبراج سكنية من كل جانب؛ منطقة غير جميلة، غير أنّ لها جاذبيّتها الخاصّة المتميّزة. رافعة البناء بذراعها كانت تعلو إلى ارتفاع مئة وخمسة أمتار. صعد بنا قفصٌ معدني، وعندما وصلنا إلى أعلى، انفتح الباب، وكان علينا أن نقفز. كنا نعتقد أننا سنموت قريباً في أي حال. كنا نقف على أعتاب الحرب النووية أو وقوع حادث ذرّي، كما كانوا يقولون آنذاك. ولأننا كنا على يقين نسبي بأنّ البشريّة كلها ستُمحى من الوجود قريباً، كان بإمكاننا أن نبدأ بمحو أنفسنا من الوجود. أن نتخيّل الموت النووي ونهاية العالم

والشتاء الذرّي كان أكثر سهولة من أن نتخيّل مستقبلاً لنا؛ هل يمكن أن تقول لي من فضلك أيّ مستقبل؟ لم يكن ثمّة مستقبل. كلّ ما يحيط بنا سيختفي قريباً، هذه الفكرة كانت تمنحنا بعض العزاء: كلّ هذا ليس مهمّاً إلى هذه الدرجة إذاً، في الحقيقة نحن قد متنا، متنا سبع مرّاتٍ، ثمانيَ، تسعاً، عشراً كم ضعفاً تبلغ القدرة التدميرية الذرّية؟ فيما بعد فقدنا هذا الشعور.

ثم القفزة. لم يستطع أحد من الذين حكينا لهم أن يستوعب أن كلاًّ منا دفع من أجل ذلك مئة مارك، وهو مبلغ كبير جداً آنذاك؛ ولكن المخدرات، كنا نقول لأنفسنا، لم تكن أيضاً رخيصة. تركت نفسي أهوي، لا أعرف مَن أو ماذا جعلني أقرّر ذلك. يُحتمل ـ وهو ما يخطر ببالي الآن ـ أن أكون ببساطة قد قفزت وراء كاتيا. كانت تحلم بأن تصبح إرهابية، كانت تحتقر هِلموت كول أكثر منّي، وكانت تفاجئني المرة بعد الأخرى بخطط الاغتيال الجديدة التي كانت تفكر فيها. كانت تريد أن تحاول إجراء مقابلة معه لصحيفتها المدرسية، وكانت تريد أن تقف عند إشارة المرور أمام ديوان المستشارية، ثم تقفز في سيّارته وتنتهز الفرصة وتغتاله. وأنا هويتُ. هويتُ وطرتُ، طرتُ خلال أكثر الثواني حرّيةً في حياتي حتى تلك اللحظة. مجرّد التفكير في ذلك يجعل الأدرينالين يتدفق في عروقي.



أنظر ناحية الجنوب، إلى نهاية السرير، الغطاء انسحب إلى أعلى، أرى أصابع قدميّ، أعدّها، وكأنّ عليّ أن أفحص ما إن كانت كلها لا

تزال هناك. أشعر بالراحة، لم يضع أيّ منها. قبل فترة طويلة، أتذكر الآن، كانت مطليّة يوماً باللون الأزرق. أعدّ الأصابع مرة ثانية وأتخيّل أن المحيط الهادئ يقع خارج الغرفة، وأنني نزيل غرفة بفندق في أكابولكو، كما حدث عام ١٩٩٦ أو ١٩٩٧، ما الذي تناولته؟ طوال الليل وطوال النهار لم تفارقني فكرة واحدة: إن كان يجب أن أموت الآن فما معنى كل هذا؟ ولمَ أنا هنا أصلاً؟ لماذا يعيش الإنسان أساساً؟ هل كان صمودي اليومي طوال تلك السنوات لكي أموت في النهاية في غرفة فندق، وتحديداً في أكابولكو؟ رغم أنه كان واضحاً لي، أو كان من المفروض أن يكون واضحاً لي، أنني لن أموت بالتأكيد في هذه الليلة التي لم يكن فيها أحد يعرف أين أنا. لا يموت أحد بهذه السرعة. كنت أشعر بالحرارة الخانقة، وأتصبّب عرقاً، وأشعر بعطش بالغ لم يجدِ معه تناول أيّ مشروب. الفكرة التي أقلقتني وسحرتني في الوقت ذاته كانت إمكانية الموت على شواطئ المحيط الهادئ، بعيداً جداً.

## ٥٠

ألا يظن كل واحد تقريباً أنه كاد يموت يوماً ما؟ ليست هذه تجربة خاصّة، على العكس، إنها تبدو جزءاً من التجربة العامّة التي يكوّنها كل شخص بالغ أو نصف بالغ. على الأقل مرة واحدة يشعر بأن شعرةً واحدة فصلته عن الموت. هل يُعدّ هذا، ربما، من علامات البلوغ؟

نعم، غالباً ما يكون هذا صحيحاً في أي حال. كل منّا كادت ،، كاد يموت غرقاً، في موجة كبيرة على الشاطئ، أو في

نهر ما، الطائرة التي كانت تقلّه كادت تسقط أو تصطدم بأخرى. حتى في أوقات السلم فإن الحياة، عندما نلقي عليها نظرة بعد أن تنقضي، ليست إلا نجاة من المخاطر. معجزة أن يظل كل الناس حولنا على قيد الحياة. لقد كادوا يموتون جميعاً. كل لديه حكاية شبيهة يستطيع أن يرويها، وكثيرون يعتبرون أنفسهم محظوظين جداً لأنهم ظلّوا أحياء، إلى هذه الجملة، حتى الآن، إلى هنا. أن تعبر الشارع مرة دون النظر يميناً ويساراً، ألّا تأخذ حذرك عند تنظيف النوافذ، أن تغمض عينيك في السيّارة، لمدّة ثوان، عندئذ ينتهي كل شيء، الأشجار وأعمدة الجسور موجودة في كل مكان.

٥١

يوليا مثلاً. من المعجزات أنها ما زالت تعيش. أخبرتني بذلك على نحو غامض، غير واع. خلال المبيت في الخيام انتقلت في الثالثة عشرة من الحشيش إلى الكوكايين، وصولاً إلى الهيروين الذي كان من السهل للغاية الحصول عليه آنذاك. كانت، بكل بساطة، تريد أن تعرف. كانت تبحث، والهيروين كان الإشباع الكبير، الإشباع الأكبر، لم يكن هناك أكبر منه، كل شيء صغير مقارنة بالهيروين، بعده لا يأتي شيء، غير الهيروين مرة أخرى. في أسوأ أوقاتها كانت تنام طوال نصف عام في قبو مفتوح، وكانت تركب الترام نهاراً، من بداية الخط إلى نهايته، وبالطبع من دون تذكرة. لم يعد المفتشون يسألونها، كانوا يعرفون منذ فترة أنها لا تشتري تذكرة، وأنّ من العبث سؤالها أو تتبّع حالتها، فهي لن تُسجن في أيّ حال من الأحوال بسبب

سفرها من دون تذكرة. ربما، كانت تقول، كانوا يشعرون بالشفقة مع مدمن المخدّرات الذي كانته.

آنذاك، كانت تقف لتراقب الأمور لصديقها خلال سطوه على المنازل، وكانت تساعده في نقل المسروقات. مرّتين أو ثلاث مرّات كان السطو يجري على منازل سكنت فيها تلميذات زميلات سابقات مع أمهاتهن وآبائهن، منازل تردّدت عليها يوماً ما، بل كانا يعرفان أين يوضع مفتاح القبو، وهو ما يسهّل كثيراً عملية السطو. كانا يخبّئان جزءاً من الغنيمة ـ التي لم يكن ممكناً، في الغالب، نقلها مرة واحدة ـ وسط الشجيرات. وبعدها كانت ترتدي معطف مطر، «ترنش كوت»، وشالاً حريرياً، متنكّرة في هيئة ابنة من الوسط الراقي، وهي كانت في الأصل كذلك، حتى ترى هل سبقهما أحد إلى الغنيمة.

وفي يوم ما تناولت جرعة زائدة وتوقف قلبها، فنُقلت إلى المستشفى. «كانت تفصلني عن الموت شعرة»، هكذا كانت تحكي، وقد حكت ذلك كثيراً. طوال أربعة أيام كانت ترقد في قسم العناية المركزة، ثم، في اليوم الخامس، نزعتْ إبر المحاليل من الوريد، وهي خبيرة بالإبر والأوردة، ونهضت واختفت. لكنها أخذت معها من إحدى الغرف محفظة نقود من خزانة مفتوحة. كانت تعرف أن لا أحد يعرف اسمها الحقيقي، لم تكن تحمل معها أوراقاً، وحتى تلك اللحظة نجحت في أن تتظاهر بأنها لا تتذكّر اسمها. لم يعد لديها تأمين صحّي، وكانت تريد أن تتجنّب

أن يتحمّل والداها تكاليف الإقامة في المستشفى، وهي مراعاة لمشاعرهما مشكوك في أمرها، إذ سبق لها أن نهبت مرات عدة رصيدهما بشيكات مزوّرة. في الحقيقة لم تكن تريد سوى الخروج، كانت بحاجة إلى مخدّر.

## ٥٢

على العكس من ذلك تماماً أنا، بنوبات الشفقة على الذات التي تنتابني، والتي أُصاب بها في الغالب بعد زيارة الطبيب المتخصّص في المستشفى. المرض الذي لم أكن أريد أن أعرف عنه الكثير، أو لا شيء على الإطلاق، المرض الذي لم أكن أفكر فيه حتى عندما أتناول أدويتي، بآليّة تامّة، صباحاً وظهراً ومساءً، ظهر فجأة كبيراً وضخماً، لا يمكن التغاضي عن رؤيته. كان يعود بكلّ عنف مرّة، مرّتين، أو ثلاث مرّات في العام، ويستعيد عافيته، جالباً معه الإدراك، بل اليقين: نعم، ستموت، إن عاجلاً أو آجلاً، قد تموت خلال عام أو عامين، وقد لا تموت إلا بعد أربعة أعوام أو خمسة. لكن أربعة أعوام ليست بالفترة الزمنية الطويلة، هي الفترة الفاصلة بين بطولتين لكأس العالم لكرة القدم ـ في الماضي، وأنا طفل، كانت تلك فترة أبدية ـ وهي تنقضي بسرعة.

في أيّام الشفقة على الذات، أشعر كأنني ألقي نظرة خلف وهم الأبدية، خلف الستار المعلق أمام الهاوية، يمين كل شيء ويساره: في يوم من الأيّام سينتهي كل شيء، ستستعيدنا الأرض، وستظلّ تدور، من دوننا أيضاً.

٥٣

أفهمني «ب» أن حالتي ليست بهذا السوء. لم يقل ذلك صراحةً أبداً، لكن رسالته كانت: حالة حضرتك ـ ذات يوم بدأ يستخدم كلمة «حضرتك» معي ـ ما زالت جيدة. وبالفعل كانت حالتي جيدة. كنت أفعل ما أريد، جبتُ نصف العالم، حتّى الأدغال. كل ما هناك أنه كان عليّ أن أحمل معي ما يكفي من أدوية.

٥٤

من السرير كنت أرى مفاعل الطاقة على القناة بمداخنه المنتصبة في السماء، أحصيها، ما زالت أربعاً. يمكنني أن أنهض، عليّ أن أفصل المحلول فحسب، وأسير في الممرّ، وأستخدم المصعد هابطاً، وأبحث عن بوابة الخروج. يمكنني أن أغادر مبنى المستشفى من المخرج الجنوبي، وأعبر الشارع وجسر فورر، أو أتمشى على الشاطئ وأقفز في الماء. يمكنني، نعم، المياه باردة بما فيه الكفاية، والأمر يصبح أسرع في المياه الباردة؛ ولكنني أفكر في تلك اللحظة مرة أخرى في طفلتي، التي تضحك دائماً في الصباح عندما تستيقظ، ويكون حضورها طاغياً. يجب، بل أودّ أن أعيش بضع سنوات أخرى من أجل ابنتي. رغم ذلك، فأنا أودّ ـ ولا أعرف السبب ـ أن أكون ميتاً اليوم، أو دودة من دود الأرض. أريد في حياتي المقبلة أن أكون دودة.

٥٥

المرّة بعد الأخرى أسمع هذه الجملة: عليك أن تشرب، أن تشرب

كثيراً جداً. الشرب يصبح في المستشفى مهمّة. هل شربت؟ كم كوباً؟ يُسجَّل عدد الأكواب. يجب عليّ مرّة في الأسبوع أن أحسب وأقيس لمدّة أربع وعشرين ساعة مقدار السوائل التي تخرج مني، وتُسجَّل كل قطرة بول، وكل مرّة أتبرّز فيها، وأيّ تغيير في درجة الحرارة. الملفّ الذي يُسجَّل فيه كل ذلك اسمه: «المنحنى».

الممرّضات والممرّضون يكررون دائماً روتين التواصل نفسه. مرة بعد أخرى تُعرض المسرحية نفسها مع اختلاف الممثلين. كل شيء قيل آلاف المرات من قبل، المسرحية عُرضت، ويُعاد عرضها، لا تغيير في برنامج المسرح. عنوان المسرحية «القسم ٢٢». حرارة، دم، براز، في كل صباح أسمع مَن يقول: يا سلام، كم هي جميلة أوردتك! في وريد كهذا يسهل غرز الإبرة. تفضّلي، اغرزي، ذراعاي ملك يديك. في المساء، لا تصيب الطبيبة للأسف المكان الصحيح، أجد بقعة زرقاء في ثنية ذراعي. أعرف، إن لم أشعر بالألم عند الوخز، تكُن الوخزة سيّئة.



المستشفى، دار العلاج هي دار الحكايات، دائماً حكايات جديدة، كل مريض يحضر حكاية معه. فلأصغِ إذاً؛ وماذا بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟ أسمع بانتباه حكايات المعاَناة التي تمسي مع الوقت غير محتملة. ماذا لديّ، من أيّ شيء أعاني، أين كنتُ بهذه الأوجاع، ما فعله الأطبّاء، وما لم يفعلوه، وما الأخطاء التي ارتكبوها، ومَن الذي قدّم في النهاية المساعدة؟ أسمع كورال المرضى، كورال الذين

نقلت إليهم أعضاء: لقد نُقلت إليّ حتى الآن غدّتا بنكرياس ـ معي الآن الكلية الثالثة. كليتي الأولى تحمّلت عامين، الثانية شهراً واحداً، والآن الثالثة، إن لم تنجح هذه العملية فلن أواصل، لا غسل كلى بعد اليوم، لا غسل أبداً، هذا ما أقسمت عليه. كانت لديّ كلية جوّالة، كانت كتلة تحت سرّتي. أنا هنا للمرة التاسعة، ومِتّ مرّتين، لقد التهم السرطان البنكرياس، ثم أزالوا نصف الكبد. لقد شقوا بطني أربع مرّات حتى الآن، الجرح لا يريد أن يندمل. غداً أخرج من المستشفى. قد أخرج بعد غد، بالتأكيد لن يحتفظوا بي هنا في نهاية الأسبوع. قد يسمحون لي بالرجوع إلى المنزل في الأسبوع المقبل، أو بعد أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، بعد عدّة أيّام. هكذا أسمعهم يغنّون، وهكذا أغنّي أنا أيضاً ـ لا مفرّ من ذلك ـ منذ فترة طويلة. قريباً سأعرف كلّ أبيات هذا الموّال.

٥٧

وماذا أتى بك إلى هنا؟ تعال، يا جاري الجديد، احكِ لي حكايتك. وحكايتي، ما هي؟ ماذا يحدث إذا انتهت هنا؟ فجأة ـ أنا لا أفعل شيئاً سوى الرقاد، لديّ وقت، وقت كثير، للتفكير والتأمّل ـ أرى من مكاني هنا شيئاً يشبه الحياة. هل يجب أن أصل إلى النهاية تقريباً حتى ألاحظ ذلك؟

بإمكاني أن أحكي لجاري الجديد حكاية مختلفة تماماً عن حياتي، أن أختصرها بسرعة في جملتين أو ثلاث جمل. وسأحكي

للجار التالي، إذا سألني، حكاية أخرى، وحكاية أخرى جديدة في المرّة التي تليها.

## ٥٨

تدخل ممرّضة إلى الغرفة وتقول إن عليّ أن أذهب إلى قسم التصوير بالأشعّة السينية. مرّة ثانية؟ ألم يضيئوا كل الخبايا في جسدي بما فيه الكفاية؟ ألم يسبر الأطباء أغواري بعد؟ نخر الأنسجة الحيوية للكبد؟ ارتفاع ضغط الدم البابي؟

ينقلونني من الغرفة عبر الممرّ إلى داخل المصعد، ثمّ إلى الدور تحت الأرضي، وعبر ممرات مضاءة إضاءة ضعيفة إلى قسم الأشعّة.

في غرفة الكشف بالأشعّة السينية تمدّ لي الطبيبة جسماً أجوف من مادّة اصطناعية شبيهة بالمطاط وتقول إن عليّ أن أضعه على كيس الخصيتين. وتضيف أن عليّ أن أضع الخصيتين فحسب داخله، وتدعني أفعل ذلك، وبذلك تُحمى الغدّة التناسلية من الأشعّة. أصدّقها، لا بدّ من أن أصدّقها وأنا أرقد على الطاولة في الغرفة شبه المعتمة، وتباغتني فكرة أنه لا بدّ من أن التقاط الصور الأولى بأشعّة إكس كان حدثاً ضخماً آنذاك، في أواخر القرن التاسع عشر، فجأة أمكن إضاءة الجسم البشري، المظلم بامتياز، من الداخل، ليتحوّل اللاشفّاف إلى شفّاف.

راحت طبيبة الأشعّة ـ التي لم أُحِط تماماً بمعالم وجهها ـ تضبط الجهاز المعلق في السقف، وتغيّر من درجات الضبط عبر

الذراع المتحرّكة المزوّدة بزرّ التصوير. انتصب الجهاز في الغرفة كأنه إنسان آليّ. لا ينتابني خوف حقيقي، غير أنني أتخيّل الذراع وهي تستقل بنفسها، وبجرعةٍ قصوى من الأشعّة المصوّبة تجاهنا كالنيران المستمرّة تتغلب على كلّ منّا، أنا والطبيبة، أو تقتلنا ببساطة. بالإضافة إلى حماية الغدّة التناسلية تناولني طبيبة الأشعّة مئزراً من الرصاص. كل هذه الأدوات الحامية تذكرني بمدى خطورة التعرض للأشعّة السينية. الأشعّة السينية أشعّة مميتة، أجد نفسي مجبراً على التفكير في ذلك، والصور، هذه الشرائح الغريبة شبه الشفافة ستظهرني بعد قليل كشبح، ربما أصبحت واحداً، نعم، لا بدّ من أنّ صور أشعّة إكس هي صور مبكرة للموتى، تشي بكلّ وضوحها المبهم بما يمكن رؤيته بعد التحلل. إن ظلّ شيء يُرى.

## ٥٩

مرةً، أتذكرُ الآن، كنتُ في الخامسة، أو تقريباً في السادسة، سقطت خلال تزحلقي على الجليد بالحذاء ذي العجلات، انزلقت إلى الخلف ووقعت على ذراعي اليمنى التي انكسرت. واصلتُ التزحلق إلى المنزل لكي أعرض الذراع التي بدأت تؤلمني على أمّي. أرسلتني إلى القبو لأحضر لوحاً خشبياً قصيراً، هذا الطول، قالت لي أمّي مباعدةً بين كفّيها بنحو عشرين سنتيمتراً. لم أفهم ماذا تريد أن تفعل به، ولكني أحضرت لها أحد الألواح، فقد كان لدينا المئات منها في قبو التدفئة، ألواح خشبيّة كانوا يكسون بها جدران الساونا وأقبية اللعب، وكانت تنتظر دورها لكي تُحرق في المدفأة

لوحاً بعد آخر. وضعت أمي ساعدي الأيمن على اللوح ثم ربطتهما برباط ضاغط. بعدما أنهت لفّ الرباط الأول، واصلت الربط برباط ثانٍ، وهكذا جبرت ذراعي. بعد ذلك تناولت مفتاح السيّارة من لوحة المفاتيح، وذهبت إلى سيّارتها، وربطت حزامي على المقعد الخلفي، إذ لم أكن أستطيع ذلك بيد واحدة، وانطلقنا إلى طبيب الأشعّة الذي كانت عيادته بالقرب من المدرسة التي ذهبت إليها لاحقاً. لم يكن الطريق بعيداً على التلاميذ الذين يجرحون أنفسهم في درس التربية الرياضية، بضع خطوات فحسب من صالة الألعاب حتى الطبيب. مجرّد إصابة في الأربطة، هكذا كان تشخيصه في معظم الحالات، ولكنه قال في ذلك المساء إن ذراعي مكسورة. وضع ذراعي في الجبس، الذي ظلّت فيه ثلاثة أسابيع؛ في اللحظة الأولى أحسست به رطباً ودافئاً على البشرة، في ما بعد انتابتني رغبة دائمة في حكّ جلدي.

٦٠

وها هي الصينية تأتي مرّة أخرى بالطعام. إمّا أن أنتظر بفارغ صبر وقتاً طويلاً للغاية، وإما يجيء الطعام مبكراً جداً. الشكوى من الطعام جزء من فلكلور المستشفى. لكن إذا قال أحدهم إن الطعام جيد، فإن ذلك تراه الممرضة حدثاً ضخماً إلى درجة أنها تودّ أن تتّصل هاتفيّاً على الفور بالمطبخ. تردّ الممرّضة: الطبّاخ سيسعد بذلك، فهذا شيء لا يسمعه كلّ يوم.

٦٣

٦١

بعد ذلك قالوا لي مرّة أخرى: إلى الميزان، زن نفسك يا سيد «ف»، من فضلك اذهب إلى الميزان.

نعم، أريد وأودّ أن أفعل ذلك، لكن الطريق إلى الميزان بعيد جداً، لن أقدر على ذلك. هذا ما أدّعيه، غير أنّني في الحقيقة كسول، ليس إلا.

الذهاب إلى الميزان، كل صباح، هذا هو الواجب المفروض عليّ، هذه هي عقوبتي. ولكنّني أدركت منذ فترة أن ما يهم الممرّضات هو أن أتحرّك فحسب. القاعدة هي أن يتحرّك المرضى في أبكر وقت ممكن. أمّا وزني فليس مهمّاً إلى هذا الحد.

الوزن لمّا يزد.

ثمّ أرقد على سريري، وأفكر في نفسي، طولاً وعرضاً. وأتوه في ذاتي.

٦٢

الممرّضة الليلية تتمنّى لي ليلة سعيدة، لكنني أعرف من الآن أنني لن أستطيع الاستغراق في النوم لفترة طويلة. جاري في الغرفة يتأوّه، يتقلّب في سريره ثم ينهض ويتأرجح في سيره حتى دورة المياه، ثماني مرّات أو تسع مرّات كلّ ليلة، لكن هذا لا يضايقني. لم أعد أرقد الآن في السرير، أنا أجلس في الباص الليلي الذي ينطلق في شارع من شوارع المكسيك، في الطريق إلى مدينة مازاتلان في

سينالوا، المدينة ميناء يقع على المحيط الهادئ، جدّ غلوريا يسكن هناك، في بيت رحب من الثلاثينات، على البحر مباشرة. على جدران الممرّ وغرفة المعيشة صور لثيرانه، وملصقات لـ «الكوريداس»، أي للمُصارَعات التي شارك فيها، اسمه يأتي دائماً أوّلاً أو ثانياً، لا بدّ من أنه مصارع ثيران مشهور في المكسيك. نمت في غرفة للضيوف، أمّا غلوريا، التي كان الجميع لا يطلق عليها إلّا «لا غوردا»[١] رغم أنها ليست بدينة إطلاقاً. فقد قضت الليلة مع أمّها في جزء آخر من البيت. كان ينبغي ألّا يعرف والدها، الذي بقي في مكسيكو سيتي، شيئاً عن حضوري. قبل الظهر كنا نذهب إلى الشاطئ، وفي الظهيرة نأكل القريدس الطازج بالشطة والليمون في أحد الأكشاك على الشاطئ؛ أكشاك تبدو كأنها مبنيّة من الخشب الطافي على سطح الأنهار، وكنّا نحتسي القهوة أو حليب جوز الهند الطازج من قشرة ثمرة الجوز التي يفتحها صاحب كشك الشاطئ بسكّين ضخم. وكان والد غلوريا يفرح بالمخبوزات التي نحضرها معنا من الحلواني. وبعد سنوات ـ كانت غلوريا قد تزوّجت وأنجبت طفلين ـ حكت لي أنه ظلّ مدّة طويلة يسأل عنّي.

٦٣

نور النهار يبزغ. أرى الأصحّاء الذين استحمّوا لتوّهم يسرعون إلى العمل، والذين لم يأخذوا كفايتهم من النوم والمتعبون في الصباح، يمرّون، يسرعون الخطى أو يتمهّلون. تدخل الممرّضة إلى الغرفة

(١) La Gorda: تعني بالإسبانية «البدينة». (المترجم)

وتقول، صباح الخير، هل قسنا درجة الحرارة؟ هذا ما تقوله في كلّ غرفة، كلّ يوم.

٦٤

في باص ليليّ آخر ذهبت إلى مدينة غواناغواتو المشهورة بمناجم الفضّة والمومياوات. كنت قد اشتريت كتاباً عن تاريخ الأدب المكسيكي، كتاباً يشبه الكتب المدرسيّة. وخلال تناولي طعام العشاء في الساحة قرأت الجزء الخاصّ عن الراهبة والشاعرة سور خوانا إناس دو لا كروز، وعن رواية خوان رولفو «بيدرو بارامو». استمتعت بشعوري بأن لا أحد في أوروبا يعرف مكاني.

كان الفندق الذي نزلت فيه مبنيّاً في عشرينات القرن العشرين لشركة المناجم. ومنذ ذلك الحين لم يكد يتغيّر فيه شيء، الأذرع المعدنية في الحمّام والمصابيح والأثاث من تلك الفترة، لم يعد ممكناً إغلاق أحد صنبورَي الماء فوق الحوض، فكانت المياه تسيل نهاراً وليلاً. وفقاً لنصيحة والد غلوريا، زرت المتحف الذي تُعرض فيه المومياوات مرّتين، وهو يقع فوق جبل وسط مقبرة تحيط بها جبال شامخة. ليست المومياوات المعروضة هناك مومياوات بالمعنى الدقيق للكلمة، بل جثث دُفنت بطريقة عاديّة في التربة المشبعة بالأملاح الفضّية ما منع تحلّلها، كانت مجففة فحسب. لقد حفظت التربة الجثث على حالتها كما دُفنت، وتشرّبتها. الموتى الأحدث الذين يُعرضون واقفين خلف الزجاج ماتوا قبل ما يناهز أربعين عاماً. أمّا الأسبقون فقد ماتوا قبل مئة وخمسين عاماً. كلّ الجثث

عارية، لأن الملابس تحللت، أحدث جثتين فحسب كانتا تحتفظان بالجوارب المصنوعة من ألياف اصطناعية، ولهذا لم تتعرّض للفناء.

٦٥

رأيت أمّي ـ لا بدّ من أن يمرّ هذا بالطبع ببالي الآن ـ مرّة أخرى، في غرفة الجثث في المستشفى الذي ماتت فيه. كانت مُسجّاة على الطاولة، بدا لي جسدها أصغر ممّا كان في ذاكرتي، لم يكن شبيهاً جدّاً بأمّي، وكأنه، هكذا بدا لي، انكمش. ذهب أبي معي إلى المستشفى الذي يبعد عن بيتنا نحو ساعة بالسيّارة على الأقل. قادتنا موظفة في المستشفى عبر متاهة الممرات في الدور السفلي، وفتحت لنا باب غرفة الجثث، وأشارت إلى الطاولة المعنيّة، وأزاحت الغطاء عن أمّي. ثمّ انصرفت. وهكذا وقفتُ، في الثانية عشرة من العمر، صبيّاً في معطف صوفي سميك أزرق أمام جثمان أمّه. قلتُ لنفسي، لا يمكن أن تكون هذه أمّي، الأشياء التي ترتديها واسعة عليها جداً. أعرف أن هناك ميتيْن آخريْن على الأقل في هذه الغرفة، لم يبدُ منهما تحت أغطيتهما سوى ملامح مبهمة. النقطة العليا، ذروة خيمة الجثة، هي الأنف.

٦٦

يدخل الحجرةَ طبيبٌ مع طلبته، كان هنا أمس وحصل على موافقتي. عليّ أن أحكي مرّةً أخرى كيف بدأ كلّ شيء: قُبَيْل الواحدة صباحاً أصل إلى المنزل قادماً من مقهى هاليفلور، كريستيانه تصحبني

بالسيّارة حتى البيت، رغم أن المسافة ليست سوى بضعة أمتار، أظلّ جالساً في السيارة، تحكي لي عن فكرة لعمل أسطوانة صولو. في النهاية نتبادل الوداع، وأنزل من السيارة، وألوّح لها بعد أن تكون انطلقت، ثم أصعد إلى الشقة، وأجلس في المطبخ، آكل بالملعقة «موس» التفاح، لا لشيء سوى لأنني شعرت بجوع العائد إلى البيت، وفجأة ينتابني إحساس غريب في الحلق. أسير إلى الحمّام، أنحني على الصنبور، وأهمّ بشرب جرعة ماء، وأشعر برغبة في التقيؤ. ولكنني بالطبع لا أحكي للطلبة كل هذه التفاصيل، أختصر، وأذكر الدماء في البانيو التي ...

شكراً، إلى هنا في البداية، يقاطعني الطبيب الذي يقوم اليوم بدور الأستاذ. ثم يسأل المجموعة: ماذا حدث إذاً؟

سكون، تردّد، صمت التلاميذ، ما زلت أعرفه. إلى أن رفعت طالبة يدها قائلة: نزف الدوالي؟

إجابتها خففت عنّي. طالبة الطب هذه ـ شعر أسود، أحمر شفاه، يعجبني فمها ـ كانت ستعرف أيضاً ما يجب عليها أن تفعله، وكانت ستعطيني محلول الملح، وتنقذني. وتعرف أيضاً أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعدني في هذه المرحلة من المرض، Child Pugh B، هو زراعة كبد جديدة.

الآخرون يعقبون بالسؤال: هيباتيتس سي؟

لا، التهاب الكبد المناعي الذاتي، أقول لهم، التهاب الكبد المناعي الذاتي المزمن والعنيف.

لا يرون حالات مصابة بمثل هذا الالتهاب كثيراً.

## ٦٧

«موس» التفاح. في الحقيقة أنا لا أحب «موس» التفاح مطلقاً، في أغلب الأحيان أجده أحلى من اللازم. جميل أن «موس» التفاح لم يكن وجبتي الأخيرة. في فترة ما، كنت لا أزال طفلاً، قلت لأمّي أثناء تناولنا حساء الطماطم: ينبغي أن يكون حساء الطماطم آخر شيء آكله في حياتي. هذا ما أفكّر فيه عندما أتناول حساء الطماطم في أيّ مكان. منذ ذلك الحين لم أعد أتناول حساء الطماطم، نعم، أعترف بأنني أخاف من حساء الطماطم، وأحاول أن أتجنّبه، وأطلق عليه «صلصلة طماطم خفيفة»، أو بعد حساء الطماطم آكل أيّ شيء آخر بسرعة شديدة. حساء الطماطم يمثل خطورة بالغة عليّ، إذ لم ينقض وقت طويل حتى تُوفّيت أمّي بعد تناولنا معاً حساء الطماطم.

## ٦٨

أرى جرّاراً زراعياً بمقطورة ممتلئة بمنافض السجائر الكبيرة التي توضع في الأماكن العامّة. كل من المنافض عبارة عن قمعين متعاكسين، وهي مكدّسة في المقطورة. كانوا يكتبون في الماضي على ملصقات التأمين الصحّي: التدخين يسبّب الضغط. في الحقيقة فإن المدخن هو الذي يضغط على عقب سيجارته. ألمحُ من غرفتي بالأعلى أن المنافض الكبيرة، المصنوعة من الأسمنت أو من مادة

شبيهة خرجت من دائرة الموضة، قد مُلِئت بالرمل الجديد استعداداً لربيع المدخنين الذي هلّت بشائره.

شمس وظلال في غرفة المستشفى.

٦٩

جاري في الغرفة يبدأ بالحديث من دون مقدّمات: قبل خمسين عاماً كان يرقد هنا مع ثلاثين فرداً في القاعة، كانت الممرّضات يوزعن أربطة الشاش على المرضى كي يلفوها، كانت الأربطة آنذاك تُغسل ويُعاد استخدامها، وهكذا كان لديهم دائماً ما يشغلهم. أمّا اليوم فإن كل شيء مصيره القمامة، وهو ما يجده أفضل في أي حال. ثم يستغرق في النوم، ويطلق شخيره، لكن ذلك لا يزعجني. أُبحر، أطوف على صفحة النهر فوق قارب خشبي بسيط، أنا جزيرتي، أنطلق في محيطي، بعيداً، إلى أرخبيل في مكان ما، رحلة بحرية عبر الأنا وهذا المستشفى.

٧٠

كم يوماً مضى عليّ وأنا راقد هنا؟ كان بإمكاني أن أضع خطوطاً على الجدار. أربعة خطوط بعضها إلى جوار بعض، والخامس بشكل مائل يخترقها. تقول الممرّضة إن هناك مرضى يحضرون معهم نصف متاع المنزل ـ هذه هي الكلمة التي تستخدمها ـ وكأنها تسخر من ذلك. بعضهم يستخدم وسادته ومناشفه الخاصّة. أنا لم أحضر معي حتى بيجاما، إذ كان سينبغي لي أن أغسلها. أحب ارتداء القميص

الليلي الطويل، كل يوم قميص نظيف، أنا الشبح المرتدي قميصاً ليلياً، أجلس مستقيماً في السرير، لا ينقصني سوى القبّعة الليليّة.

٧١

أودّ أن يكون لديّ مصباح صغير. الإضاءة فوق السرير باهرة، لا أريد أن أوقظ الراقد إلى جواري في الغرفة. أستمع إذاً إلى المذياع، الحفل الموسيقي الليلي من قناة ARD، إلى أن أنتبه في ما بعد إلى أنني أسمع حلقة استمعت إليها خلال النهار، BBC World Service، القمر يسطع عبر النافذة، يبدو كأنه مشهد في لوحة من لوحات كاسبر دافيد فريدريش. شيء لا يُصدّق، أقول لنفسي، لقد طار أحدهم ذات مرّة إلى القمر. في يوم ما سيقولون إن هذه حكاية خرافية.

وفجأة، الساعة الثالثة فجراً، تهبط مروحية وسط هذا السكون الجميل، صوت المروحيات في الليل أعلى كثيراً مما هو في النهار. ثم يوشك السكون أن يسود مرة أخرى. النجوم تتلألأ. لا أستطيع النوم وأسمع صوت أحدهم في الممرّ وهو يجر حامل المحاليل.

قد أغفو رغم ذلك.

# عندما كان الطفلان نائمين

مرّتين، ثلاث مرات، أربعاً، خمساً، يضعون لي حلقات مطاطية على الدوالي في قصبة المريء. المرة بعد الأخرى يدخلون الأنبوب المعدني الطيّع داخل الحلقة التي توضع في فمي لأعضّها حتى يصل إلى المريء. أبلع الأنبوب، فأتجشّأ، ويخرج الهواء من المعدة، ثم يبدأ الشعور بالاختناق، هذا الشعور المستمرّ الذي لا يمكن التغلب عليه إلا بصعوبة. بعد ذلك، لحسن الحظ، يكون هناك في الغالب تخدير. ما أحلى النوم مع البروبوفول!

## ٧٢

أستغرق في النوم، ويدفعون سريري وأنا نائم ويعيدونني إلى غرفتي. أنام وأشبع نوماً. في المساء، بعد أن أستيقظ من نوم التخدير، أجلس في الغرفة المشتركة ذات الجدار الزجاجي المطل على الممر. أشرب ماءً من عبوة كرتونية وآكل بقسماطاً، يتحوّل البقسماط في فمي إلى عجين طريّ حلو، يعجبني طعمه، وكأنّه المنّ. سقف طلباتي انخفض، ما زال البلع يؤلمني.

بينما يتساقط فتات البقسماط على قميصي الليلي، أنظر إلى التلفاز الصغير الموضوع على ثلاجة المرضى الصغيرة. أشاهد فِلْماً، ربما لداريو أرغنتو. بين الحين والآخر تمشي ممرّضة في الممرّ، إحداهنّ تلوّح لي، باب حجرة من حجرات المرضى مفتوح، كل دقيقتين أو ثلاث أسمع تأوّهاً متحشرجاً، تأوّهاً يبدأ كعواء خافت ثم يتحوّل إلى نهنهة. يتناسب هذا في الحقيقة مع الفِلم، حتى وإن كنت لا أتابعه متابعة جدّية. في الفواصل الإعلانية أبدّل القناة إلى فِلم Halloween: Resurrection، مريض في مستشفى للأمراض النفسية يفقد السيطرة على أعصابه ويبدأ بذبح الحرّاس. لا تقلقني الصرخات من التلفاز أو النهنهة التي تصلني عبر الممرّ. أنا لم أستيقظ حقاً بعد.

تدخل امرأة طويلة قويّة، وتدفع حامل المحلول في اتّجاهي. تسألني هل أسمح لها بالجلوس إلى جانبي. قبل أن أستطيع أن أقول: «نعم تفضّلي»، تكون قد جلست وبدأت تحكي لي حكايتها. أصغي إليها، أو لا أصغي، في حين أن نظري مسدّد إلى الشاشة، ألوان جميلة مثيرة متداخلة، أرى بصورة أساسية اللون الأحمر، ما زال البروبوفول في دمي. أسمع صوتاً شكّاءً يشكو، الصوت صادر عن هذه المرأة الجبّارة، عملاقة إلى جانبي، تنتظر، تقول لي، الكبد الثانية، أو بالأحرى، إذا حسبت كبدها الأصلية، تنتظر الثالثة. تستفيض في الكلام، وتحكي عن الجيران الذين لا تحبّهم، عن الطبيب الذي لا يفهمها، والصديق الذي هجرها لأنها أصبحت بدينة على هذا النحو.

كذلك تحكي لي حكاية رجل ينتظر كلية منذ فترة طويلة. كان يقف في منزله عند شباك المطبخ، فرأى عربة الإسعاف تقف على الجانب الآخر من الشارع، ثم يعرف أن الجار قد انتحر. وبحسب روايته فقد اتصلوا به بعد ساعتين، وأخبروه بأنهم حصلوا على كلية مناسبة له. منذ ذلك الحين وهو يظن أنه يعيش بكلية الجار المنتحر.

٧٣

في الممرّ نومئ، نحن المرضى، بعضنا إلى بعض. يعرف أحدنا الآخر بالروب الصباحي. ألاحظ ما يضعه المرضى على أبدانهم. ثمّة مَن يرتدي البيجاما، ومَن يرتدي قمص المستشفى. وهناك مرضى يرقدون ببنطلونات رياضية أو ببدلات التدريب الرياضي على الأسرّة

لأنهم كل نصف ساعة يذهبون للتدخين. شيئاً فشيئاً أتعلم التفرقة بين المظهر السيّئ الذي ينحو نحو التحسّن، والمظهر السيّئ الذي ينحو نحو النهاية. للأسف، لا أستطيع أن أحكم إلى أيّ ناحية يميل منظري. أنا أعمى أمام المرآة.

## ٧٤

جاري الجديد في الغرفة، عامل بناء، لا يتحدّث كثيراً. تردّد كثيراً على المستشفى. ذات مرة، لا أعرف لماذا أو كيف خطر ببالي أن أقول له إن المستشفى في أي حال أفضل من السجن. يندهش، وألاحظ أنه يفكر لبرهة، ثمّ يبدأ بالحكي، عن عاميه اللذين قضاهما في أحد سجون ألمانيا الشرقية، حكاية سخيفة بعد عراك في المترو جرى تأويله سياسياً ضدّه وضدّ صديقيه؛ سنتان في السجن. ثلاثة أشخاص لمدّة سنتين في زنزانة تتَّسع لشخصين. بلا دورة مياه، دلو فحسب، لا تُفرغ سوى مرة واحدة في اليوم، في المساء. عندما خرج من السجن، قبل بناء الجدار بقليل، يعبر الحدود، كنت محظوظاً، يقول، محظوظاً للغاية. لو قضيت عاماً آخر، لظللت في السجن لمدّة ثمانية وعشرين عاماً أخرى[1]. ينطق جملته بالطبع باللكنة البرلينية.

ثم بدأ العمل عاملَ بناء، وفي الشتاء سائق تاكسي أيضاً، كانوا يبنون كثيراً في برلين الغربية. كنا دائماً نكسب جيداً، يقول، كما كنا نحصل على بدل مالي عندما يكون الطقس سيّئاً لا يسمح بالعمل،

(١) المقصود بالسجن هنا الحياة في ألمانيا الشرقية بعد بناء جدار برلين عام ١٩٦١ الذي انهار عام ١٩٨٩، أي بعد ٢٨ عاماً. (المترجم)

ثم «علاوة برلين». لم يعد الأمر هكذا. شارك في بناء «كوتبوسر تور»، ووضع أساس المركز الجديد في كرويتسبرغ، وهو مجمع كنت في السابق أعتبره قبيحاً قبحاً لافتاً. غير أن النظرة إلى هذه المباني بدأت تختلف. أقول له إن الناس بدأوا يعتبرون هذه المباني مرة أخرى جميلة جمالاً خاصّاً. نعم، إن هناك الآن نوادي وبارات، مثل «أثاث أولفه»، الذي يستمدّ اسمه من العنوان المضيء القديم على السقف، أو «وست جرماني»، و«الكتلة الجنوبية»، وبار بالوما.

إنه من مواليد العام ١٩٣٠. يحكي لي أيضاً، بعد أن سألته، عن نهاية الحرب في برلين، عن حرب القنابل وعن الليالي في المخابئ، يحكي عن عمّه الذي جلس في المخبأ في قبو البيت برئة منفجرة. بدا كأنه نائم، بينما كان في الحقيقة قد مات. في آذار ١٩٤٥ تطوّع في «فتيان هتلر»، وأسهم في الدفاع عن آخر حصن من حصون القطار الدائري في المدينة، اثنان من زملائه في الفصل سقطا صريعين، أحدهما في شونهاوزرـأليه، والثاني في فريدريشسهاين، أما هو فقد نجا بأعجوبة.

٧٥

يرقد رجلان في غرفة، ولا شيء يحدث. بين الحين والآخر يتبادلان الحديث، ثرثرة. أحدهما يحكي عن الماضي، لأنه عايش الكثير من الماضي، يحكي عن نهاية الحرب في برلين. على فترات منتظمة تدخل نسوةٌ ويلقين نظرة، ويسألن عن قوام البراز، وهل ملآ بطاقات الطعام، وهل تناولا الأدوية. لعلها مسرحية عبثية.

٨٠

٧٦

لا أستطيع أن أفعل شيئاً، عليّ ألا أفعل شيئاً، أنا هنا الطفل، مسموح لي، بل ينبغي ويجب عليّ أن أرقد. لا أستطيع سوى الرقاد. إذا احتجت إلى شيء، أقرع الجرس، وإذا كانت رغباتي في إطار معقول، فإنها تتحقق. أمّا في الخارج، في الواقع، فإن الأمور لا تسير على هذا النحو الجيد.

٧٧

لم تعد للشجرة أمام النافذة أوراق. في الشارع تمرّ عربة كنس، الفرشاة الدائرية في الأمام، تكنس أوراق الشجر عن الرصيف. لا بدّ من تحويل أوراق الكستناء إلى سماد نباتي عند درجة ٦٥ مئوية، أو تغطيتها بطبقة من الطين لا تقلّ عن عشرة سنتيمترات؛ وإلا عاشت يرقات العثّة عبر الشتاء. هذا ما أسمعه من جاري. في ما بعد يتحدّث مع ممرّضة القسم عن شركات البستنة، عن أعمال زراعة الشجر وجمع أوراقها. تقول ممرّضة القسم إنها جعلتهم ينقلون أربعة وعشرين كيساً مملوءة بالأوراق التي جُمعت من حديقتها. تقع هذه الجملة على الأذن، وكأنها تتفاخر بذلك. يحط طائر على فرع رقيق جداً في هامة الشجرة. من دون أوراق تبدو الأشجار هشة للغاية، غريب أن الفرع الذي حطّ عليه الطائر لا ينكسر. أي نوع من الطيور هذا؟ غراب؟

٧٨

أرقد في سفينة فضاء ضخمة، الممرّضات أجهزة آليّة مبرمجة على

نحو جيد للعناية بالمرضى. ولكن، إن كانت الأجهزة الآليّة مبرمجة على هذا النحو الجيد، فما حاجة سفينة الفضاء إلينا؟ ألم يستغنوا عنا، نحن المسافرين المرضى، منذ زمن بعيد؟ لماذا يبقوننا على قيد الحياة؟ لماذا يطعموننا ويغسلون أجسادنا؟ لماذا لا ينهون حياتنا بحقنة مخدّرة مثلما حدث لكلب جارتنا المريض؟ آنذاك كنت في السادسة عندما سمعت الكلمة للمرة الأولى. «إنهاء الحياة بحقنة مخدّرة». لفت التعبير انتباهي وأنا طفل. له على الأذن وقع على نحو أكثر جدّية واحتراماً للمشاعر من «القتل».

٧٩

باب الخزانة مفتوح قليلاً. أرى حقيبة سفري بنّيةَ اللون. كثيراً ما سافرت بها، أو ربما سافرت هي معي. في أي حال حملتها إلى أماكن بعيدة، كانت في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، دائماً على كتفي.

ما الذي وضعته فيها؟ لم أكن عند الخزانة منذ فترة. ولكن لماذا فُتح باب الخزانة؟ هل ذهبت إليها من دون أن أدري، أم عبث أحدهم بالقفل؟ «يُرجى ترك المفتاح في القفل عند المغادرة»، عبارة كُتبت على اللافتة الملصقة على باب الخزانة. قرأتها كثيراً، ولا أودّ قراءتها أبداً بعد اليوم، لا أودّ أن أجد نفسي مجبراً على قراءتها بعد اليوم، ولكنني أقرأ أيّ شيء مكتوب في أيّ مكان، بل إنني كثيراً ما أقرأه بصوت عالٍ، إنه ردّ فعل تلقائي لا يمكن إيقافه.

نعم، سأتركه معلقاً في القفل، أقصد المفتاح. لا أريد أن آخذ مفتاح خزانة المستشفى معي إلى البيت. في الخزانة درج صغير

يمكن إغلاقه بالمفتاح من أجل الأشياء الثمينة، وفيه محفظة نقودي التي لا أحتاج إليها هنا. إذا غادرت الغرفة أغلق أيضاً على الآيبود والهاتف. تحذّر الممرّضات من أن وقوع سرقات ليس نادراً للأسف. لقد حدث أيضاً، يحكي لي عامل البناء، أن ضاعت سلسلة المفاتيح لأحد أفراد طاقم التمريض، وهكذا سُرق كل ما في الشقة بكل هدوء. وكأنه يريد أن يؤكّد كلامه، فيقرأ لي بعد يومين من الجريدة:

> حُكم بالسجن ثلاث سنوات على طبيب في السابعة والثلاثين من العمر يعمل في أحد مستشفيات فيينا، لقيامه بالسطو على شقق المرضى بعد انتهاء عمله في المستشفى. خلال المحاكمة قال: «لقد بدأت ألعب البوكر منذ كنتُ طالباً، والرهانات كانت ترتفع باستمرار». حتى يستطيع مواصلة اللعب، كان يسرق مفاتيح الشقق، فإن لم يجد مفتاحاً، كان يستخدم عَتَلة. سرقَ مجوهرات، ونقوداً، وسبائك ذهب، وبطاقات ائتمان، وعملات، ولم يُقبض عليه إلّا عندما اقتحم شقة كان فيها أحد الأشخاص. حاول الهرب، ولكن جرى التغلب عليه.

أين سلسلة مفاتيحي؟ لم أرها من فترة طويلة. هل هي في الخزانة؟ في الدرج؟ أنا أمسك بها في المعتاد مرّات عدة كلّ يوم.

## ٨٠

كم أودّ أن أكون الآن في الشارع، عند المياه، أن أجول بمحاذاة المدق الصغير بجانب النهر، مارّاً بمفاعل الطاقة، وتحت جسور

السكك الحديدية الجديدة العالية التي تقود إلى المحطة الرئيسية، دائماً بمحاذاة القناة، تحت أسلاك التوتر العالي المعلقة فوق المدق الأخضر الكثيف النباتات على الضفة خلف جسر فورر. وأمرّ برافعة السكك الحديدية المخططة باللونين الأخضر والرمادي والتي ترفع الفحم من السفن النهرية، فوق الممشى ذي الأرضية المصنوعة من شبكة معدنية. أخترق أسراب العصافير تحت أشجار القيقب والزنزلخت والبتولا والسنديان المتفرّعة المتشابكة، حتى أصل إلى مصبّ البانكه، وهو في الحقيقة ليس سوى فرع صغير من البانكه، بينما تتجمّع القمامة بشكل خلّاب في حوضه. لكن بروميثيوس يرقد مقيّداً بصخرة، يطير النسر مقترباً، ويحلق هابطاً، ثم ينهش من كبده.

٨١

أحد الذين رقدوا هذا الأسبوع إلى جانبي لم ينطق بكلمة. لا يقول صباحاً «صباح الخير»، ولا يتمنّى في المساء ليلة سعيدة، أنا أيضاً لم أعد أقول شيئاً. لا أستطيع أن أدّعي أن هذا يضايقني فعلاً، أشعر بالغيظ لوهلة، وسرعان ما أشعر بعدم الاكتراث. كلٌّ منا يعيش في عالمه.

٨٢

متى نمت آخر مرّة في حجرة مع أشخاص لا أعرفهم مطلقاً؟ في نُزل في نيو أورلينز؟ في بيت للشباب في ستراسبورغ؟ أتذكر ثرثاراً

يحكي لي حكايات حتى مطلع الفجر، أتذكر شخصاً من تشيلي في شيكاغو كان يريد زيارتي في برلين، أتذكر الأشخاص الذين تعرّفت إليهم في القطارات والرحلات والباصات الليلية. وهكذا أتذكر أيضاً الأفريقية الجنوبية الشقراء التي تعرّفت إليها في واكساكا. كنا أربعة، فرنسيّة من ليل، أميركية من أوريغون، أفريقية جنوبية بيضاء التي تقيم في لندن، وأنا. استأجرنا خيلاً في سان كريستوبال دو لاس كاساس، ورحنا نتوقع، بل نأمل أن يهاجمنا الزاباتيستا[1]، وبهذا نسهم في الثورة، وندفع ما يُسمّى ضريبة الثورة. وكان ماركوس، القائد الأدنى للزاباتيستا، بقناع وجهه الأسود وغليونه، نجماً من نجوم البوب آنذاك، يجذب معجبين من العالم كله إلى سيلفا لاسيديمونيا. ولكن لم يعتدِ علينا أحد، كل ما حدث هو أن رجال الجيش المكسيكي فحصوا أوراقنا مرّتين. وبعد ثلاثة أيّام في سان كريستوبال ركبنا الباص المتوجّه إلى بالينك، وجُلنا طوال يومين وسط الأطلال قبل أن ننطلق بالسيارة إلى شلالات «المياه الزرقاء»، أكوا أزول. تحتم علينا أن نسير مسافة محترمة في الأدغال. لم أكن قد رأيت في حياتي من قبل مثل هذه المياه ذات اللون الفيروزي. طلت الأفريقية الجنوبية، كان اسمها ساكيا، أظفار قدميّ بالأزرق. كانت قد هربت من إحدى القرى الضائعة في ترانسفال إلى إنكلترا، وكنا نتحدث بالإنكليزية،

---

(١) Zapatista هي المجموعات الثورية في جنوب المكسيك التي قامت بتمرّد مسلح عام ١٩٩٤. تتكوّن الحركة بصورة رئيسية من السكان الأصليين لإقليم تشياباس في جنوب المكسيك، وتهدف إلى تمكين السكّان من موارد الإقليم وتحقيق قدر من الحكم الذاتي. والاسم مشتق من اسم قائد الثورة المكسيكية إميليانو زاباتا (١٨٧٩-١٩١٩). (المترجم)

لكن يوميّاتها وقصائدها كانت تكتبهما باللغة الأفريكانية. كلما رأيت النمش على وجهها شعَرتُ بـ «الهُنا والآن»، الآن كانت هنا، في هذه اللحظة، في هذا المكان، في إحدى مناطق المكسيك، كان من الممكن، عبر آلاف المصادفات، أن أكون في مكان آخر، لكننا تقابلنا هنا. لا بدّ إذاً ـ كما قلت لنفسي آنذاك ـ أن يكون لهذا معنى.

٨٣

يدفعونني مرة أخرى في الممرّات، مفتاح خزانة الملابس ومفتاح صندوق الأمانات مربوطان بقطعة من الشاش وموضوعان تحت وسادتي. يمكنني أن أربطهما حول معصمي كرباط صداقة، أو أحملهما معي مثلما كان يفعل الجنود الأطفال الإيرانيون الذين كانوا يعلقون برقابهم سلاسل بها مفاتيح رخيصة من الصفيح قبل أن يُجبروا على الذهاب إلى الحرب الإيرانية ـ العراقية. كان ينبغي أن يعتقدوا أن هذه المفاتيح ستفتح لهم أبواب الجنّة. أتذكر ذلك لأن جدّتي حكته لي آنذاك، خلال حرب الخليج الأولى. كانت تريد أن تُظهر لي أن أحوالي جيدة. غير أنني في العاشرة أو الحادية عشرة لم أفهم ما تعنيه.

٨٤

عليّ أن أذهب إلى جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي. ينبغي أن يلقوا نظرة أخرى على الكبد، على النخر في أنسجة الكبد والظلال في الأنسجة، نقطة سوداء لم تصبح كبيرة جداً بعد، أعرف ـ منذ

أن فاتحني «ب» بشأنها ـ أنهم في آخر كشف روتيني بالسونار اكتشفوا شذوذاً عن المألوف في أنسجة الكبد. قد يكون ذلك، يقول الطبيب، ورماً خبيثاً في الخلية الكبدية، ولكن، للأسف الشديد، لا يمكن الحكم على ذلك حكماً مؤكّداً في حالة كبد مدمّرة من التشمّع مثل كبدي. الآن سرطان في الكبد أيضاً؟ لم أكن أريد أن أصدّق.

والآن، أنا أرقد على هذه المحفة التي تجري على قضبان وتدخل بي في الفتحة المستديرة، وكأنني في تابوت يدخل إلى غرفة حرق الجثث، أدخل إلى داخل الماسورة. لا أشعر بأيّ إشعاعات، ليس هناك خطر، تقول الطبيبة المرحة ذات الشعر الأشقر الضارب إلى الحمرة، إنه مجرّد مجال كهربائي ذي إيقاع نابض يجعل قطبي جزيئات الماء في الجسم تغيّر اتجاهها دائماً، وهذه الحركة الضئيلة تقدّم معلومات يمكن تحويلها إلى صور. أهه!

أرقد في الفرن وأُخبز، وقريباً سأنضج. من المفهوم أن هناك مرضى لا يستريحون إلى هذا الضيق فتنتابهم حالات رهاب الأماكن المغلقة، لهؤلاء هناك زر صغير أحمر لحالات الطوارئ. تجري في وريد ذراعي مادّة تباين، أسأل نفسي: هل تستطيع الطبيبة بجهاز التصوير أن تقرأ أفكاري أيضاً؟ هل يظهر على شاشتها ما يشغل بالي ويحرّك عواطفي، ما أفكر فيه وما أشعر به؟ هل تعلم الآن إلى أيّ حدّ أجدها عظيمة ومثيرة ورائعة؟ وكم يعجبني مرحها وبشرتها الفاتحة وشعرها ونمش وجهها؟ أليس بإمكانها ـ هكذا أفكر ـ أن تزوّدني بعدّة أفكار مبتكرة وماضٍ مختلف؟ نظام تشغيل جديد،

ووعي جديد؟ أم هي تنسخ الآن نسخة منّي، ثم تحفظها، لتقيّم لاحقاً كل ما يدخل في تشكيلي، كل هذه الذكريات المتشابكة والأحاسيس الغريبة؟ حتى تفحص ما إن كان الأمر يستحق أساساً أن تطيل حياتي؟

٨٥

ولكنهم بالفعل اتخذوا القرار وقيّموا الأمر. هنا، في هذا المستشفى، جرى الفصل في ما إن كان هذا الجسد الذي أسكنه يتحمّل عملية نقل عضو. طوال أسبوعين فحصوا كل أجزائي وصوّروها، ونظروا في كلّ فتحة من فتحات جسمي، وكشفوا عليّ بالتنظير الداخلي، وبالسونار، وبالتصوير المقطعي المحوسب، وبالرنين المغناطيسي. هناك صور بالأشعّة السينيّة للوريد البابي ولأوردة الكبد التُقطت، حتى يعرف الجرّاحون في يوم إجراء عملية زراعة العضو، اليوم المجهول الذي سيفتحون فيه البطن، أين يُعمِلون مشارطهم وكيف. جرى قياس كثافة العظام، وكان هناك كونصلتو من أطبّاء الأسنان، وكونصلتو من أطبّاء الأنف والأذن والحنجرة، وكونصلتو للأمراض النفسجسمية. لا بدّ من أن ذلك كان مكلفاً. لقد وجب عليّ أن أعرض نفسي على كل طبيب متخصّص في هذا المستشفى، وتنقلت من قسم إلى آخر، وفي كل قسم كنت أحضر جسدي معي.

أتذكر طبيب المسالك البولية الذي فحص البروستاتا. فحصاً «رقمياً شرجياً»؛ كلمتان جميلتان للتعبير عن إدخال الإصبع في المؤخرة. من وجهة النظر البولية، قال الطبيب، ليس هناك مانع من

إجراء عملية الزرع. ثم عرفت أيضاً أن خصيتيّ مثاليتان، كما في الكتب التعليمية. يا له من أمر رائع!

وأتذكر طبيب أمراض القلب، طبيب باحث شابّ اكتشف خطأ في صورة السونار للقلب، خللاً بسيطاً في ضربات القلب، ولهذا أصدر لي بطاقة فيها معلومات عن القلب ينبغي منذ ذلك اليوم أن أحملها معي دوماً. غير أنه هوّن من شأن تشخيصه قائلاً إن نوعية التصوير بالسونار لديّ ممتازة، لأنه يستطيع أن يرى كل شيء تقريباً، فيما الصدى لدى مرضى آخرين كثيرين ينبغي أن يخترق أولاً عشرين سنتيمتراً من الدهون، ومن دون طبقة الدهون يسهل على الطبيب أن يرى أكثر، وأن يعثر دائماً تقريباً على شيء ما.

أتذكّر الطبيبة النفسية التي بحثُ لها بأنني لا أعرف دوماً لِمَ ينبغي عليّ أن أجري العملية، ربما، قلتُ لها، كان مخططاً لحياتي ألّا تكون طويلة، وأن هذه الفترة الزمنية القصيرة هي كل ما يبقى لي. بالطبع، هكذا أضيف، أريد أن أواصل الحياة من أجل ابنتي، ولكنني غالباً ما أشعر بأن هذه محض حيلة، حيلة الأطفال التي أستخدمها لإقناع نفسي بالبقاء. ما زلت أتذكر أنني بدأت بالنحيب في تلك اللحظة، في غرفة الطبيبة الصغيرة، أمام نافذتها هناك أيضاً شجرة كستناء. كتبت لي مضاداً للاكتئاب، أحد مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية، وهو دواء كنت أتناوله لفترة ثم أمتنع عن تناوله، لأنني كنت أتوهّم أنني بحاجة إلى الاكتئاب.

وأتذكر موعدي عند طبيبة التخدير التي شرحت لي ما سيحدث في اليوم المجهول. لم أكن أصغي إليها، بل رحتُ خلال حديثها

أحدق إلى الروزنامة الأدبية الموضوعة على مكتبها، وكانت ورقة اليوم عليها صورة لبيتر هاندكه. إذا اتصلوا بك، قالت لي، فعليك ألاّ تتناول أيّ طعام، سيّارة إسعاف، أو مروحية، وفقاً للمكان الذي أنت فيه، ستحضرك إلى المستشفى، قسم ٢١ i، ستستغرق العملية، إن لم تحدث مضاعفات، ست ساعات أو سبعاً، وربما أكثر.

٨٦

وربما أكثر. مَن يعرف. أتطلع إلى زرّ الطوارئ، ولكن لماذا أضغط عليه؟ لا أتذكر إلا ذلك الامتحان الغريب الذي امتد طوال أسبوعين تقريباً، والذي اجتزته في النهاية، من دون أن أتعلم كي أجتازه، لقد نجحت ببساطة. في تلك اللحظة تسحبني من الماسورة الطبيبة المرحة ذات الشعر الأشقر المائل للحمرة قائلة: كفى.

٨٧

لم يبق سوى أن أوقّع. أراد الجرّاح ديميورغ، رئيس قسم زراعة الأعضاء، أن يراني ويتحدّث معي، أراد أن يعاينني ويعطي رأيه قبل أن أوقع. وقف أمامي، رجل يبدو سليماً، لوّحته الشمس، شبه رياضي، وفي نهاية خمسيناته، راح يفحصني بنظراته، ثم قال: أنت لا تبدو كشخص ينبغي لي أن أنقل إليه كبداً جديدة. أنت تبدو في صحّة أفضل من المعتاد. وهكذا يكون قد عبّر بدقة عن الشكوك التي تراودني شخصياً. أليست حالي جيدةً جداً؟ ألم أكن قادراً على مواصلة الحياة هكذا؟ ثم ألقى نظرة على ملفّي المرَضي،

ورأى نتائج التحليلات، فغيّر رأيه واستأذن منصرفاً، ليس لديه وقت كثير.

بُعَيْد ذلك جلست وحدي، يا له من عصر يوم جدير بالتذكّر، في غرفة شبه معتمة بلا نوافذ إلى جانب مكتب زراعة الأعضاء. أمامي على المائدة كومة أوراق، ثلاث نسخ من العقد، كل الصفحات مكتوبة بخط صغير. جلست هناك، وكان ينبغي أن أوقع. عليّ أن أعلن موافقتي على أنّني في يوم ما، في أقرب ما يمكن، ربما خلال خمسة أسابيع، ربما خلال ستة أشهر، ربما خلال عامين، وربما لن يحدث ذلك أبداً لأنني قد أموت قبلها، أعلن موافقتي على نزع عضو من جسدي وزرع عضو جديد فيه. ماذا تعني كلمة «جديد»؟ الأعضاء الجديدة هي دائماً أعضاء مستعملة، أعضاء موتى، هكذا فكّرت محاولاً أن أقرأ نصّ العقد في الأوراق، غير أنني لم أنجح، لم أر سوى حروف وكلمات، ولم أفهم ما وراءها، ما علاقتها أو معناها. مررت على النصّ بسرعة، ولاحظت أنني أدّعي فحسب أنني أقرأ، ممسكاً بقلمي الحبر في يدي.

كنت أعي عبثية هذا الموقف: متى كان بمقدور إنسان أن يقرّر عبر توقيع استمراره المحتمل في الحياة؟ مرات عدة كان ينبغي لي فيها أن أوقع عقد إيجار وعقد بيع، مرات كثيرة كنت عند موثق العقود، ولكن الأمر الآن، هكذا فكرت، يعني أكثر من ذلك. قد أشتري بتوقيعي سنوات أخرى في حياتي، من دون أن أعرف إن كنت سأدفع شيئاً مقابل هذا التمديد، وكم ينبغي لي أن أسدّد، وبأيّ عملة، ومتى؟ وغمرني مرّة أخرى ذلك الخوف، الخوف من أن أتمتّع

بالصحّة إذا نجحت العملية، ألّا أعود مريضاً، ألّا أعود الشخص الذي كنته. أشعر بيدي رطبة، تكاد تكون مبلولة، هل تعرق يدي إلى هذا الحد؟ كلا، كانت يدي زرقاء، كلها حبر. لقد سال الحبر من القلم الذي أحمله معي منذ سنوات، القلم الذي لا أغادر المنزل من دونه، في عصر هذا اليوم تحديداً. ألم يكن يريد التوقيع؟

٨٨

صباحاً، ظهراً، مساءً، ليلاً. الممرّضة النهارية، الممرّضة الليلية، الطبيب يمرّ لإجراء الكشف، الطبيب المسؤول في القسم. الفطور، الغداء، العشاء، السبت، المرق، العصيدة، ولا كشف يوم الأحد. أكثر من ذلك ليست لي أي علاقة بالزمن. التزامن هو السائد. هنا مسرح ترقص عليه الأفريقيات الجنوبيات، يوليا، التي لم تستطع الاستغناء عن الهيروين، وكاتيا التي قفزتُ معها من الرافعة، وطالبة الطبّ التي أعرفها من المحاضرة. ما العرض اليوم؟ باليه؟

كل ما كان يتحرّك الآن على مساحة الرقص هذه، لم يعد منه شيء أمامي أو خلفي، هنا يختلط رقص كل شيء، هنا يغنّون لي، أوبرات عظيمة، هنا أغنّي، كل شيء داني القطاف، ومع ذلك لا يمكن الإمساك به.

٨٩

اسمي على القائمة مرة أخرى، وها أنا أجمع أوقات الانتظار. مع كل يوم يمرّ يتزايد احتمال الوفاة، كل يوم هو أقرب إلى الموت. ولكن

في كل يوم، وهذا من سخريات القائمة، تزداد فرصي في النجاة. ولكن ينبغي أن يموت شخص آخر قبل ذلك. أعلم: إن لم تمت، فسأموت أنا.

٩٠

لكنني لا أفكر كل يوم في ذلك. لا أفكر في أن اليوم المجهول قد يأتي في أيّ وقت. لا أفكر دائماً في ذلك عندما أذهب إلى الفراش مساءً، ولا عندما أستيقظ صباحاً. ليس لديّ أيّ رغبة على الإطلاق في أن أفكّر في ذلك دائماً، لكنني أعرف أن الهاتف سيرنّ في يوم ما، أو في ليلة ما. هل أريدُ أن تموت؟ كلا، لا أريد أن تدهسك سيّارة، أياً كنت الآن. أو أن تطير في اتجاه شجرة مخترقاً الزجاج الأمامي للسيّارة. لا أريد أن ينتفخ شريان لديك وينفجر، لا أريد أن تموت بأيّ طريقة كانت. في الحقيقة لا أريد.

رغم ذلك أقتطع أخبار الوفيات من الجريدة، وهي تتراكم، أضعها في ملفّ. الملفّ يحمل عنوان: «عندما كان الطفلان نائمين».

في الشوكولاتة

فينسنت س (٢٢ سنة)
عامل بسيط في مصنع حلوى في كامدن، نيوجرسي
تزحلق يوم الجمعة
من المنصّة التي يعمل عليها

وعلى كتفه كيس كاكاو؛
فسقط في وعاء عمقه ثلاثة أمتار
ممتلئ بالشوكولاتة الساخنة،

ومات
بضربة من ذراع الخلاط
الذي أصابه في الرأس.
حاول الزملاء
إيقاف الآلة
بلا جدوى.

الكبش

امرأة في التاسعة والعشرين من عمرها من زيمباخ،
كانت تتنزّه سيراً على الأقدام في مدينة براوناو؛
فسقط على رأسها
كبشٌ هرب قبلها بأيّام،
وأصابه الرعب من القطار المقترب؛
فقفز من جسر السكة الحديد.
المرأة

نُقلت إلى المستشفى
مصابة بكدمات وتورّمات دموية.
وهناك
(وهي أمّ لطفلين)
تُوفيت فجأة
مساء يوم السبت.

زجاجة ماء

في بيت للمسنين في غلسنكيرشن،
اتُهم ساكن، في السادسة والثمانين من عمره،
بأنه ضرب جارته في الغرفة البالغة من العمر تسعين عاماً
بزجاجة ماء.
اكتشفت الممرّضةُ
المرأةَ المصابةَ إصابة خطرة
في فراشها،

ثم تُوفيت
قبل أن يأتي طبيب الإسعاف.
قال المسنّ

إنه لا يستطيع
أن يتذكر شيئاً.

صبي كسول

دانيل فيب (٣٣ سنة)
الوزن: ٣٤٠ كيلوغراماً.
تُوفي بالسكتة القلبية،
عندما حاول رجال الإطفاء
أن يحرّروه من الأريكة التي جلس عليها لمشاهدة التلفاز
(موديل: Lazy Boy).

بسبب إصابة في الركبة،
قضى الأشهر التسعة الأخيرة
على الأريكة
جريحاً
وسط فضلاته.

لو كانوا
وافقوا من البداية
على العلاج الطبّي المناسب
لما حدث ذلك، تقول زوجته.

حاولت هي وزوجها،
بلا جدوى،
أن يحصلا
على تأمين صحّي.

عندما كان الطفلان نائمين

امرأة في الرابعة والثلاثين من العمر،
اعترفت أمام محكمة الولاية في أوغسبورغ
بأنها قتلت زوجها البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً،
والذي يعمل مدرّباً للكلاب البوليسية،
ثمّ نشرت جثته.

في الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير، نحو الخامسة صباحاً،
استيقظت على بكاء ابنها؛
فذهبت إلى غرفة المعيشة
حيث بدأ زوجها شجاراً مرة أخرى.
لم أستطع سماع ذلك
وفقدت أعصابي تماماً

عندما هاجمها زوجها،

انتزعت ماسورة معدنية من حافة النافذة،
وانهالت بها عليه.
ترنّح متقهقراً في اتجاه الأريكة.
وعندما أراد النهوض،
ضربته مرة أخرى،
ثم مرة أخرى.

بيّن التشريح
أن العمود الفقري
في عنق الضحية
قد انكسر
من عنف الضربات،
وأن الجمجمة
تهشّمت
من الخوف

كان بإمكان طفليها أن يَريا جثة الأب؛
لذا جرّت الميت إلى غرفة الغسيل،
ونظفت الشقة.
وأوصلت الطفلين، الابنة والابن، إلى الحضانة؛
ثم عادت إلى المنزل،

وفصلت الساقين
عن الجثّة.

أردت أن
أُخرجه من المنزل.
لم أستطع
أن أستوعب تماماً
ما فعلته.
لم أكن أريد
أن أتذكّر ذلك.

في المساء، عندما كان الطفلان نائمين،
حملت أجزاء الجثة إلى السيّارة،
وانطلقت.
ألقت بالجثة، التي بلا ساقين،
في حقل
يبعد نحو ستة كيلومترات من شقتها.
غير أنّها
نسيت الساقين
في حقيبة السيارة.

ولذلك توقفت بعد نحو ٦٠٠ متر
حتى تلقي بهما
على طريق بين الحقول.
وفي اليوم التالي
أبلغت عن اختفائه.

كان مثقلاً بالديون بعد العرس
وبعد مولد الطفلين.
لم يعد الزوج يهتم بشيء،
وبدأ يدمن الشراب.
في أغلب الأحيان كانا يتشاجران،
وكثيراً ما كان يجبرها
على ممارسة الجنس.

تقول المُدّعى عليها
إنها لم تكن تعرف شيئاً
عن علاقة زوجها بأقرب صديقة لها.
لم يكن ذلك ليزعجني
عاطفياً
كنت قد انفصلت

عن زوجي.

### رقم مسلسل

لم يجرِ التعرّف إلى هويّة
ساناساموفيتش
إلّا عن طريق الرقم المسلسل
للسيليكون المستخدم لتكبير ثدييها.
شوّه القاتل وجهها بالفأس
وبتر أطراف أصابعها،
وانتزع كل أسنانها.

### المليونير السابق

في «موتيل»[1] في بريتش كولومبيا،
وجدت فتاة تنظيف الغرف
مليونيراً سابقاً
مخنوقاً بسلك كهربائي.
كانوا يبحثون عنه
في كلّ أميركا الشمالية
باعتباره القاتل المحتمل لسانا ساموفيتش.

(١) Motel: فندق مخصص لسائقي السيّارات على الطرق السريعة. (المترجم)

## دفاع عن النفس

في المحاكمة التي أجريت بشأن قتل ثلاثة أشخاص
بعد نزاع بين مُلّاك حدائق صغيرة في غيفهورن،
اعترف المدعى عليه البالغ من العمر ٦٦ عاماً
بأنه اعتدى على جيرانه بالضرب.
لكنّه ادّعى أنه
لم يلاحظ في البداية
أنه أصاب ضحاياه بالهراوة إصابة قاتلة.

وأوضح

أنه كان يدافع عن نفسه،
لأنه شعر بأن جيرانه (دار الخلاف
حول التخلص من فضلات الحدائق)
يهدّدونه،
وأن الثلاثة انهالوا عليه
ضرباً باللكمات.

سماد نباتي

بعد أن نشر

سماداً نباتياً على تراب حديقته
اشتكى بريطاني في السابعة والأربعين من العمر
في باكينغهامشاير
من مشكلات في التنفس،
ثم تُوفي بعد أربعة أيّام،
إثر تسمّم في الدم،
بسبب فطر أسبرغيلوس فوميغاتوس.

في صندوق السرير

امرأة مُسنّة عاجزة عن المشي، من أوبرهاوزن؛
استضافت عاطلاً عن العمل،
لكي يساعدها في الأعمال المنزلية؛
عُثر عليها يوم الأحد
ميتة في صندوق تحت السرير.
لم يبلغ الرجل
عن وفاة المرأة
(بحسب تقرير الطبّ الشرعي
ماتت ميتة طبيعية)،
لكي يستطيع أن يبقى في الشقّة.

غطّى الرجل
الصندوق تحت السرير
بالبلاستيك، وألصقه،
بعد أن فاحت منه
رائحة التعفّن.

يعيش وحيداً

لأن الأبواب والنوافذ كانت مغلقة،
ولأنه استغرق في النوم بعد رجوعه من العمل،
فيما كان الطعام على الموقد،
تفحّم الأكل
واختنق الرجل (٤٤ سنة)
يوم الثلاثاء
في شتاينهايم (ولاية شمال الراين وستفاليا).

إعطاء درس

حُكم على شرطيين من شترالزوند
بالسجن ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر،
لأنهما
أحضرا رجلاً سكّيراً في الرابعة والثلاثين من العمر

(كان قد انهار في السوبرماركت)
بسيّارة الدورية إلى حافة المدينة
في يوم شديد الريح،
وفي درجة حرارة لم تتعدَّ الدرجتين.

وفي منطقة غير مأهولة،
أنزلاه.
وبعد أن انطلق الشرطيان بالسيارة
سقط الرجل مرة أخرى؛
ومات من البرد،
بعد ساعات قضاها غائباً عن الوعي.

لا علاقة

مفتش شرطة (٤٩ سنة)
أطلق الرصاص على نفسه
أمس في غرفة الإسعاف،
في قسم الشرطة في «أودناردر شتراسه» (برلين فدينغ).
وكان شرطي في الرابعة والأربعين من العمر،
من قسم الشرطة نفسه،
قد قتل نفسه

في نهاية الأسبوع،
في حديقة صغيرة في تيغل،

مستخدماً مسدّس الخدمة.
ويُقال أن لا
علاقة
بين حالتَيِ الوفاة.

*Whirlpool*

لأن خطيبته
فتحت عيون
الجاكوزي،
في المجمع السكني بسنغافورة
أكثر من اللزوم،
أرنه س (٣٩ سنة)، مدير فرع آسيا
في مؤسسةٍ ألمانية للتكنولوجيا،
سحباً قويّاً إلى أرضية الحمام،
مع التيّار المندفع إلى البالوعة
التي كان سياجها المعدني الحامي قد انكسر.

لم يتمكّن أربعة رجال

من إبعاد السبّاح الماهر عن دوّامة التيار.
وغرق الرجل الذي يبلغ طوله مترين
أمام عيني صديقته
على عمق متر واحد.

ماء (جينيفر سترينغ)

المرأة البالغة من العمر ٢٨ عاماً
التي اشتركت،
في مسابقة لشرب المياه
في سكرامنتو، كالفورنيا،
وحاولت أن تربح لأطفالها «بلاي ستيشن»،
ماتت، لأن مستوى النتريوم في دمها
قد انخفض انخفاضاً هائلاً.
بعد شرب أكثر من ١١ لتراً من الماء.

بعد عامين
وجب على محطة الراديو كي دي إن دي،
التي نظّمت مسابقة شرب الماء،
أن تدفع تعويضاً
لأقارب الضحيّة.

يبلغ ١٦,٥ مليون دولار.

صعوبات ماليّة

أضافت امرأة في برلين (٣٩ سنة)
مادّة مخدّرة
إلى طعامِ يومِ الأحد لعائلتها؛
ثم قطعت
عروق زوجها وأطفالها (كانوا كلهم نائمين).
نزف الأب كل دمه،
وتمّ إنقاذ البنات (٨ سنواتٍ و١١ سنة و١٤ سنة).
وجرى إلى أن يفرّق الموت[1]

جثتا
الزوجين المشرّدين
(اللذين كانا قد فقدا بيتهما
قبل ذلك
بفترة وجيزة)
عُثر عليهما

(١) جزء من الجملة المشهورة «إلى أن يفرّق الموت بينكما» التي تُقال عند عقد القران في الكنيسة الكاثوليكيّة. (المترجم)

في مصنعين لتدوير القمامة،

يبعد أحدهما عن الآخر
١٥٠٠ ميل.
تُوفي توماس وسوزان جانسن
في الآلة الضاغطة في سيّارة جمع القمامة،
بعد أن رقدا
في حاوية قمامة
بسانت لويس، ميسوري
واستغرقا في النوم.

لم تعد بينهما علاقة

عندما ذهبتْ لإحضار طفلها البالغ من العمر خمس سنوات
سكب رجل في بيترساوراخ
على أمّ ابنه
البنزين،
ثم أشعله.
بحسب كلام الشرطة
لم تعد بين الوالدين
أيّ علاقة.

## أكثر من اللزوم

لأنها تتحدّث أكثر من اللزوم،
وهو لا يريد
أن يزعجه أحد بعد العمل،
ألصق رجل في التاسعة والثلاثين من عمره من فتسلار
فم زوجته
بشريط لاصق،
ثم جرّها
إلى سقيفة المنزل؛
وقيّدها بعمود خشبي؛
وتركها هناك
وحدها، طوال الليل.
عندما ذهب ليراها
في الصباح التالي
كانت زوجته (٣٨ سنة)
قد اختنقت.

## ألعاب جنسية

في سقيفة منزل،

بقرية إليروده التابعة لهاردغسن،
مات رجل
يقف على أطراف أصابع قدميه،
مثبّتاً بحبل معلق بعمود خشبي،
لأن شريكه تركه وحده وقتاً قصيراً (مثلما يقول).
عندما عاد
كان صديقه ميتاً
ومعلقاً بالحبل.

## في الخزانة

يوم الثلاثاء،
أثناء إخلاء شقة أمّها المتوفّاة
وُجِدَتِ امرأة في فيينا، بولاية فرجينيا الغربية،
في خزانة غرفة النوم،
جثّة متعفّنة
لامرأة مجهولة
ملفوفة بالبلاستيك وعدّة شراشف.

## التفكير في اللصوص أيضاً

لأنه سمع أصواتاً،

تسلّل رجل في الثانية والستين من عمره
يعيش في بوريكار، جنوب فرنسا،
مساء الأحد، مسلّحاً
إلى المنزل المجاور؛
وأطلق رصاصة تحذير.
الجار الجالس أمام التلفاز
ردّ بطلقة،
ثم قُتل
خلال تبادل النيران.

إجازة مشتركة

خلال إطلاق النيران بين أفراد أسرة كبيرة
كانت تقضي إجازتها
في مخيّم بهيلمشتيت،
وبعد شجار بين الرجل البالغ من العمر ٣٢ عاماً
وزوجته ذات العشرين عاماً،
أُصيب أربعة أشخاص
بجراح.

من الثابت المؤكد

أن والد المرأة وحده
ـ الذي قُتِل خلال تبادل النيران ـ
كان قنّاصاً.
أما عن خلفيّات النزاع.
فقد لاذت الأسرة
بالصمت.

بالقرب من أوستيروده

عربة تجرّها أحصنة بلا سائس،
اندفعت يوم السبت بالقرب من أوستيروده في منطقة الهارتس،
باتجاه مجموعة من المشاة المسنّين.
لم تستطع امرأة عمياء
ورجل يعاني من إعاقة بصرية، وآخر لديه إعاقة في ساقيه
أن يتجنّبوا الخيل.
العمياء ماتت،
وأُصيب كلا الرجلين
إصابة خطرة.

بالقرب من كليري بسافويون

شرق فرنسا، بالقرب من كليري،

حدث صبيحة يوم أحد
أن لامسَ منطادٌ قُبَيْل هبوطه،
أسلاك التوتّر العالي؛
فتولدت شرارة.
أربعة بالغين وطفلان

احترقوا أمام أعين أقاربهم.
قفز أحد الركاب من المنطاد،
ومات
عند ارتطامه
بأرض حقل
كان قد جرى
حصاده.

سفينة الموتى

تحدّثت جهات حكومية إيطالية يوم الاثنين
عن أكثر من سبعين ميتاً،
في قارب خشبي صغير
كان قد عُثِر عليه في البحر المتوسط،
على بعد خمسين ميلاً بحرياً من لامبيدوزا

وفيه ثلاث عشرة جثة.

لأكثر من أسبوعين
ظلّ المهاجرون في البحر
بلا مياه
قال الناجون (معظمهم من الصومال)
إنهم رموا
جثثاً كثيرة (من بينها خمس عشرة امرأة
وسبعة أطفال)
من القارب،
إلى أن خارت قواهم.

في محل للأطعمة الشهيّة

انهار يوم الجمعة
أرتورو أويسيبيو ألتساته (٢٦ سنة)
بُعَيْد وصوله إلى مطار فرانكفورت
ودخوله محلّاً للأطعمة الشهيّة،
ثم فارق الحياة.
واقٍ ذكري من بين ١٠٨ محشوّة بالكوكايين
انفجر

في معدته.

رسالة من حلف التجّار في سينالاو

في صندوق مثلج
عثر رجال الشرطة في مدينة براكسيديس بشمال المسكيك
يوم الاثنين
على رأس رئيس المحققين
الذي كان قد اختُطف
يوم السبت (بعد أربعة أيّام من تولّيه منصبه)
مع خمسة موظفين آخرين.

*Para continuar el viaje*[1]

جثة السلفادوري
إدمار لولاندو خافيير راميرز،
التي عُثر عليها يوم السابع عشر من آذار/ مارس في فيراكروز، بالمكسيك،
نُقلت إلى وطنه.
الرجل (بحسب ما أعلن قنصل السلفادور)
ربما اختنق

(١) عبارة بالإسبانية معناها: "لمواصلة الرحلة". (المترجم)

في شاحنة
كانت تنقل لاجئين مختبئين في سحّارة تحت الأرضية،
متجهة نحو الولايات المتحدة.

زملاؤه ألقوا
بالموتى في الشارع،
وواصلوا
رحلتهم.

*Jerry Springer Show*

بعد ساعات من بث «جيري سبرنغر شو»،
عُثر يوم الاثنين في ساراسوتا، بفلوريدا،
على جثّة إحدى ضيفات الشو.
تبحث الشرطة عن الزوج السابق للضحيّة
وزوجته الجديدة.
كان الزوج والزوجة
قد ظهرا مع القتيلة
في حلقة Secret Mistress Confronted[١]
واتهما المرأة البالغة من العمر اثنين وخمسين عاماً

(١) ومعنى عنوان الحلقة: «مواجهة العشيقة السرّية». (المترجم)

بأنها تلاحقهما باستمرار
منذ فترة طويلة.
تشاجرت المرأتان
حول المنزل أيضاً
الذي عُثر فيه
على القتيلة.

في غرفة التبريد

بُعَيْد انتهاء العمل
وجد النُّدُل في أحد المطاعم
بواشنطن دي سي.
ثلاثة زملاء، وُزِّع عليهم العمل
في اليوم السابق،
مقتولين بالرصاص في غرفة التبريد،
كانوا يبحثون عنهم
طوال النهار.

نيّة الانتحار (نحو ثلاث ساعات)

امرأة في الأربعين
قادت سيّارتها بسرعة

ليلة السبت
في شارع أنتونين المؤدّي إلى الطريق السريع
(باتجاه كورت شوماخر دام)
واصطدمت بعمود جسر.
وفي سيّارتها
المحترقة،

لقيت حتفها.
يقول متحدث الشرطة
إنها تركت رسالة وداع.
خلال أعمال الإنقاذ
كان الشارع في محيط مكان الحادثة
مغلقاً
لنحو ثلاث ساعات.

مقبرة عائلية

رجل صقّلي في الثالثة والستين
أراد، عصر يوم السبت في باليرمو،
أن يعاين أعمال الحفر في مقابر أسرته
وخلال المعاينة

سقط من السقالة
على رأسه.
وصباح يوم الأحد
عُثر عليه
ميتاً.

٩١

أجمعُ الأخبار، وأنتظر، غير أن الانتظار لم يعد صعباً عليّ. أنسى أنني أنتظر، فأنا دائماً في حالة انتظار. أنتظر في البيت، أنتظر في غرفة الانتظار في العيادة، أنتظر في المستشفى. أنتظر في السرير، أنتظر على الكنبة، على الأريكة. أنتظر الفحص الطبّي، أنتظر الزيارة، أنتظر مجيء الطبيب، أنتظر الطعام، وأنتظر حدوث شيء. أنتظر حياةً، أنتظر الموت. أنتظر، نعم، أعرف، أعرف من مدّة طويلة، أنتظرك.

٩٢

أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر،

أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر، أنتظر،

## ٩٣

كلا، غير صحيح. لا يمكن الحديث عن الانتظار. أنا لا أنتظر على الإطلاق. لا أكاد أفكر في اليوم المجهول. ليست لديّ رغبة في التفكير فيه، لا أتحدّث عن قائمة الانتظار، ولا أحكي تقريباً لأحد عن العملية المرتقبة لزرع الأعضاء. يحتمل أنني لا أريد، لا أريد مطلقاً أن ينتزعوا من تجويف البطن رطلين إلى أربعة أرطال من اللحم. يُحتمل أنني لا أجدها فكرة جيدة أن تُستأصل كبدي، ثمّ

توضع كبد إنسان ميت بدلاً منها؛ لا أريد على الإطلاق أن أعطيهم كبدي العزيزة، مهما كانت تالفة. أهو أمر سيّئ أن أكون متعباً كل يوم، أن يتجمّع الماء في بطني، وأن يكون إدراكي مشوّشاً؟ هل ينبغي أن يكون كلّ شيء على نحو معيّن، لا على أيّ نحو آخر؟ ألا يمكنني، وهو ما نجحت فيه لفترة طويلة، أن أواصل الحياة هكذا؟ وإن لم أستطع، فليكن الموت؟

لا أتوهّم أنّ كلّ شيء سيكون بعدها، أي بعد عملية نقل العضو الجديد، عظيماً، ورائعاً دائماً، وورديّاً. كلا، أنا لا أنتظر. في بعض الأحيان أترك هاتفي في المنزل، في بعض الأحيان أغلقه، حتى أنني سافرت مرّة أو مرّتين إلى الخارج، وهو في الحقيقة أمر غير مسموح به لي. ألعب قليلاً مع الموت.

ليس سهلاً في أي حال أن تفكّر كل يوم في نهاية حياتك أو في عدم نهايتها.

# حياة جديدة تبدأ[1]

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية: INCIPIT VITA NOVA

تأتي المكالمة بُعَيْد الساعة الثانية ظهراً. كنت أجلس في غرفة المكتب بعد أن تناولت طعام الغداء. سمعتُ صوتاً يقول لي، السيد «ف»، لقد عثرنا على عضو مُتبرَّع به مناسب لك. كنت أنتظر هذه المكالمة. كنت أخشى هذه المكالمة. الطفلة ليست هنا، من المفروض أن تعود في نهاية الأسبوع. لقد أكلت، أي إنني لن أُنقل جائعاً إلى المستشفى، وليس هناك شيء آخر أنوي القيام به. الشمس مشرقة، آخ، أقول لنفسي، كم أودّ أن أبقى قليلاً، عدّة أعوام ربّما. وأقول: نعم، يجيب الصوت، سنرسل الآن سيّارة الإسعاف.

بعد أربع دقائق أقف في الشارع أمام المنزل وأنتظر. ثمّة أماكن شاغرة لانتظار العربات. المدينة خالية، إنها إجازة المدارس في برلين. الجوّ حارّ. أنظر إلى أصص الأزهار المتفتّحة، وإلى أحجار الطريق، أرى القذارة في الفراغات بين بلاط الرصيف، والموائد أمام المقهى على الجانب الآخر من الشارع. قبل ساعة تقريباً ـ أشعر بأن سنوات مرّت على ذلك ـ كنت أجلس هناك، نادلة المقهى تلوّح لي، نحن على معرفة جيدة.

إلى جانبي حقيبة سفر بُنّية اللون، ألقيت فيها من دون تفكير بضعة أشياء. لم يكن كلّ شيء جاهزاً بجانب باب الشقة، رغم أنني كنت أعلم أن الاتصال الهاتفي قد يأتي في أيّ لحظة، وفي أيّ

وقت، لم أكن أنتظره الآن. ربما لم أكن أريد أن أنتظره، في أي حال. لقد نسيت الخُفّ المنزلي، سأنتبه لذلك في ما بعد. عندما أجبرتني اختصاصية العلاج الطبيعي بعد ثلاثة أيّام من النهوض لأول مرّة ـ النهوض من الفراش هو أهمّ شيء، تقول الطبيبة ـ انتعلتُ قفازاً من المطاط، وهو ما بدا مضحكاً إلى حد ما. أنا نفسي لم أتمالك نفسي من الضحك، غير أن الضحك آلمني.

أتذكّر أنني في مرّة أخرى كنت أقلّ استعداداً. أتنقل الآن من بلاطة في الرصيف إلى أخرى، وأتمشى قليلاً رائحاً غادياً، وأجد نفسي مجبراً على التفكير، سواء أردت أو لم أرد، في أن هاتفي رنّ مرّة قبل ذلك، في ليلة شتوية كان الجليد فيها زجاجيّاً وزلقاً، نحو الرابعة فجراً. كانت الطفلة تنام في غرفتها المجاورة لغرفتي. لم أكن قد استيقظت بالفعل بعد. رفعت السماعة، وسمعت صوتاً قال لي جملة مشابهة لما سمعتها لتوي: السيد «ف»، لقد عثرنا لك على عضو مُتبرَّع به. أجبت من فوري، ومن دون أيّ تفكير: لا، شكراً. لا أريد، هكذا فكرت، وإلا فعليّ إيقاظ الطفلة. وكيف يمكنني أن أشرح لها أن عليّ الذهاب إلى المستشفى، في قلب الليل؟ مع أنني كنت أستطيع أن أدقّ جرس جارتي أو جرس أمّ الطفلة.

في ضحى اليوم التالي، اتصلتُ بمكتب زرع الأعضاء وسألت إن كنت قد حلمت بالمكالمة الهاتفية أم لا، أو كنت أريد أن أقنع نفسي بأنني لم أعد أعرف. بدا لي حجّةً وجيهةً في أي حال ظنّي بأنني حلمت بهذه المكالمة، لأنني كنت أعرف بالطبع أنه كان يجب

أن أوافق. متى يحدث أن يُعرض على الإنسان تمديد عمره؟ عرفت أن هاتفي رنّ بالفعل. وبعد أن رفضت، فإن مريضاً آخر منتظراً قد ابتهج.

أتّصلُ هاتفياً بـ«ب» وأحكي له عمّا رفضته. لم أسمع اتهامات، لكنه نصحني ألّا أرفض مرة أخرى. قرّرت أن أخرج من القائمة لفترة، ولن يضيع وقت الانتظار الذي مرّ عليّ.

بعد أربعة أشهر أو خمسة، انفجرت الدوالي.

مرّت حتى الآن ثلاث أو أربع دقائق، ولا أزل أنتظر سيّارة الإسعاف. لا يزال بإمكاني أن أختفي، أقول لنفسي، أن أختفي ببساطة، وأن أغلق الهاتف. امرأة تسكن على بُعد منزلين من منزلي تدفع درّاجتها ذات مقعد الأطفال الشاغر في الخلف. نتبادل الابتسام. أبحث عن هاتفي، وأجده في الجيب الخلفي لبنطلوني، ولكن بدلاً من إغلاقه، أعاود الاتّصال بمكتب نقل الأعضاء، وأسأل عن سبب تأخر سيارة الإسعاف. بالتأكيد ستصل حالاً، يحاول الصوت أن يهدّئني. ولأنني أمسك بالهاتف بيدي، أكتب رسالة قصيرة، SMS، وأرسلها إلى الأصدقاء الذين أودّ أن أودعهم في حالة حدوث شيء. أكتب: سأُنقل الآن إلى المستشفى، من أجل كبد جديدة. غير أنني أكتشف بعد عدّة أسابيع عندما أرى الرسالة مرّة أخرى في هاتفي أنني أرسلت في الواقع ما يلي: «سأُنقل الآن إلى المستشفى، من أجل حياة جديدة»(١).

---

(١) الخطأ هنا يرجع إلى تشابه كلمة كبد Leber وكلمة حياة Leben بالألمانية. (المترجم)

أتّصل عبر الهاتف إلى أن تتهادى سيّارة الإسعاف مقتربة ببطء صيفي، تعال، أيّها الموت الشهيّ. ينفتح باب الجالس إلى جانب السائق. يترجَّل شخص يبدو أنّ لديه كلّ الوقت الممكن في هذا العالم، ثم يستدير ناحيتي ويحيّيني بالسؤال إن كنت معفىً من دفع الرسوم، وأنّ عليّ أن أدفع أولاً خمسة يورو ما لم أكن معفىً. بعد ذلك يضع قبضته على الباب الجرّار ويفتحه. أركب السيّارة وأجد في محفظتي ورقة نقديّة مكرمشة من فئة الخمسة يورو، بها أستطيع أن أسدّد للمراكبي ثمن النقل. يتحرّك القارب، ولا يزيد من سرعته إلا ببطء. وأنا أريد أن أعرف هل من الممكن أن ينطلق بسرعة أكبر قليلاً. لقد وعدوني بسيّارة إسعاف ذات الضوء التحذيري الأزرق. ليس في أمر التكليف أيّ ذكر للضوء الأزرق، يقول السائق، ولكن لا داعي للقلق، إنّنا الآن في أيّام إجازة، ويكاد الطريق يخلو من السيارات.

ثمّة أوراق على مكتبي، وعلى الحافة العريضة للنافذة في غرفة مكتبي، كُتب عليها كل تلك الأشياء التي كنت أودّ إنجازها منذ زمن بعيد. منذ ما يزيد على ثلاثة أشهر، وأنا أريد أن أطلب رفوفاً لغرفة الطفلة. أريد أن أركّب مصباحاً، وأن أفصل التيّار عن الثلاجة حتى ينصهر الجليد. كنت أريد أن أغسل الأطباق، وأن أذهب إلى الحلاق، غداً أو بعد غد. الآن يخطر ببالي الأشخاص الذين كنت أودّ أن أتّصل بهم هذا الأسبوع، أو الأسبوع المقبل أو ما بعد المقبل، ومَن لم أردّ على رسائله منذ أسابيع وأشهر وسنوات، رغم أنني قد أكون وعدته بذلك. كما أنني كنت أريد دائماً أن أكتب وصيّة محترمة،

وأن أرتّب الدرج الأوسط في مكتبي، وأن أفرز كومة الأوراق خلف المكتب، وأن أكتب لريبيكا، منذ عدّة سنوات. ها أنا مرّة أخرى لا أتذكّر أنها لم تعد على قيد الحياة.

تنطلق سيّارة الإسعاف في اتجاه فيرشو. أعرف الطريق؛ فقد عبرته مرّات كثيرة. برناور شتراسه، ثم إلى اليمين عبر حيّ غِزوندبرونن، ثم يسير السائق على طول غراون ـ شتراسه؛ إنه الطريق نفسه الذي سارت فيه سيّارة الإسعاف قبل نحو عام. آنذاك تخيّلت أن السيارة ليست مسقوفة. ورسم خيالي أنني أسير بسقف مغلق في منطقة الفلاندر الهولنديّة عبر طرق المدينة الصيفية الخاوية ـ ربما كان ذلك بسبب الشارع المبلط بالأحجار الصغيرة التي نسير فوقها اليوم أيضاً ـ إلى أن وصل المراكبي إلى الميناء، وتوقف قاربي في المدخل أمام المبنى رقم ٤.

ينزل الشخص المجاور للسائق، ويجذب الباب الجرّار ويرافقني، ليس إلى المصعد فحسب، بل حتى الدور السابع. ويصطحبني حتى بوابة القسم. يجب عليه أن يسلّمني، هذا ما كُلف به. ذلك أنني قد أغيّر رأيي في المصعد إن كنت وحدي، أو أتوه في البناية، من يعرف. ترحّب بي ممرّضة لطيفة، وتودّع رجل الإسعاف. عليّ ـ وقد بدأت عملية التحوّل ـ أن أرتدي فوق ملابسي معطفاً واقياً ذا لون أصفر باهت: على مَن يدخل إلى هنا ألا ينشر مُسبّبات الأمراض.

تقودني الممرّضة إلى غرفة ذات نافذة كبيرة ناحية الشرق. الشمس مشرقة، أرى متنزّه «هومبولت ـ هاين»، وبرجيه الحصينين،

وبرج «لينزن» السكني في برونن ـ شتراسه، أعمدة كشافات استاد «فريدريش لودفيغ يان»، نعم، بل إنني أرى حتى سقوف المنازل في الشارع الذي أسكنه. يمرّ بي أربعة أشخاص أو خمسة بمعاطفهم الواقية من الجراثيم. أحد الأشخاص يأخذ منّي الأشياء التي لم أعد محتاجاً إليها: نظارتي، ساعة أبي، محفظتي، هاتفي. أثناء خلع ملابسي، أجيبُ عن الأسئلة المعهودة: متى أصبت بالمرض الأساسي؟ متى أُجري آخر تحليل دم؟ هل تغيّر شيء في بياناتك؟ هل لا يزال العنوان صحيحاً؟ مَن علينا إخباره في حالة ...؟ هل ركبت طقم أسنان اصطناعيّاً؟ أهزّ رأسي نافياً. ثم أوقّع على كلّ الأوراق التي أعلن فيها موافقتي، أذهب إلى دورة المياه مرّة ثانية، ثم أرتدي قميص العمليّات. يأخذون عيّنة من دمي، ويطلبون أكياس دم، ثمّ يضعون لي قسطرة وريديّة مركزية، ومقياساً لضغط دم الشرايين، ثم يطهّرون جدار البطن والقفص الصدري بسائل أصفر مخضرّ، ويلصقون الأقطاب الكهربائية. أقول إنه لم يمرّ وقت طويل على تناولي الطعام. أسمع الطبيب يقول مداعباً: المهمّ ألّا تكون شريحة محمّرة من لحم الخنزير. وفجأة أشعر بالراحة على نحو غريب ونهائي؛ فليذهبوا بي الآن إلى أيّ مكان يريدونه، لا أمانع حتى في الذهاب إلى كوكب آخر. هل يُحتمل أن يجمّدونني ـ آمل ذلك بعض الشيء ـ لأستيقظ بعد عدّة سنوات؟ سلّمت جسدي. جذعي، بالذراعين والساقين، معلقٌ بالكاد على جهاز إدراكي. نعم، فجأة لم أعد متأكداً إن كنت لا أزال في جسدي، أنا مِلك الأطبّاء، والغريب أنني لا أشعر بالخوف، لماذا يا ترى؟

في مدخل غرفة العمليات، أقابل طبيبَ تخدير لطيفاً، الساحر الذي سيجعلني بعد لحظات أختفي. في ما بعد لا أتذكّر سوى لحيته والحديث القصير ـ المرح في الحقيقة ـ معه والذي يدور حول اضطرابي. أخذ يسرد لي مختلف الخطوات التي ينوي أن يفعلها معي، ويخبرني أنني لن أشعر بما يحدث لي. محقٌّ هو. اقترب منّي وبدأ عمله، ثم غبت عن الوعي. لا بدّ من أنهم سيدفعونني إلى غرفة العمليات، وربما خطرت ببالي أيضاً الفكرة الآتية: حتى هنا كانت الحياة جميلة في الحقيقة، ولكن من المحتمل أنني لم أعد أنا الذي أفكر، لقد غبت عن الوعي، ولم أعد أشعر بشيء، بل إنني لم أعد هنا.

يرقد جسد على الطاولة في غرفة العمليات، نائماً، مسجّى، وكأنه صورة من كتاب فيليب أريس الذي يضم صوراً كثيرة من صور الأشكال المرسومة على القبور. أنظر إلى ذلك الذي يرقد ـ مَن هو يا تُرى ـ من مسافة ما، ثم أتّخذ وضع مساعد البروفسور. أنا أحد هؤلاء الذين يقفون حول جسدي، ممسكين بدبّوس الجراحة، طوال ست ساعات أو سبع. جسمي، نعم، الآن أتعرّف إليه، إنه هو، يرقد فوق الطاولة، لقد أُحدِثت فتحة ممتدّة عرضاً في أعلى البطن، ثمّ امتداد لها من السُرة حتى عظم القصّ، الجلد مفتوح على مصراعيه. بدايةً لا بدّ من فصل الكبد المريضة وإزالتها من تجويف البطن الخلفي، لا نسرَ من قريب أو بعيد(١).

(١) إحالة إلى أسطورة بروميثيوس. انظر المقطع رقم ٣٨. (المترجم)

تزال الكبد المُصابة وفق الخطوات الواردة في الكتب التعليمية:
بعد فتح البطن يُنقل الفصّ الأيسر من الكبد، وتحديد مكان الوريد الأجوف المارّ أعلى الكبد مع فصل فصّ الكبد الأيمن من الحجاب الحاجز، ووصل الوريد الأجوف. خياطة الشريان الكبدي المخصوص وفرعيه. تحديد مكان الشريان المعدي الاثني عشري وإبرازه من أجل عمليّة وصل الشرايين. بعد ذلك تُفصل المرارة والقناة الصفراوية المشتركة بالقرب من بوابة الكبد، وتُركّب قسطرة من أجل «الباي باس»[1] الوريدي في الوريد الفخذي والوريد الإبطي، خياطة وفصل الوريد البابي الكبدي مع وضع قسطرة أخرى. فصل الوريد الأجوف المارّ أعلى الكبد ونزع الكبد ممّا وراء الغشاء البريتوني مع الوريد الأجوف بعد توصيل «الباي باس» الوريدي الذي يحوّل مجرى الدم الساري في الأوردة المعويّة والدم الذي يغذي الساق والكليتين إلى الشريان الإبطي. فصل الوريد الأجوف المارّ تحت الكبد[2].

(١) Bypass.

(٢) مقتبس من كتاب: «الجديد في زراعة الكبد»، للمؤلفين بيتر نويهاوس وروبرت بفتسمان وآخرين، الطبعة الثانية، بريمن ٢٠٠٥، صفحة ٣٣.
Peter Neuhaus, Robert Pfitzmann u.a.: Aktuelle Aspekte der Lebertransplantation, 2. Auflage, Bremen 2005, S. 33.

يمكن اعتبار السيرة المَرَضية التفصيلية للمريض معروفة جيداً. استُقبل المريض في المستشفى يوم ١٤ تموز بعد أن وضعت «يورو ترانسبلانت» بتصرّفنا كبداً مماثلة في فصيلة الدم.

جرت توعية شاملة للمريض إثر دخوله المستشفى ثم زُرِعت الكبد بعد إجراء تشخيص سبق العملية لم يُشر إلى وجود عوائق. كان المريض قد وصل إلى مرحلة نهائية للإصابة (الدرجة ٢١). جرت العملية من دون تعقيدات بتقنيّة «بيغي باك[١]» (مع ربط الشريان المعدي بالشريان الاثني عشري، وخياطة الشريان الطحالي، وفتح مصرف للقناة المرارية).

بعد العملية، نُزعت أجهزة التنفس الاصطناعي عن المريض لمواصلة العلاج والمتابعة، ثم نُقل إلى غرفة العناية المركزة. التنفس تلقائي والدورة الدموية مستقرّة.

---

(١) Piggy-back

وهذا ما حدث. حصلت على كبد إنسان آخر، كبد مُتوفى أو متوفاة، حصلت عليها هديّة. اقتطعوها من جسده أو جسدها، ثم زرعوها في جسدي بدلاً من كبدي. في الحقيقة لا أستطيع أن أصدّق.

أعرف أنه كان من الممكن أن يحدث العكس. كان من الممكن أن أنزف كلّ دمائي ليلة «موس التفاح»: في بانيو الحمّام، في سيّارة الإسعاف، في الطريق إلى المستشفى. لقد كان طبيب الإسعاف وقتها ممسكاً ببطاقة التبرّع بالأعضاء الخاصّة بي. في مكان آخر كان سيبتهج آخرون، كانوا سيواصلون الحياة، كانت أجهزة الهاتف عندهم سترنّ في تلك الليلة، وكان صوتٌ ما سيقول: لدينا لك رئة وكلية وقلب. كبدي فحسب لم تكن تصلح لأحد.

٩٤

أرى أضواءً، أضواءً كثيرة، إنارة باهرة. أحوم فوق مدينة، ما اسمها؟ لديّ أجنحة، انظر: أنا طائر! أنا بطة، أنا البطة في المملكة الواقعة بين الحياة والموت، إنني أسبح، أطير، أغطس، اسمحوا لي بأن أعرّفكم بنفسي، اسمي بطوط.

٩٥

في النَّفس الثالث، أسمع صوتاً كصرير الإطارات. من يتنفس بصوت عالٍ هكذا؟ ألا يزال عليّ أن أتنفس؟ ألست تحت الماء؟ الصرير يسير وفق نموذج معيّن، وكأنه يجتاز منحنى، ويتكرّر الصوت المرة تلو الأخرى، دائماً في النفس الثالث.

٩٦

في ما بعد، أو ربما في ما قبل، قبل أو بعد ذلك، ينتشر الضوء مرة أخرى أمام النافذة، نعم، هذه بالتأكيد نافذة. ينطفئ بحر الأنوار، وأرى قطعة من السماء. آه، أنا هنا، ما أجمل ذلك. أستطيع تحريك يد. ثمّ أسمع وقوقة بطة.

## ٩٧

من فضلك، دع الحيوان يخرج من الغرفة، هذا ما أريد أن أقوله للرجل في الحجرة، أفترض أنه الممرّض. أريد أن أقول إنني لا أريد البطة في غرفتي، غير أنني لا أستطيع الكلام، ضاع صوتي. أسمع البطة بكل وضوح، لكنها مختبئة. من فضلك ابحث عنها تحت السرير، أريد أن أقول له، إنها ترقد هناك، أسمعها تصيح، عبر أصوات الأجهزة، إنها تتحدّث معي. إنها تتحدّث ـ ولِمَ لا؟ ـ بالإسبانية.

## ٩٨

تجلس على سريري امرأة ترتدي فستاناً ناصع البياض، لا يمكن أن تكون ممرّضة أو طبيبة. تلقي نظرة من النافذة، ولم تلاحظ بعد أنني فتحت عينيّ. تحتسي رشفة من فنجان قهوة في يدها، فنجان من الورق المقوّى وعليه غطاء، ثم تدير رأسها ناظرةً باتجاهي، ولكن، لا يبدو أنها تراني. لا أعرف إن كانت حقاً هنا. بلى، هي هنا، لأنني أشعر بيدها، بدايةً على قصبة ساقي ثم على ركبتي.

ولكن مَن هي؟ ربما تقابلنا مرة. هل يربطنا شيء؟ هل عليّ أن أتذكر الآن؟ أليس عندي طفلة، عليّ أن أفكر فيها الآن؟ ماذا ستقول الابنة عن هذه المرأة التي لا يمكن أن تكون أمّها؟ ستبقى هنا، هكذا أفهم لمساتها، لكنها لم تنطق بكلمة، لا أكاد أتبيّن ملامحها لأنها تجلس في مواجهة الضوء أمام النافذة. تضحك وتنظر نظرة جادّة للغاية، هي شقراء بشعر فاحم السواد.

٩٩

ياه، لقد سمحوا لي بتناول الطعام مرة أخرى، أقول لنفسي مندهشاً عندما أحضرت لي الممرّضة الصينية بالفطور. تأخذ شريحة من الخبز الأبيض غير المحمّص وتدهنها لي بالزبد ومربّى الكرز من عبوة صغيرة. تضحك الممرّضة وتقطع الخبز شرائح رفيعة تذكّرني بشدّة بشرائح المربّى التي أعدّها لطفلتي في المعتاد. هنا أنا الطفل.

لمدة طويلة لم أتذوّق شيئاً شهيّاً كهذا. ما زلت أحيا، وأستطيع أن أتناول الطعام. يا لسعادتي. ألعق بقايا المربّى من العبوة.

١٠٠

يقيسون ضغط دمي في شريان الذراع اليمنى، وبهذا يعفونني من الرباط الملفوف حول العضد والذي ينتفخ كل ربع ساعة. في عنقي قسطرة وريدية مركزية بثلاثة أنابيب أو أربعة، ولديّ قسطرة للمثانة، ثمّة أنبوب موصل للحويصلة المرارية وآخر يجمع الصديد من الجروح. الأكسجين، الأكسجين الحلو المذاق، ينفذ إليّ عبر أنبوب صغير مُلصَق تحت أنفي، خرير الغدير في الغابة، إنني أعرفك من قبل.

١٠١

أغفو وأستيقظ، وأتعجّب من تلوّن السماء على غير العادة بالأحمر والرمادي والبنفسجي. السماء تشعّ، وكأن هذا المساء في كوكب آخر. البطة تصيح مؤكدة ذلك. لا أستطيع التحرّك، رغم ذلك تأتي

متخصّصة في العلاج الطبيعي وتجبرني على النهوض والسير ثلاث خطوات. ثلاث خطوات حتى الهاوية. تمسك بي، وتسحبني عائدة، وتساعدني على الرجوع إلى السرير.

١٠٢

تعمل الأجهزة في الغرفة من أجلي. أم أعمل أنا من أجل الأجهزة؟ هل يعمل هذا الجسد الراقد هنا، هذا الجسد الذي أسكنه، من أجل الأجهزة؟ لم أستطع التخلص من فكرة أن من الممكن أن أكون أنا الذي يدفع الأجهزة إلى العمل. بالطبع ـ هكذا أبدأ بالتخيّل ـ يقومون بكل هذا الجهد من أجل ذلك! يريدون أن يمتصّوا دمائي ويسحبوها، ويعيدوا استخدامها.

١٠٣

الشقراء ذات الشعر الفاحم السواد ترقد إلى جانبي، عمداً يتعامى عنها الممرّضات والممرّضون. أظن أنهم يجاملونني: إذ لا يمكن تخيُّل أنهم يسمحون لامرأة بأن ترقد هنا في الفراش. رغم ذلك فإن الفراش ليس ضيقاً، يبدو أن المرأة النحيلة، La Flaca[1]، لا تحتاج إلى مكان واسع. تُقبّلني، إذاً هي حقاً هنا.

(١) La Flaca أغنية إسبانية مشهورة لفرقة Jarabe de Palo التي تأسّست عام ١٩٩٧ في برشلونة. وقد اشتهرت الفرقة عالمياً عام ٢٠٠٠ بهذه الأغنية التي يعني عنوانها «المرأة النحيلة». (المترجم)

عمل وظائف العضو المزروع كان من البداية ممتازاً. باستخدام السونار جرى التأكد من أن العضو يعمل كما ينبغي. بعد استخدام علاج ملائم بالقسطرة الوريدية بقيت الدورة الدموية للمريض مستقرة. وهكذا نُقل إلى قسم العناية العاديّة في وضع مستقرّ في ما يتعلق بالدورة الدموية والقلب، وكذلك الحالة الجيدة للكبد.

١٠٤

يدفعون سريري من قسم العناية المركزة، إلى اللقاء أيّها المنظر الجميل. يهبطون بي طابقاً إلى القسم العادي، إلى غرفة جديدة. يحالفني الحظ مرة أخرى، ويضعون سريري إلى جوار الشباك، المنظر الجنوبي. الغرفة نيّرة، ودافئة. لا بدّ من أن الصيف رائع خارج المستشفى.

١٠٥

على السرير المجاور للخزانة، يجلس رجل يتلاعب بتفاحة. مرتدياً ملابسه ينتظر الخروج من المستشفى، حقيبته جاهزة. ينتظر الحديث الختامي مع الطبيب. يقف المرة تلو الأخرى، ويسير إلى النافذة، ملقياً نظرة على الخارج، ثم يعود إلى فراشه، ملقياً تفاحته في الهواء ـ على ما يبدو التفاحة التي وزّعت مع الطعام كتحلية ـ ثم يلتقطها، ويديرها في كفه، ثم يلقي بها مرة أخرى إلى أعلى. يرن هاتفه، يتحدث مع زوجته: لا، لا تتحرّكي من فضلك، لا أزال في انتظار الطبيب. ويواصل المشي رائحاً غادياً، متلاعباً بالتفاحة.

وأخيراً يأتي الطبيب، حاملاً معه خبراً سيّئاً. أرقد على فراشي وأصغي، لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر، لا أستطيع النهوض ومغادرة الغرفة، ولا أستطيع حتى أن أسد أذنيّ. أسمع أنه لم يعد ممكناً إجراء

العملية لجاري. أنا آسف، يقول الطبيب، لا نستطيع أن نزرع عضواً جديداً، لقد توغل السرطان توغلاً كبيراً، أنا آسف جداً.

الرجل، الذي لم ألتقط اسمه جيداً ـ فنحن لم نتبادل سوى كلمة «مرحباً» عندما دفعوا سريري إلى الغرفة ـ يعرف الآن أنه سيموت قريباً، قريباً جداً، في هذا العام، خلال شهرين أو ثلاثة، وربما بعد أربعة أشهر. هو يعرف، الطبيب يعرف، وأنا أعرف؛ فسرطان الكبد يقضي بسرعة على المريض. يلفّ التفاحة ممسكاً بالعود البارز منها بين الإبهام والسبابة، ويجعلها تدور، سينقطع العود قريباً.

عندما غادر الطبيب الغرفة انخرط الرجل في البكاء. لم يبكِ صامتاً، بل انفجر في البكاء. وقف منتحباً عند النافذة، قريباً للغاية من فراشي. أعرف السبب ولا أستطيع التفوّه بشيء. هل عليّ أن أقول: أنا آسف لأنهم أجروا العملية لي، ولم يجروها لك؟

يتناول هاتفه عن الكومودينة، ويتّصل بزوجته ويقول: لستِ بحاجة إلى المجيء. لا، أسمعه يقول، لا تأتي من فضلك، سأرجع إلى المنزل وحدي، سآخذ تاكسياً.

عند الباب ـ كان يمسك حقيبة بيد وباليد الأخرى مقبض الباب وعلى ذراعه سترة خفيفة ـ يلوّح لي متمنّياً لي كلّ الخير، وهو ما أتمنّاه له أيضاً.

١٠٦

عندما استيقظت كان هناك سرير جديد، سرير يصدر عنه شخير خافت. أرى شعراً أشيب على الوسادة.

تدخل طبيبة إلى الغرفة، شعرها الأحمر لافت للنظر، ترتدي بدلاً من المعطف الأبيض ملابس غرفة العمليات الزرقاء. تسألني عن حالي، وهل أشعر بالألم، وأين أضع الألم في منحنى من واحد إلى عشرة. هل واحد «تقريباً من دون ألم»؟ وعشرة «الألم لا يحتمل»؟ لا أعرف بما أجيب.

١٠٧

سماء حليبية، الساعة الآن الخامسة فجراً. من بعيد يزمجر توربين، أرى أبراج محطة الطاقة، وعموداً وحيداً للضغط العالي يغذّي المدينة، وبقعة من السحاب الرمادي وسط زرقة السماء. ثم تتسلق الشمس الحافة المسطحة لسقف البناية المواجهة لي. كُم الريح المخطط أساساً بالأبيض والبرتقالي والذي أضحى الآن رمادياً كالجوّ، يلمع ويحيّي الرائي؛ يقف متعباً ثم ينهار، حلقة واحدة تجعله مفتوحاً. كان على الكيس في الأساس أن يظهر لقائدي المروحيات اتّجاه الريح.

١٠٨

لماذا يقف جدّي هنا فجأة؟ ولماذا يتحدّث عن زميل له في الجندية قُتل برصاصة في البطن وكان إلى جانبه في الخندق؟ لم يسبق لجدّي أن حكى لنا قطّ عن الحرب. كان يبدأ بالحديث المرة تلو الأخرى عن البوصلة. البوصلة التي ظلّ يخبّئها في سرواله الداخلي طوال فترة الأسر، لأنه كان يعرف أنه سيحتاج إليها. في المجر أسره الروس، وكان محظوظاً لأنه لم يُرحّل إلى سيبيريا. كان على ما يبدو طاعناً في

السن. كان عام ١٩٤٥ قد بلغ الخمسين، وكانت هذه الحرب العالمية هي الثانية بالنسبة له. أظن أن حكاية الرصاصة في البطن من الحرب العالمية الأولى.

وها هو يقف عند فراشي الآن. كيف دخل أصلاً إلى هذه الغرفة؟ ألم يمت من فترة طويلة؟ لا يمكن أن يكون على قيد الحياة. يرتدي زيّ الميدان الرمادي والحذاء العسكري الأسود، ويبدو مثل ضبّاط الجيش الألماني في الأفلام الأميركية. الجدّ يحكي عن الحرب، وأنا لا أصغي إليه، لا أريد أن أسمع أن كل شيء كان دائماً على ما يُرام. لم يكن معهم في بولندا، كان يشارك مع وحدة عسكرية في الحرب المزيفة[1] على الجبهة الغربية، ثم غزا فرنسا واحتل باريس وهو الأمر الذي لا بدّ من أنه قد أثار بعض الفخر لديه، إذ إنهم لم يستطيعوا فعل ذلك في الحرب السابقة، هو وأبوه وأخواه. في الحرب السابقة لم يستطيعوا أن يحتلوا باريس، وسقط والده وشقيقاه صرعى على نهر السوم وفي فيردان. بعد ذلك، أي بعد فترة الاحتلال الجميلة في فرنسا، تحتّم عليه أن يشارك في الحملة الروسية. غير أن روسيا لم تعجبه، ويُقال إنه لم يستطع أن يفهم ماذا يفعلون هناك. روسيا كبيرة جداً وباردة جداً، وليس هناك دور للسينما في أي مكان؛ كم كان يحبّها في باريس! رأيت صورة له يقف فيها أمام سينما «ويبلر» في

(١) يشير تعبير الحرب المزيفة إلى الوضع على الحدود الألمانية - الفرنسية بدءاً من يوم الثالث من أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، وهو اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا النازية بعد الهجوم الألماني على بولندا، حتى العاشر من أيّار/مايو ١٩٤٠، وهو يوم الهجوم الألماني فيما يعرف باسم معركة فرنسا. في تلك الفترة لم تشهد جبهة القتال اشتباكات تُذكر. (المترجم)

ساحة «دو كليشي». لقد شاهدت الساحة بعد ذلك بخمسين عاماً، وما زالت السينما هناك.

١٠٩

يحط غراب على العمود الذي يمسك بكُمّ الريح. يذكّرني الكيس بقلنسوة راهبة ذات شعر طويل. ألا تزال الراهبات اليوم يرتدين غطاءً للرأس؟ لم تعد الممرّضات يلبسن غطاءً رغم أنه كان في ما مضى جزءاً من صورتهن. تخطر ببالي مرة أخرى المنحوتات الخشبية في إحدى طبعات «ديكاميرون» لبوكاتشيو[١]. لقد سحرني هذا الكتاب مبكراً، وتحديداً بفضل المنحوتات الخشبية التي كانت في غالبها إيروتيكية. أحياناً كنت أقلّب فيه. كان الكتاب في غرفة أبي، على الرفّ الأسفل تماماً. بعض الراهبات في الصور كنّ عاريات، وإحداهن كانت تضع على رأسها سروال عشيقها بدلاً من القلنسوة. الرياح تحرّك الكيس القماشي الذي تدبّ فيه الحياة. لا بدّ من أنها مجرد نسمة، إذ إنه سرعان ما تهاوى ثانيةً.

١١٠

الألم الجسدي يعني دائماً اللحظة الحاضرة، مباشرة، الألم هو الآن. أمّا الألم في الذاكرة فهو أقل حضوراً، باستعادته يكون دائماً أقل.

---

(١) Giovanni Boccaccio: Dekameron: هذا الكتاب يضم مئة قصة من القرن الرابع عشر كتبها الإيطالي جوفاني بوكاتشيو. ويرجّح أنه كتبها في الفترة الممتدة من ١٣٤٩ حتى ١٣٥٣. ويُعدّ هذا الكتاب نموذجاً للأعمال القصصية الغربية اللاحقة. (المترجم)

في الصباح التالي لا يعود الوضع سيّئاً. يخف الألم، ولا يسود إلا في اللحظة.

ما دمت أشعر بألم، فأنا ما زلت هنا.

١١١

كنت أتخيل، وأنا طفل، أنني في يوم ما سأصل إلى مكان سأعرف فيه كل شيء، مكان يزول فيه غموض كل شيء، كل الأسئلة والألغاز والمشاكل؛ مكان يتضح فيه مغزى هذه الحياة، والهدف منها على الإطلاق. لماذا خُلِقتُ في هذا العالم؟ ولماذا يحدث هذا الشيء أو ذاك؟ كنت أعتقد أن كل الأسئلة الأخرى سيُجاب عنها هناك: الأسئلة المتعلقة بالنجوم والكون ودروب التبانة والمجرات. لماذا الكون بهذه الضخامة ونحن بهذه الضآلة؟ كيف بدأت الحياة على الأرض؟ ولماذا انقرضت الديناصورات، بينما لم ننقرض نحن البشر؟ ومتى ستجيء ساعتنا نحن؟ ... إلخ، إلخ.

ذات مرة، يوم كنت في التاسعة أو العاشرة، تملّكتني رغبة المعرفة. وهكذا وقفت بخنجر في يدي ـ وهو خنجر أحضرته جارتنا لي من المغرب ـ على السرير في غرفتي، وفكرت في السقوط على نصله الثلم. بهذه الطريقة، هكذا فكرت، سأكتشف ما سيحدث بعد هذه الحياة. لم ترضني الإجابات التي حصلت عليها عن هذا السؤال حتى تلك اللحظة في درس الدين في المدرسة: ثمَّة حكايات من الكتاب المقدّس عن الربّ الحنون ، والقيامة والحياة الأبدية؛ لم يبدُ أن معلمة الدين تعرف شيئاً عمّا يحدث بعد الموت. أمّا أنا فكنت

أريد أن أعرف ذلك، وكنت أنوي أن أغرز هذا الخنجر، الذي كان بالأحرى خنجر زينة لا سلاحاً فتاكاً، في القميص المخملي الأحمر الذي كنت أرتديه في ذلك اليوم. آنذاك لم أفكر في احتمال ألّا يأتي شيء مطلقاً بعد الموت. يُحتمل ألّا يأتي بالفعل شيء على الإطلاق، هكذا أفكر اليوم مرات غير قليلة. قد تبقى الألغاز من دون حلّ، وتظل الأسئلة تبحث عن أجوبة. ولكن، ليس من السهل التفكير في ذلك، لأن العدم يكاد يكون إهانة للأنا؛ من المؤلم لكبرياء الإنسان أن يعترف بأنه ليس مهمّاً إلى درجة عدم الحياة بعد الموت.

نعم، نعم، أتذكر الآن أن الإنسان، لهذا السبب، ينجب أطفالاً.

١١٢

الطبيبة ذات الشعر الأحمر، الذي يلمع بشكل باهر فوق سترة غرفة العمليات الزرقاء التي ترتديها، تسألني مرة أخرى عن الألم. يعجبني أن أدّعي أن الأمور ليست بهذا السوء. الهنود الحمر لا يعرفون شيئاً اسمه الألم، هكذا كانوا يقولون في الماضي، وهذا ما كانت تردّده أمي التي كانت تحب أيضاً أن تقول: تماسك قليلاً وكن رجلاً. أن تكون ألمانياً معناه أن تكون هندياً أحمر. هكذا كان يدّعي هاينر مولر[1]. هذه الجملة التي قالها مولر كانت معلقة في مطبخ الشقة بباريس، «رو دي مارتير»، كانت ريبيكا قد وجدتها وقصّتها من صحيفة، وألصقتها بشريط لاصق على الثلاجة.

(١) Heiner Müller (١٩٢٩-١٩٩٥) من أشهر كتّاب المسرح في ألمانيا (الشرقية). (المترجم)

١١٣

تنساب مادّة مهدّئة للألم في داخلي، من أين سيأتي الألم إذاً؟ إضافة إلى ذلك، هناك القطرات التي عليّ أن أحدّد بنفسي عددها. كل ست ساعات أتناول ٢٥ نقطة، ولكن، لماذا لا أتناول ٣٠، أو ٣٥؟ الكثير يفيد كثيراً، وكل شيء سيصبح على ما يرام. خدر خفيف يسري في عروقي، مادّة سحرية، فعلاً. أحلق فوق سريري، خفيفٌ أنا، إنني أطير. بمرور الوقت أطلب من ممرّضات مختلفات أن يُعطينني زجاجات صغيرة جديدة، قبل أن تفرغ الزجاجات المفتوحة، أخبّئها في الخزانة الصغيرة إلى جوار السرير. لا أحد يسجّل هنا بدقة ما يجري توزيعه. أشعر بالسعادة عندما أفكر في الحفلة التي سأقيمها يوماً على شرف الزجاجات.

١١٤

لا أستطيع النهوض، لا أستطيع السير، لا أستطيع أيّ شيء. راقداً أنظر إلى السقف، والسقف ينظر إليّ. بدافع التغيير أحملق أحياناً في الجدار، فيحملق الجدار فيّ أيضاً. جاري مستغرق في النوم، أسمع شخيراً خافتاً.

١١٥

في العشاء، يقدّمون سجق الكبد مع شرائح الخبز. على الصينية علبة معدنية دائرية صغيرة بغطاء من ورق الألومنيوم. إنهم يقدّمون إليّ سجق الكبد تحديداً، حتى وأنا طفل لم أكن أحب سجق الكبد،

متقززاً أزيح العبوة جانباً. أن يقدموا إليّ سجق الكبد بعد خمسة أو ستة أيّام من عملية زراعة الكبد، ألا ينمّ ذلك عن عدم اكتراث لمشاعر الآخرين؟

١١٦

لم أحب الكبدة قط. كنت أشعر دائماً بالاشمئزاز من رائحتها وقوامها الغريب. عندما كانت جدتي تطهوها بين الحين والآخر، وتقدمها إلينا، كبدة محمرّة مع البصل وحلقات من التفاح ومعها بطاطا مهروسة، كنت آكل البطاطا. أمّا الكبدة فلم أكن أقربها، وكذلك سجق الكبد. هذه الكتلة ذات اللون الوردي الباهت التي تكون في كثير من الأحيان غير متماسكة تماماً، وفي معظم الأحيان تعلوها طبقة بيضاء أو طبقة شمعية كالقشدة البيضاء. إلى جانب شرائح خبز العشاء كان هناك سجق الكبد مع الجامبون وسجق اللحم على الصحن الدوّار الموضوع في منتصف مائدة الطعام الدائرية. أمّا حساء كبُّة الكبدة، فكنت دائماً ـ يا للغرابة ـ أحب تناوله.

١١٧

أسمع صوت مروحية، لكنني لا أراها. السماء الليلية التي أراها من النافذة سوداء. أسمع الطائرة وهي تهبط، هل أحضرت شخصاً مصاباً إصابات خطرة؟ أعضاء بشرية جديدة؟ لا تمكث الطائرة طويلاً، إذ سرعان ما تقلع، وأنا أطير معها، متعلقاً بمزلاق الهبوط، عالياً

فوق المدينة، أرى كل شيء من أعلى: المستشفى، الميناء الغربي، أوتوستراد المدينة، مطار تيغل. إلى متى أستطيع البقاء على هذا الوضع؟ الأضواء، الضوضاء، الضجيج، ثم الهدوء من جديد، هدوء جميل. الأصوات بالغة الخفوت في المستشفى؛ أسمع الجدران؛ ماذا تحكي لي، أيتها الجدران العزيزة؟ إني أسمعك تهمسين، وأسمع جاري الراقد على السرير المجاور يتنفس. هناك أحياناً صوت في الممر، من بعيد، صوت يكسر الهدوء الذي ساد قبله. لا أحد يصرخ، لا أحد يتنهّد، الكل نائمون.

١١٨

تحضر لي إحدى الممرّضات الهاتف التابع للقسم. «ب» على الخط، يتّصل من إيطاليا ليخبرني أن حالتي جيدة. بناءً على طلبه - يبدو أنني كنت نائماً عندما حدث ذلك. جاءت إحدى تلميذاته، وهي طبيبة في القسم المجاور، لتسأل عن حالتي. نتائج التحاليل، قال لي، تبعث على السرور. حالتك جيدة، حالتك جيدة للغاية. ما أجمل الاستماع إلى ذلك منه. الآن أصدّق أيضاً.

يجلس على شرفته الإيطالية المطلة على البحر. ينبغي لي أن أنحني - غير أن الانحناء صعب عليّ - كي أرى القناة، قناة برلين-شبانداو للسفن، وربما أي أيضاً أحد القوارب المحمّلة بالفحم. الفحم المحمّل سيحرق في ما بعد في محطة الطاقة في الميناء الغربي، لتولّد تيّاراً كهربائياً يجعل الأجهزة هنا تضيء وتومض وتُصفِّر.

على الكومودينة أجد كتيباً صغيراً، لا أعرف مَن وضعه هنا. الغلاف الملوّن يظهر لقطة مكبّرة لقلم حبر، غير واضحة المعالم تقريباً، قلم حبر يتباهى به من يمتلكه، بنقوش على ريشته الذهبية. يحمل الكتيّب، وهو في الحقيقة لا يعدو كونه ورقة مطويّة، عنوان: «رسالة الشكر». أقرأ:

> إنّ من يتلقّى هديّة يشعر بالاحتياج إلى التوجّه بالشكر إلى المانح. فإن كانت قيمة الهديّة لا تُقدَّر بثمن، مثل عضو بشري ينقذ الحياة، فإن كثيرين من متلقّي العضو البشري يجدون أن «شكراً جزيلاً» أقلّ من اللازم.

هل أشعر بالاحتياج إلى توجيه الشكر؟ لم تكن لديّ قط رغبة في فعل ذلك وأنا طفل. كانوا ينصحونني دائماً بأن أشكر إحدى العمّات أو الخالات، حتى إن لم تعجبني الهدايا. أسمع صوت أمي يقول: ارسم صورة، أو اكتب بطاقة. بعد ذلك أعرف أن أوراقي ستبقى فارغة بيضاء. عندما أُهديت الخنجر، الذي كنت أريد أن أغرزه في بطني، وأنا في التاسعة أو العاشرة، توجّهت بالشكر الحارّ إلى الجارة. في تلك الحالة كان الأمر في غاية السهولة. رسمت صورة الخنجر، ثم لففت الرسمة الملوّنة، ووضعت فوقها شريطاً من المطاط، ثم قرعت جرس باب جارتي التي أحضرت لي الخنجر من المغرب، من إحدى الأسواق على ما أظنّ، حيث كان بإمكانها أيضاً

أن تشتري أحصنة أو مصابيح سحرية. مقابل الرسمة حصلت من جارتي التي لم تُرزق بأطفال على بعض البسكوت أو الشوكولاتة، لم أعد أتذكّر على وجه الدقة. ولهذا كنت كثيراً ما أحضر لها صوراً.

لا يسمح الإطار القانوني في ألمانيا حالياً بالكشف عن هويّة عائلة المتبرّع بالعضو البشري. رسالة الشكر هي إحدى إمكانيات التعبير عن العرفان التي نودّ أن نشجّعك على استخدامها. توجيه الشكر إلى أقارب المتبرّع يمكن أن يمثل خطوة مهمّة لك ولأسرة المتبرّع أيضاً. ويُعدّ تلقي رسالة كهذه بالنسبة إلى الأقارب حدثاً له خصوصية متميّزة، كما يتّسم بشحنة عاطفية عالية، وتُفهم على أنها تأكيد لأقارب المتبرّع بأنهم فعلوا الشيء الصحيح. قسم كبير من أُسَر المتبرّعين يتمنّى الحصول على إشارة كهذه.

نعم. سأحتاج في البداية إلى ورق رسائل. يجب عليّ أن أذهب إلى محلّ بيع الأدوات المكتبية في أمرونر بلاتس. عليّ أن أنهض وأرتدي ملابسي وأغادر الغرفة، ثم أسير في الممر كله، ماراً بالكشك الزجاجي، ثم عبر باب القسم حتى أصل إلى المصاعد، يجب عليّ أن أنتظر المصعد ثم أدخله وأضغط زرّ الطابق الأرضي ليهبط بي. عليّ أن أجد طريقي في الـ«ميتل أليه» تحت أشجار الكستناء في اتجاه المدخل الرئيسي، ثم أعبر الفناء وأكشاك البوابة، ماراً بمحل الأزهار وكشك المأكولات السريعة الذي تفوح منه رائحة القلي الكريهة. يتحتّم عليّ السير عبر حدائق بائسة وعبر تقاطع طرق

ضخم يشي عبر الخواء برغبته في أن يصبح ساحة، إلى أن أفتح أخيراً باب محل للأدوات المكتبية، خلف الحارة السد في نهاية «تريفت_شتراسه»، كثيراً ما ذهبت إلى هناك. أعشق هذا المحلّ. هناك يمكنني أن أشتري ورق رسائل وقلم حبر جديداً، قلماً ثالثاً أو رابعاً أو خامساً، قلماً لا يسيل الحبر منه، ويجعل الكتابة أسهل، هكذا يقول لي تفكيري السحري، لأن قلماً جديداً لديه بالتأكيد ما يودّ أن يقوله، وسوف تنساب الجمل منه انسياباً، بلا أدنى معاناة.

تنشأ أسئلة كثيرة عند صياغة رسالة الشكر: هل من المسموح أن أكتب رسالة كهذه؟ هل سأجد الكلمات الملائمة التي لا تجرح مشاعر العائلة الحزينة؟ وإلى مَن أرسل الرسالة؟

كنت دائماً أحب كتابة الرسائل. وفي الحقيقة كنت دائماً أفضّل كتابة الرسائل على أن أتحدّث. نعم، أتذكر الآن، كنت أفضّل دائماً كتابة الرسائل على أن أقول ما لا يُقال. ذات مرّة حدث أنني كتبت إلى امرأة لا أعرفها على الإطلاق، فنلندية، لا بدّ من أن ذلك كان عام ١٩٩١ أو ١٩٩٢. كتبت لها لأنني احتفظت لسنوات بإعلان صغير اقتطعتُه من مجلة شبابية. كان الإعلان يقول إنها، الفنلندية، تبحث عن صداقات بريدية، وهواياتها هي sailing, surfing and reading. في الصورة الضئيلة التي لا يتعدّى حجمها ظفر طفل بدت بنتاً شقراء بشعر قصير مجعّد تبتسم. أعتقد في أي حال أنها شقراء، فالصورة كانت بالأبيض والأسود. كانت تبتسم وأنا كنت على يقين بأن هذه الابتسامة تقصدني أنا تحديداً. كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة،

ولكنها كانت في الخامسة عشرة. كنت أعرف أنني إذا كتبت لها الآن فلن تكون لديّ أيّ فرصة. وهكذا اقتطعت الإعلان من المجلة ووضعت قطعة الورق الصغيرة في أحد أدراج المكتب. وبعد سبعة أعوام أو ثمانية ـ وكنت قد انتقلت من بيت الوالدين، ثم غيّرت السكن مرات عدة ـ رحت أرتب مكتبي، فوجدت هذه القصاصة. أردت أن أرميها، لكنني فكرت: ماذا سأخسر؟ الآن أمسكت بك، Girl from the North Country، ما دمتُ قد احتفظت بالإعلان كل هذه المدّة فبإمكاني الآن أن أكتب إليك. وكتبت لها عدة، جمل عن حياتي، وعن ملابسات حصولها على رسالة منّي الآن. قبل أن يمرّ أسبوعان كان الرد في صندوق بريدي. كتبت أنّها تعجّبت وسُرّت للغاية عندما أرسلت لها أمّها الرسالة التي وصلت إلى مسقط رأسها، وأنها تعيش الآن في هلسنكي، ولديها قطة وتعمل موظفة في إدارة المدينة. آنذاك ـ قبل سبعة أو ثمانية أعوام ـ تلقّت ما يزيد على مئتي رسالة، إلا أنها جميعاً لم تسفر عن صداقة بريدية دائمة.

١٢٠

لا تتحدث الورقة المطوية التي ما زلت أمسك بها في يدي عن صداقة بريدية. مكتوب أن عليّ أن أكتب رسالة من دون توقيع، وألّا أبوح بشيء شخصي، لا شيء يمكن أن يعطي بأي طريقة من الطرق استنتاجات عن هويتي. ولكن كيف يمكنني أن أكتب رسالة غير شخصية تماماً؟ ألن تكون رسالة غريبة عندما لا يُسمح لي بإفشاء أيّ شيء عن شخصي: لا اسمي ولا عمري ولا اسم المدينة التي أعيش

فيها، وربّما لا أستطيع أن أذكر حتى جنسي؟ في هذه الرسالة توجب عليّ أن أكون رجلاً أو امرأة بلا صفات. وحتى إن فعلت ذلك، فليس من المؤكد أن تصل الرسالة عندئذ إلى أقارب المتبرّع، لأن أقارب المتوفى هم الذين يحدّدون إن كانوا يريدون قراءة رسالة كهذه أم لا. الجهة الوسيطة تخبرهم فحسب أن متلقي العضو قد كتب رسالة. وحتى إن لم يرفضوا الرسالة، بل قرأوها، فمن غير المسموح لهم بأن يردّوا.

١٢١

ولكن هل يمكنني أن أكتب رسالة إن كنت أعرف أنني لن أتلقّى ردّاً أبداً؟ إنني أنتظر دوماً ردّاً. هكذا كانت حالي منذ كنت طفلاً. كنت أنتظر الردّ على أحرّ من الجمر، حتى إنني كنت أخرج بالبيجاما في السابعة إلّا ربعاً صباحاً وأقف أمام الباب لكي أنظر في صندوق البريد، لأنني كنت أريد أن أعرف إن كانت ثمّة رسائل وصلت في الليل. ذات مرة ضبطتني أمّي وسألتني عمّا أفعله أمام باب المنزل بالبيجاما الساعة السابعة إلّا ربعاً صباحاً. حاولت أن أتحجّج بأنني أردت أن أُدخل الخبز إلى البيت، ولكن الخبز لم يكن هناك بعد، لأن سيّارة المخبز التي كانت تحضر الخبز لم تكن تمرّ في الغالب قبل نحو السابعة والثلث. مساعد السائق، وهو صبيّ لم يكن يكبرني إلّا ببضع سنوات، لم يطوّح بعد بكيس الخبز صوب العتبة العلوية للدرج الحجري. في الظهيرة تقريباً، عندما عدت من المدرسة، وجدت في المطبخ رسالة من أندريا كنت أنتظرها على أحرّ من

الجمر، وهي رسالة كتبتها لي من فرنسا حيث كانت تقضي بضعة أيّام عند زميلتها في التبادل المدرسي. كنت أشعر باضطراب عظيم عندما قرأت خاتمة الرسالة حيث كان مكتوباً بالفعل: «تحيّة وقبلة، صديقك» ... ثم أعقب ذلك شيء غير مقروء، اسم لم أستطع أن أتبيّن ملامحه إلا بمجهود وخيال عظيمين: أندريا. بعد أن قرأت الرسالة وقبّلتها طوال ساعات المرة تلو الأخرى، خطر ببالي أن الاسم المكتوب قد يكون يوليوس بدلاً من أندريا، وهو ما يتناسب من الناحية النحوية مع «صديقك»، وهي الكلمة المكتوبة بشكل واضح، وليس «صديقتك»، كما أن الفاصلة بعد هذه الكلمة لم تكن موجودة. ولكن من كان هذا الـ«يوليوس»؟ وماذا يعني «تحيّة وقبلة، صديقك يوليوس»؟ وهل أرسلت لي قبلة أم لا؟ كنت في حيرة من أمري.

١٢٢

بعد مرور سنوات، وكان البريد آنذاك يوزع مرتين في اليوم، صرت أشعر بالسعادة لأنني أجد قبل الظهر وبعده رسالة من ريبيكا في صندوق البريد. وفي معظم الأحيان داخل مغلّفات صنعتها بنفسها من صفحات المجلات أو برامج المسرح، وهو ما كنت أفعله أيضاً. في بعض الأحيان، تنتابني رغبة في معرفة ما كنت أكتبه آنذاك، ولكن عموماً يكفي أن رسائلها ما زالت موجودة، مربوطة في حقيبة صغيرة موضوعة على السقيفة، أو في غرفة التخزين. أمّا رسائلي فقد تخلصت منها بالتأكيد، قبل وفاتها بفترة طويلة، رغم أنني أحياناً

كنت أتجول لمسافات طويلة حتى أوصل إليها رسالة. فكما أنتظر رسائلها، تنتظر هي أيضاً رسائلي. هكذا كان الأمر يتراءى لي في أي حال. ذات مرة، كنا ما زلنا في برلين، انطلقت ليلاً، نحو الساعة الثانية والنصف، سيراً على الأقدام من شارلتنبورغ، على طول قناة «لاندفير»، مخترقاً متنزّه «تيرغارتن» وحي شونيبرغ وصولاً إلى كرويتسبرغ، ثم عبر غورلتسر بارك وشليزيشه شتراسه، عابراً جسر أوبربام، الذي كانت أبراجه آنذاك فوق نهر الشبريه - إلى حيّ فريدريشسهاين، ماراً بمحطة القطارات القديمة، وصولاً إلى فارشاور شتراسه. جولة ليلية بطرق ملتوية قمت بها لمجرّد أن أضع المغلّف في صندوق بريدها في بوكسهاغنر شتراسه، رسالة أن تجدها في الصباح تتضمّن اقتراحاً عن المكان الذي يمكن أن نتقابل فيه بعد الظهر، عدة أسطر فحسب قضيت أربع ساعات أو خمساً لكي أكتبها. الباب المؤدّي إلى بيتها كان دائماً مفتوحاً، وكان من السهل الوصول إلى صناديق البريد الصدئة، ولكن لم يكن مسموحاً لي بقرع الجرس، إذ كانت لا تزال تسكن مع صديقها، أو صديقها السابق. كان الوضع معقداً. عندما رجعت إلى شقتي، كانت الشمس قد شرقت.

١٢٣

الراقد على السرير المجاور الذي أزيل فصّ كبده الأيمن لا يستطيع أن ينام بسبب حرارة الجوّ. ذات ليلة يبوح لي بأن المرأة المرتبطة بابنه منذ سنوات طويلة، زوجة ابنه المستقبلية، المرأة التي كان يعتبرها كابنته، قد وقعت في غرام كوبي خلال رحلة إلى كوبا قامت بها

مع ابنه لقضاء شهر عسل مبكر. على الفور انفصلت عن ابنه، وهما في جزر الكاريبي، وتزوّجت الكوبي. اليوم، وهو معلم في مدرسة ثانوية في شتيغليتس ببرلين، تربطه علاقة بزميلة متزوّجة، والزميلة أمّ لطفلين. يقول جاري إنه لم يكن يتخيّل مصيراً كهذا لابنه، ولكن في النهاية فإن كلاً منا يعيش حياته كما يحلو له.

## ١٢٤

الطقس حارّ إلى درجة أنني أرقد عارياً تحت الملاءة. لا أحب أن أرفعها، لا أريد أن أرى البطن، بطني، بطن هذا الجسد. إحدى الممرّضات ترفع الغطاء وتسحبه، وقبل أن تضع فوقي غطاء جديداً، الذي تفرده بأكمله ثم تتركه يهبط عليّ كأنه باراشوت مسطح، ألمح هذا الشيء الذي أنشب أظفاره في الجلد الممتدّ تحت قفصي الصدري، كحشرة ضخمة يبدو ذلك. ألم تنقرض منذ أمد بعيد مثل هذه الحشرات الضخمة؟

هذا الشيء الأسود الضخم هو قطعة من السجق الجلدي مربوطة بخيوط سوداء، قطعة ممتدة من النهاية السفلى لعظم القصّ حتى السرّة، حيث تنقسم هناك إلى قطعتين تسيران بشكل مائل في اتجاه عظام الحوض. لطالما أحببت النظر إلى الجروح في اللوحات الفنّية، ولكن هذا الجرح؟ يبرز من جانبي الأيمن أنبوبان من البلاستيك، هناك بالضبط حيث كنت كطفل أشعر بوخزات جانبية إذا عدوتُ بسرعة كبيرة، أو تنفستُ بطريقة خاطئة خلال الجري. يحفر الأنبوبان طريقهما عبر الجلد، وكأن الأطبّاء قد ركّبوا واجهة، إنترفيس، في

جسدي، ولكنها للأسف ليست «يو إس بي» USB، لا أستطيع أن أصل هاتفي بها، ليست سوى أنابيب متماثلة. وفجأة، حتى الآن لم أكن أعرف الكلمة إلا في سياق الكمبيوتر، والآن أفهم معناها الأصليَ لأول مرة: الإنترفيس، الواجهة هي الجرح، والجرح هو الواجهة، هنا مكان الدخول والخروج.

١٢٥

عاد «ب» من إيطاليا، وهو يقف الآن في الغرفة ويحكي. يحكي أن أول عملية لزرع كبد أجريت في دنفر، كولورادو، بقيادة الجراح توماس ستارزل، كان ذلك عام ١٩٦٣. وقابله بعدها في مؤتمرات علميّة. في السنوات التالية أُجريت عمليات ناجحة لزراعة الكبد. وفي العام ١٩٦٧، وهو العام الذي جرت فيه أول عملية زرع قلب، أُجريت أول عملية نقل كبد عاش المريض بعدها أكثر من اثني عشر شهراً. من الناحية الجراحية لم تكن هناك منذ البداية عوائق كبيرة تقف في طريق العملية. الصعوبات نشأت من ردّ فعل الجسم الرافض للعضو الجديد؛ فمن دون كبت فعّال لنظام المناعة في جسم المستقبل كان العضو الجديد يُرفض. آنذاك كانت نسبة الاستمرار في الحياة لمدة عام بعد إجراء عملية الزرع نحو ٢٥٪، أي إنه لم يعش أكثر من عام بعد إجراء أربع عمليات نقل أعضاء سوى مريض واحد.

طوال نحو عشر سنوات، هكذا أسمع، لم يكن هناك أيّ تقدّم يُذكر، ثم طوّرت أدوية جديدة، وطُرح في الأسواق دواء

السيكلوسبورين وأدوية أخرى مثبّطة للمناعة. وفي العام ١٩٨٤، يا للإعجاز، وعلى سفح جبل تسوكوبا، بالقرب من طوكيو، اكتُشِفت في إحدى عيّنات التربة بكتيريا لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت، وهي ذات تأثير هائل مثبّط للمناعة. أتناول الآن كل صباح ومساء الدواء الذي طُوّر من المادة الفعّالة لهذه البكتيريا، والذي سُمح باستخدامه أول مرّة عام ١٩٩٤، وحالتي ـ بفضله ـ جيّدة.

في السيرة الذاتية لستارزل التي أحضرها «ب» لي، والتي رحت أقلب فيها، يصف الجرّاح كيف أخذ يراقب فتاتين خلال نزهة قام بها في متنزّه، ثم نادى على كلبيه. وفجأة بدأ يتحدّث عن كلبيه، بعد أن قتل آلاف الكلاب خلال إجراء تجارب لنقل الأعضاء. لسنوات كان يجري عملية زرع الأعضاء للكلاب، ناقلاً كبد كلب إلى آخر، ومجرّباً عليها مختلف مثبّطات المناعة الممكنة بكلّ النسب الممكنة.

وطوال كلّ هذا الوقت كان لديه كلاب!

أفكر الآن في كلّ الكلاب التي نفقت من أجلي.



عثرت الممرّضة على مروحة، ووضعتها لنا في الغرفة. تدور المروحة، وتستدير هنا وهناك، مُحدثةً تيّاراً هوائياً، ولكن في الليل، هذا ما حدث أمس وأول من أمس، تأخذها الممرّضة الليلية لنفسها. تفكر بالتأكيد أننا ننام، لا شك في أن حجرتها أيضاً حارّة. بعد السؤال تعيد ممرّضة أخرى المروحة لنا في ضحى اليوم التالي.

آخر مرة شعرت فيها بأن الطقس حارّ، كما الآن، كانت قبل أربعة أعوام أو خمسة، في إيطاليا، عندما زرت يوليا على بحيرة غاردا، في منزل سمح لنا معجب قديم بصديقتها يوديت أن نستخدمه لعدّة أسابيع في الصيف. اتصلت يوليا بي من هناك، وراحت تعبّر عن إعجابها البالغ بالمنزل والمكان؛ ودعتني، بل ألحّت عليّ بأن آتي. حسمتُ أمري بسرعة وحجزت طائرة من برلين إلى برغامو، ثم سافرت من هناك بالقطار عبر فينشنسا وبريشا إلى دسنزانو على الشاطئ الجنوبي لبحيرة غاردا. عندما ترجّلت هناك من القطار كانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف ظهراً. لم يكن الباص الذي سيسافر بمحاذاة الضفة الغربية إلى الشمال سيتحرّك قبل الرابعة. كان البار في مبنى المحطة مغلقاً، وهكذا جلست على دكّة أمام المحطة وانتظرت. لو لم تكن معي أمتعة لذهبت ماشياً، فالمسافة لا تتعدّى عشرة كيلومترات، ولكن الطقس حارّ، حارّ جداً، وحقيبتي ثقيلة، الحقيبة البنّية المركونة في خزانة المستشفى. كنت قد أخذت معي كتباً أكثر من اللازم.

بعد أن جلست قرابة الساعة على هذه الدكّة دون أن أتحرّك، قدر الإمكان، أخرجت كتاباً كنت أنوي قراءته خلال رحلة الطائرة، كتاباً أخذته معي لأنّني أعرف أن أحداثه تجري في إيطاليا. رحت أقرأ الكتاب، وتعجبت عندما قرأت في صفحة اسم دسنزانو، اسم المكان الذي أجلس فيه الآن. وتعجّبت أيضاً عندما اتضح لي أن الكتاب

يتحدّث عن هذه المحطة، عن مبنى المحطة وسائقي التاكسي في ميدان المحطة الذين رأيتهم، كما وصفهم الكتاب بالضبط، يغفون في سيّاراتهم. ولأن الكتاب وصف أيضاً المبولة، ودورة مياه المحطة التي يُقال إنها منذ بنائها مطلع القرن، هكذا يذكر الكتاب، لم تتغيّر أو لم تكد تتغيّر، ولأنني كنت أريد الذهاب إلى المرحاض، نهضت وبحثت عنها، قائلاً لنفسي إنّني بالتأكيد لم أسمع أحداً يستخدم كلمة «مبولة المحطة» منذ وفاة جدّي قبل ما يزيد على عشرين عاماً. وجدت نفسي في النهاية أمام حوض وأمام المرآة القديمة المُطفأة المعلقة فوقه التي قرأت عنها قبل خمس دقائق. ما زالت المرآة على حالها معلقة هناك.

الباص الأزرق الذي جاء في ميعاده كان خالياً. اشتريت تذكرة من السائق الذي قاد الباص لي وحدي بمحاذاة البحيرة الملتهبة عبر سالو وصولاً إلى غارغانيو. على البحيرة قابلت يوليا ويوديت ـ وكلتاهما لوّحتهما الشمس ـ وهما تدخنان، كانتا تدخنان في الحقيقة دائماً، وطوال الوقت. أعتقد أنني لم أرهما طوال الأيام التالية مرّة واحدة من دون سجائر، بل إن يوديت كانت تذهب إلى المياه بالسيجارة، ولكن حتى الركبتين فحسب، إذ إن البحيرة كانت برودتها جليدية. لم يبوحا لي إلا بعد تقدّم المساء، وبعد أن تناولنا العشاء في شرفة المنزل المطلّ على الجبال والبحيرة، أن الرجل المعجب بيوديت، الرجل المسن الذي يمتلك البيت والأراضي المحيطة به، قد تُوفي قبل ثلاثة أيّام، بصورة مفاجئة للغاية، هنا على البحيرة، يوم وصولهما، ليس في البيت الكبير القديم الذي كنا

نسكنه، بل في المبنى الأصغر والأحدث المبنيّ على قطعة الأرض العالية، والذي شيّده مكان مبنى الحظائر مهندس معماري برليني معروف. الآن أدركت لماذا قالت يوليا إن المكان هنا واسع جداً. كلّ الضيوف الآخرين الذين جاؤوا في الصيف كانوا قد انصرفوا، كنا نحن الثلاثة وحدنا، وكانت يوديت قد تركت طفلها لدى أبيه. ما زلت أتذكر أن البحيرة كانت تصدر في الليل أصوات قرقرة، كما كانت الجدران الصخرية العمودية على الجانب الآخر من الشاطئ تبدو في ضوء القمر كشواهد قبور ضخمة.

في اليوم التالي، أو ما بعد التالي، استأجرنا قارباً شراعياً ـ كانت يوليا، ابنة صانع مراكب، خبيرة بالقوارب ـ وأبحرنا إلى مالشيسينه، وتناولنا طعام الغداء في ذلك الفندق تحديداً الذي قضيت فيه آخر إجازة وأنا طفل مع والدي. في المساء، عندما أعدنا القارب، كان جلد ظهري يؤلمني بعد أن لفحته الشمس.

بُعَيْد ذلك أوصلنا يوديت إلى المحطة في روفريتو، حيث ركبت قطاراً إلى تْرييستا، كي تقابل هناك الرسّام الذي كانت على علاقة معه آنذاك، وهو رسّام ما زلت أراه حتى اليوم في بعض الأحيان في شوارع برلين، فنتبادل التحيّة. ذلك أنّه يسكن إلى جوار منزلي، وهو متزوّج ولديه ابنان. بقيت مع يوليا عدّة أيّام في المنزل أعلى البحيرة، كنا نذهب للسباحة، ونقرأ ونلعب كرة الريشة، ونقطف الطماطم التي كانت تنمو في الحديقة المغطاة تماماً بشجيرات الدفلى، ونصنع منها صلصة طماطم، وننطلق للتجوال بالسيّارة، ونأكل مساء في مطعم بالقرية على الجبال العالية. لم نقترب أكثر اللزوم من المنزل

الذي احتُضر فيه المتوفى، وهو بيت صندوقي الشكل، أبيض، كان يتوهّج تحت أشعة الشمس.

هل كان الأمر مختلفاً تماماً، أتساءل الآن؟ لا شك في أن الطقس كان حارّاً جدّاً. أتذكّر أن إحدى المرأتين خطرت ببالها الفكرة العبقرية، وهي أن ترسل، قبل الرحيل من برلين، مغلّفاً محشوّاً بالحشيش إلى بحيرة غاردا. لكنه وصل فارغاً. وأتذكر أننا ذات ليلة كنا نجلس وندخن في الظلام على البحيرة، ثم وقعت قدّاحتنا الوحيدة بين الزلط الكبير الزلق، وأننا رحنا نبحث يائسين عن هذه القدّاحة قرابة ساعة، سائرين على أربع. وخلال ذلك كنا ـ سكارى ومساطيل ـ لا نتوقف عن الضحك، وأننا خلال بحثنا كنا نشعل سيجارة من أخرى، من دون توقف.

١٢٨

نُقل جاري، الذي انتزع نصف كبده وضاعت منه زوجة ابنه في كوبا، إلى مستشفى آخر. طوال فترة ما قبل الظهر أرقد وحيداً في الغرفة، ثم تعلن ممرّضة القسم أن عليّ الذهاب إلى حجرة أخرى، أجمل، أجمل كثيراً ستكون الحجرة الجديدة؛ لكنني أعرف أن هذا هو أسلوب المرح السائد في القسم، فالغرف كلها متماثلة. تأخذ حقيبتي من الخزانة وتبدأ بجمع أشيائي فيها، ثم تقودني في رحلة صغيرة إلى الغرفة المجاورة، وتدفع سريري هناك أيضاً إلى جوار النافذة. وخلفنا يدفع ممرّض متدرّب الكومودينة، ويبقى المخزن الذي خبّأت فيه المسكنات من دون أن يكتشفه أحد.

لأن عرقي بدا غزيراً للغاية، تحضر لي ممرّضة قميص نوم جديداً، وتساعدني على خلع القميص الذي أرتديه، وعلى ارتداء القميص النظيف عبر تمريره من الرأس، ثم تزرّر لي الأزرار في القفا، وبحذر تمرّر الأنابيب والأكياس المعلقة من الكمّ القصير. لا أستطيع بعد ارتداء ملابسي بمفردي. يعجبني أن الممرّضة لا تقول «قميص نوم»، بل «قميص بأجنحة»، فأنا أودّ أن تكون لي أجنحة.

أجد نفسي أفكر في قميص نوم ريبيكا الذي كان موضوعاً طوال نصف عام تقريباً تحت وسادتي في باريس، في الشقة التي كانت جملة هاينر مولر معلقة فيها، «أن تكون ألمانياً معناه أن تكون هندياً أحمر»، كنت أقرأها كل صباح هناك. قميص نومها، قميص نوم أبيض ورثته عن جدّتها، تركته هناك بعد زيارتها الأولى، تذكاراً. هكذا كان بإمكانها الادّعاء أنه ما زال لديها قميص نوم في باريس. في زيارتها الثانية، انتابها الغضب لأنني لم أغسله، غير أنني لم أغسله لسبب وجيه، هو أن أشمّ رائحتها.

أمدّ يدي تحت وسادة المستشفى الرقيقة. غير أنني لا أجد سوى هاتفي الصامت المضبوط على إصدار اهتزازات، وسلك السماعة، لا قميص نوم موروثاً، للأسف. الغريب أنني لا أزال إلى اليوم، بعد عقد ونصف أو عقدين تقريباً قادراً على تخيّل دقيق لرائحة قميص النوم هذا. كان بطارية روائح، أريج ريبيكا الفوّاح الذي يتصاعد في أنفي الآن بشذاه الذي أتذكره. كان قميص النوم شفافاً نسبياً، فإن لم تكن ترتدي «كيلوتاً» لمع شعر عانتها عبر حافاته.

١٣٠

مرّة ثانية: هل أستطيع الوثوق بذاكرتي؟ ربما زرعوا لي ذاكرة جديدة؟ هل أمسى لديّ فجأة ماضٍ آخر من دون أن ألاحظ ذلك حتى الآن؟ هل هذه ذكرياتك أنت؟ هل كان ذلك قميص نومك أنت لا قميص نوم ريبيكا؟

أنا الآن كمير[1]، لقد شرح لي «ب» الأمر: بعد زرع عضو في الجسد فإن نخاع المُستقبِل للعضو الجديد يسلك سلوكاً «كميرياً». من ناحية الجينات لم أعد الشخص الذي كنته، بل أنا الآن أيضاً شخص المتبرّع، أي أنت. لقد اختلفت الآن الكيمياء الحيوية المسؤولة عن الوعي لديّ. أعتقد أنها كيمياؤك أنت. لدي الآن بروتينات في الدم لم تكن لدي من قبل، لأن كبدي لم تعد تنتجها، أو لم تنتجها قطّ، وقد تنتابني مشاعر لم أعرفها من قبل، أو لم أعد أعرفها. أنا إنسان مُركّب على نحو جديد، مُكمَّل، مُحسَّن، كمير، هجين. أنا تقريباً مثل تلك المخلوقات الشبيهة بالبشر في أفلام الخيال العلمي.

١٣١

في كتابه «أسباب وأشخاص» يتساءل ديريك بارفيت[2] عن عدد الخلايا في جسده التي يتحتم عليه أن يستبدل بها جسد غريتا غاربو

---

(١) الكمير في الأساطير اليونانية كائن خرافي برأس أسد وجسم عنز وذنب أفعى. (المترجم)

(٢) Derek Parfit: Reasons and Persons

لكي يصبح في نهاية المطاف غريتا غاربو. هل تكفي خلايا الكفّ، أم تلك الموجودة في الساقين؟ وهل ينبغي أن تكون خلايا الوجه من ضمن الخلايا المستبدلة؟ وهل هناك حاجة إلى مخ غريتا غاربو؟ يرى بارفيت أن هويّة شخص ما لا يمكن تحديدها، كما أن السؤال عنها لا أهمّية له، إذ إن الاستمرارية النفسية والفيزيائية لا تفترض وجود هويّة. فالهويّة ليست لازمة للاستمرار في الحياة. معنى هذا أنني ربما أصبحت ديريك بارفيت أو غريتا غاربو أو أيّ أحد آخر، مثلاً أنت. لديّ في جسدي خلايا كافية منك؛ ولكن مهلاً، أقول لنفسي، الهويّة لا دور لها، آه، سأطلق عليك، عليّ، علينا من الآن، غريتا غاربو.

١٣٢

يوقظني صوت المروحيات في الليل مرة ثانية. هل تحضر كيساً بكليتين وقلب على قطع الثلج؟ رئة، بنكرياس؟ في منتصف الليل يقع صوت المروحيات الهابطة على أذني موقع أفلام الحرب في فيتنام، فِلم «نهاية العالم الآن»(١). أرقد في حجرة بيضاء تحت مروحة السقف. أسمع مقدّمة الفصل الثالث من «فالكوره»(٢). أرى الأمواج والقرى المحترقة ومطر النابلم الذي ينهمر على الأدغال. أُبحرُ على قارب الدورية إلى أعالي الكونغو. وقبل أن أتوغّل في قلب الظلام، يفرض نفسه ـ قَطْع. فِلم آخر فوق الفِلم الأول ـ المشهد

(١) Apocalypse Now

(٢) Walküre أوبرا مشهورة لفاغنر. (المترجم)

الختامي من فِلم «حرب النجوم، الجزء الثالث: انتقام السيث»[1]: يكافح أناكين سكايووكر مع صديقه ومعلمه أوبي وان كنوبي، لكنه ينهزم. مشوّهاً ينزلق من دون ساقين إلى الحمم البركانية الحمراء المستعرة. يبدأ جسده بالاحتراق، لا يسنده سوى ذراعه الاصطناعية الميكانيكية. كان ينبغي أن يموت أناكين، غير أن الإمبراطور الذي يظهر فجأة ينقذه، وتجري له روبوتات عمليات جراحية في بقيّة جسمه، وتُدخل التحسينات عليه وتستكمل الناقص لديه، وتزوّده بأطراف اصطناعية ضخمة، وتضع فوق رأسه في الوقت نفسه خوذة سوداء وقناعاً واقياً من الغاز وأجهزة رؤية، وغطاء الرأس الذي يحوّل أناكين إلى دارث فادر. آخذ نفساً، رأسي يدور. هدوء.

## ١٣٣

في اليوم التالي أقرأ في الجريدة عن صاحب مطعم أُجريت له عملية نقل ذراعي ميت بعد أن فقد ذراعيه في مطحنة ذرة. استمرّت العملية الجراحية خمس عشرة ساعة، وشارك فيها أكثر من أربعين جرّاحاً وطبيب تخدير وممرّضة. فريقان كانا يعملان في الوقت نفسه، كل فريق يزرع ذراعاً. كانت العملية صعبة أيضاً بسبب المساحة الكبيرة من الجلد الواجب نقلها مع الذراعين. يتسبب الجلد الغريب بردود فعل قويّة في النظام المناعي لدى المُستقبِل، نخاع الذراع المزروعة ينتج هو أيضاً خلايا مناعة تهاجم بدورها المستقبل للعضو الجديد. خلال قراءتي لذلك، أتساءل: كيف يُثَبط الجهاز المناعي لدى هذا

(١) Revenge of the Sith, Star Wars Episode III

المريض؟ وما هي الجرعة الهائلة الضخامة التي تُعطى له؟ يجب أن تنمو الأعصاب ببطء، أواصل القراءة، بعد عام فحسب، يقول التقرير. سيكون باستطاعة المريض تحريك ذراع، ذراع واحدة للأسف. هل كلمة «فحسب» مناسبة هنا؟ أتطلع إلى ذراعي اليسرى، ثم اليمنى، أتأمّل كلتيهما، أحرّكهما قليلاً. في الحقيقة تعجبانني كثيراً. أودّ الاحتفاظ بهما.

١٣٤

أتذكّر الآن أن الديناصور، في إحدى حلقات مسلسل الرسوم المتحركة «فيوتشاراما»[١]، يلتهم في إحدى حدائق الديناصورات ذراعي البطل فراي. لحسن الحظ كان في نيويورك، عام ٣٠٠٠، محل قريب متخصّص بالأيادي الجديدة. يرى فراي أن يديه الجديدتين أجمل كثيراً من اليدين القديمتين.

١٣٥

لم يعد أحد يتحدث اليوم عن «زرع الأعضاء»، يكاد الحديث يقتصر على «نقل الأعضاء». هناك على ما يبدو خجل من الوضوح الزراعي للكلمة التي تتضمّن أيضاً الحفر ثم الغرس. الكلمة اللاتينية transplantation تلقي بغلالة على العملية، رغم أن الكلمة تخفي داخلها مزرعة كاملة.

«الزرع» يوحي بالعمل في الحديقة، بنزع الأعشاب الضارة،

(١) Futurama

بإخراج النبات من أصيص ووضعه في أصيص آخر، الحفر، ثم غرز الفسائل، ووضع تربة فوقها، والضغط الخفيف عليها، ثم رشها. يوحي بقصّ الحشائش، وتقليم شجيرات الورد أو الأشجار المثمرة، أو جمع أوراق الشجر المتساقط في الخريف. لم أحب العمل قطّ في الحديقة. وأسأل نفسي: لماذا أحلم اليوم، أنا تحديداً، بقطع الحشائش؟ لماذا أحلم بالأشكال والخيوط والأقواس التي أرسمها على المروج؟ احذر الكبل، أسمع أمي تقول، عليك ألا تسير بالآلة فوق الكبل، وفي الحافات. في الحافات هناك لا تترك أعواد الحشائش بارزة، وإلّا فإن عليك أن تقصّها بالمقصّ في ما بعد. بين الحين والآخر عليّ أن أحمل الكيس الممتلىء بالحشائش المقصوصة إلى كومة السماد الطبيعي وأفرغه هناك.

لحسن الحظ أنا معفى، من الآن وإلى الأبد، من مختلف الأعمال في الحديقة. في تربة الحديقة تنتظرك جراثيم كثيرة للغاية. حتى نقل النباتات من أصيص إلى آخر لا ينبغي أن أقوم به بعد اليوم. ليس مهماً، الأزهار في المزهرية كانت دائماً أحبَّ إلى قلبي.

١٣٦

A liver is viable only up to eighteen hours after harvesting[1]. هذا ما أقرأه في سيرة ستارزل الذاتية. في المراجع القديمة يتحدثون عن harvesting، أي الحصاد، كلمة تفزعني. أتخيّل مزارع للأجساد،

(١) أي إن الكبد تظل حية لمدّة ١٨ ساعة بعد انتزاعها من الجسم (حرفياً: بعد حصادها). (المترجم)

وأفكّر في حصاد الكبد هذا العام. مقارنة بذلك تبدو الكلمة الألمانية Organentnahme، أي نزع العضو، باردة ومحايدة.

١٣٧

ربما كان عليّ بالأحرى أن أفكر في أنه جرى تركيب قطعة غيار لي، مثل سيّارة. وبهذا أتخلص من الصورة البلاغية الزراعية.

١٣٨

أُدخل ذراعاً تحت الوسادة متلمساً قميص نوم ريبيكا. لكنني لا أغفو على الحشوة المصنوعة من الإسفنج الاصطناعي في الشقة الواقعة في «دو ري مارتير»، مثلما ظننت أخيراً. أنا أرقد في المستشفى، في برلين، لا أبعد كثيراً عن مقهى «سافيني» حيث تقابلنا، أنا وريبيكا، أول مرّة، قبل سنوات. تعارفنا أيام الجامعة، كانت صديقة صديق، ومن دون ترتيب كنّا نجلس هناك، نأكل فطيرة التفاح بالكريمة، وكان لدى كل منّا الكثير ليحكيه: والداها، والداي، طفولتها، طفولتي، ساعات طويلة والحديث يدور بيني وبينها، من دون توقف. أنا وهي، في معظم الأحيان كنّا نتبادل الأحاديث. في بعض الأحيان كنا نتحدث معاً، شعرت كأننا ثنائي يغنّي. المرّة التالية عندك، قالت لي عند الوداع، ثم قبّلتني على فمي، وهو ما لم يكن مألوفاً بيننا.

بعد أسبوعين أو ثلاثة، جاءت لتزورني. شربنا الشاي واستمعنا إلى تنويعات غولدبِرغ التي لم أعد أستطيع سماعها منذ عصر ذلك اليوم من دون أن أفكّر فيها. وضعت السي دي في الجهاز وضغطتُ على

زرّ الإعادة. مرّ وقت طويل إلى أن وضعت يدي على يدها، فتساءلت: والآن، كيف يجب أن يكون ردّ فعلي؟ لم أقل شيئاً، بل رحت أنتظر إن كانت ستسحب يدها، وهو ما لم يحدث. لوهلة لم يحدث أيّ شيء إلى أن بدأت تداعب ظهر يدي بسبابتها، أظن أن تلك اللمسة كانت هي الأكثر إثارة في حياتي حتى تلك اللحظة. ظهر يدي ما زال موجوداً، أتأمّله وألمسه بسبابتي، ولكن يبقى الإحساس الذي شعرت به آنذاك. بدأ قلبي يتوقف عن الخفقان، يلفت انتباهي فحسب أن ظهر يدي أضحى مبقعاً، عندما مرّت ريبيكا عليه لم يكن كذلك.

تحسَّست يدي، برقة بالغة. ولم تمرّ فترة قصيرة حتى كنّا قد تخلصنا من كل ملابسنا. من آذار حتى أيلول كنا كل يوم تقريباً، نلتقي في دالم قرب الجامعة الحرة. وكان لقاؤنا إما في الحديقة النباتية، أو على المروج في شفار تسنغروند، دائماً نلتقي خلسة، فقد كان هناك صديقها أيضاً. عندما بدأ عام التبادل الدراسي في باريس، جاءت لتزورني، وتركت قميص نومها هناك.

## ١٣٩

تحضر الممرّضة عبوة بها معطف واقٍ من الجراثيم يُستخدم مرة واحدة، وقفازات وكمامة وغطاء للرأس. على النسخة الشبيهة بالإنسان أن تخرج من الغرفة لأول مرة، إلى الهواء الطلق. هل ينبغي لي؟ حقاً؟ تفتح الكيس المغلف للمعطف، وتفرده ثمّ تلبسني إيّاه فوق قميصي ذي الأجنحة. أرتدي الآن رداءً أخضر أدكنَ شبيهاً بزيّ القُسُس. تضع الكمامة على فمي، وتضع غطاءً واقياً على رأسي

وتساعدني على ارتداء القفاز، ليس من اللاتكس، لا، لقد أحضرت قفازات بيضاء من القماش. لا بدّ لي من الذهاب إلى حفلة رقص، سأصبح «داندي» المستشفى، رائد فضاء، مغلفاً ومستعداً للغوص في الهواء الدافئ على كوكب آخر، في مكان ما، عدّة طوابق تحتنا.

ثم تأتي عربتي التي تجرّها الخيل، سفينتي. تدفع متخصّصة العلاج الطبيعي كرسيّاً متحرّكاً إلى الغرفة. كرسيّ متوحّش، أسلاك عجلته السوداء تبدو كأنها عجلة درّاجة حربية. أمّا الآليّة التي تُضبط بها درجة ميل الظهر فتبدو كأنها صُنعت باليد. لا بدّ من أن هذا الكرسيّ المتحرّك قد صُنع قبل الحرب، بالتأكيد جلس عليه جنود الجيش النازي خلال تحرّكهم في المستشفيات الميدانية. هل عُثر عليه في الآونة الأخيرة في مخبأ ظل مغلقاً عشرات السنين، أم كان في متحف ما أُغلِق بسبب خفض الميزانية؟ أجلس على الكرسيّ، وتضع الممرّضة الكيسين ـ هذين الكيسين الشفافين اللذين يجمعان السوائل التي تتقطّر من داخلي، الكيس الأول أسود تقريباً، أمّا الثاني فلونه أحمر مصفرّ ـ على المقعد، بيني وبين مسند الظهر. آخذ حذري حتى لا أهرسهما.

١٤٠

أجد نفسي أفكر في صديقة من المدرسة كان أبوها يبيع كراسيَّ متحرّكة وعكازات وأطرافاً اصطناعية. كان يُطلَق على محلّه «متجر متخصّص في المستلزمات الطبّية». بعد الحصّة الأخيرة كنت أذهب إليها أحياناً، لم يكن والداها يبقيان في تلك الفترة في البيت،

كانا مشغولين بعملهما، الأب في متجر الأدوات الطبّية والأم في بوتيك للملابس الداخلية المثيرة. كنا نضطجع في معظم الأحيان على السرير في غرفتها، نأكل البيتزا ونسمع أسطوانات. كان لديها أسطوانات كثيرة جداً، أسطوانات ذات مدة عزف طويلة، وسيديهات أيضاً، وكانت تشتري كل أسبوع ـ فقد كانت تحصل على مصروف جيب ضخم ـ ثلاث أسطوانات جديدة أو أربعاً. كلف والدها أحد الأشخاص ببناء شلال اصطناعي في الحديقة، وهي في الحقيقة أصغر من أن يُبنى فيها شلال. كان يعمل ويتوقف عن العمل بجهاز تحكم عن بعد؛ ليس هذا فحسب، بل كان يمكن أيضاً زيادة قوته أو إضعافها. كان يعجبني هدير مياه الشلال، خرير دائم يشبه البِساط تحت كلّ الأصوات الأخرى، وأحياناً يعلو عليها. في بعض الأحيان كانت ـ واسمها ألكسندرا ـ تخلع «التي شيرت» لتريني ملابسها الداخلية ذات الموتيفات، التي كانت تنتقيها من محلّ أمّها. أكثر ما أعجبني هو مشدّ صدرها من موديل «النحلة زينة».

١٤١

يتدحرج الكرسي المتحرك عبر الأبواب الإلكترونية التي تنفتح من تلقاء نفسها في اتجاه الرصيف أمام المبنى رقم ٤، الرصيف الذي تقف أمامه سيّارات الإسعاف. سيّارات شركات دفن الموتى تقف بعدها قليلاً. أنا في الشارع مرّة أخرى، في الهواء الطلق، أنا أحيا. يتدحرج الكرسيّ المتحرّك في الطريق الأوسط، تحت هامات أشجار الكستناء ذات الأوراق الكثيفة الخضرة، في صفوف مزدوجة

تكوّن سقفاً فوق الطرق، نفق داكن الخضرة، قشرة جذوع الأشجار تُظهر شكلاً ممتلئاً بالتجاعيد. بين الحين والآخر تمرّ عجلة فوق إحدى ثمار الكستناء الوليدة الصغيرة ذات اللون الأخضر الفاتح التي سقطت قبل الأوان بعد أن هزّتها الريح. لا تزال ليّنة. المرور فوقها يولد صوتاً قبيحاً، وكأن شخصاً يتلمّظ.

أقترح على متخصّصة العلاج الطبيعي، التي تدفعني مارةً بدكك مدهونة بالأبيض وبمنافض للسجائر ممتلئة بالرمال وكروية الشكل، أن تواصل دفعي عبر الطريق الدائري الجنوبي في اتجاه الشاطئ الشمالي؛ عليها، إذا سمحت، أن تدفعني حتى أصل إلى المدقّ بجوار القناة، نعم. ولمَ لا ننزل مارِّين بالشجيرات إلى جوار المياه. بدلاً من أن تفعل ذلك تجبرني على النهوض، لها صوت لا أستطيع مقاومته، لا بدّ من أن أفعل ما تقول. أين ذهبت إرادتي الحرّة؟ تجبرني على السير بضع خطوات، خطوتين، ثلاث خطوات، أربعاً، خمساً، ستّاً، سبعاً، مسافة هائلة. يبدو أنّني هبطت بالفعل على كوكب آخر، كوكب الجاذبية فيه أقوى كثيراً ممّا هي على الأرض. تحمل متخصّصة العلاج الطبيعي خلفي الأكياس البلاستيكية التي تضمّ عصارات جسمي. أمّا الأنبوبان الرفيعان المنغرزان في جلدي فهما القيد الذي به تقودني. عندما استدرت لأجلس، كان الكرسيّ بعيداً، بعيداً جداً.

١٤٢

الرحلة بالكرسي المتحرّك هي رحلة بكاميرا تلتقط صوراً من منظور

منخفض للغاية، وتذكّرني بالأفلام الوثائقية التي تُظهر إريك رومير[1] خلال التصوير. كان يجلس والكاميرا في يده على كرسيّ متحرّك، ويجعلهم يسحبونه على الرصيف أمام زوج من الممثلين المندمجين في تبادل الحديث. أظن أن ذلك حدث خلال تصوير فِلمه «موعد غرامي في باريس».

١٤٣

نعبر الشارع فوق خطوط المشاة التي تبدو وكأن حيواناً جائعاً قد بدأ بالتهام بعضها. يرفع بستاني في الحديقة منشاراً كهربائياً مثبتاً بعصا طولها عدة أمتار تجاه أحد الأغصان، لا يستغرق الأمر سوى عدة ثوان، ثم تصرخ الشجرة ويقع الغصن. يقف خمسة من قوات الشرطة بزيّ قتالي أدكن أمام مستشفى للعيون، يخفي الصديري الواقي من الرصاص ومنطقة الأكتاف المبطنة الفروق الثانوية بين الجنسين، لا ألاحظ أن امرأة بينهم إلا بعد إلقاء نظرة ثانية. تقف سيّارة لنقل الموتى التابعة لإحدى شركات الدفن من أوسنابروك على الخطوط الجانبية، سيارة فورد بستائر كريمية اللون (ومزودة كذلك بحاجب أمام الزجاج الخلفي باللون نفسه)، لا أرى نعشاً. أحد العاملين في إدارة مستشفى الشاريتيه يدفع ما يشبه الدرّاجة الثلاثية العجلات. ليست الدرّاجة مخصّصة للذين يعانون مشكلات في التوازن، بل وسيلة نقل؛ في المكان المخصّص للنقل خلف المقعد دلو للقمامة، ومكنستان، وجاروف لجمع الفضلات، كلّ منها

(١) Éric Rohmer (١٩٢٠-٢٠١٠) مخرج سينمائي ومسرحي فرنسي. (المترجم)

مثبّت بحامل مخصوص. هنا وهناك مصابيح زجاجية. ثمّة قبو تحت الدور الأرضي في مبنى المستشفى كله تقريباً، عالم سفلي تحت العالم السفلي. تجول نملة على بلاطة، تتّجه يساراً، ثم يميناً، تسير سيراً ملتوياً، تتبع ما بقي من رائحة ما، يحتمل أنها لا تعرف هدفها على الإطلاق.

١٤٤

زيارة، الزيارات كثيرة نسبياً. هذه المرة سوزانه. بالتعاون مع الممرّضة تساعدني في عملية التحوّل، سأصبح رائد فضاء أو «داندي» مرّة أخرى. تدفع سوزانه الكرسيّ المتحرك، ونقوم بدورة في الطريق الأوسط، مارّين بروضة الأطفال الملحقة بالمستشفى وبملعب الأطفال. أمام الكافيتريا الغربية تتركني تحت أشعة الشمس، ثم تشتري لنا آيس كريم. مسموح لي بتناول الآيس كريم المغلّف في المصنع، والقليل الجراثيم. كأننا في مسبح في الهواء الطلق، الفارق الوحيد هو أن سوزانه لا ترتدي البكيني. كما أنني لم أتناول من قبل أبداً آيس كريم بقفاز أبيض.

تحكي لي سوزانه عن ابنها وأبيه الذي تريد الانفصال عنه مرة أخرى، لديها الآن شقة خاصة بها، لكنها مترددة في مغادرة شقة الزوجية نهائياً. الجوّ دافئ، يدخل الهواء الدافئ إليّ عبر جناحي القميص. خلال إصغائي إلى سوزانه كنت مشغولاً بمشكلة الانتصاب لديّ التي أعاني منها منذ عدّة أيام، أعاني منها في السرير بالطابق الأعلى، وهنا في الشارع. الكرسيّ المتحرك هو جهاز الانتصاب

المتحرك بالنسبة إلي، فمنذ أن بدأوا يدفعونني فيه وعضوي منتصب، منتصب انتصاباً شديداً مؤلماً. أشعر كأنني جعران قد دهست قرون استشعار نصفه السفلي، نعم، أشعر كأن قضيبي يريد أن يتعرّف إلى العالم لمساً، وكأنني، وكأن هذا الجسد ـ هذا المخلوق البائس المختبئ تحت واقي الجراثيم ـ لا تواجهه أيّ مشكلة أخرى.

لا تزال سوزانه تحكي، وتقود الكرسي ناحية الجزء المتشعّب في الحديقة، باتجاه قسم الحجْر الطبّي. يخطر ببالي أننا مارسنا الجنس مرةً، قبل سنوات، في مدخل منزلها، ليلاً. كانت آنذاك حاملاً، لكنها لم تبح لي بذلك، مرة أخرى في شرفة الممرّ في الطابق السابع عشر من ناطحة سحاب في «ميركيشيس-فيرتل»، كان الباب مفتوحاً، وكانت الشرفة تطل على «ألت-لوبارس». تجلس الآن على دكّة، أمامي، وأنا أفكر إن كان عليّ أن أرفع قميصي إلى أعلى قليلاً لأحكي لها عن مشكلة الانتصاب لديّ، وهي مشكلة أعرف أن سببها فيزيولوجي: تنجح الكبد الجديدة في التخلص من هرمونات الإستروجين في دمي بطريقة أفضل. ولهذا فإن مستوى التستوستيرون عالٍ للغاية. قد أكون مشوّش الذهن بعض الشيء، إذ إنني فجأة أرى سوزانه ـ آكلة الأيس كريم والغارقة في حكايات مسهبة عن انفصالها ـ تلعق قضيبي بعد أن أدخلت يدها واستخرجته من الرداء الواقي من الجراثيم، ثم راحت تلعقه وتعضه إلى أن أخذنا نتبادل القبل في النهاية.

بعد ذلك تدفعني عائدة بي.

١٤٥

جاري في الغرفة. لشخيره أثر مهدّئ.

١٤٦

ها أنت تجلس على سريري مرة أخرى، مرتدياً اليوم كنزة صوفية برتقالية حمراء. لا أستطيع تحديد عمرك، ولا أعرف اسمك، تجلس هناك في الركن شبه المعتم، البروفيل ضائع. قد تكون في السابعة عشرة أو السابعة والثلاثين أو الرابعة والأربعين، لا أستطيع رؤية وجهك، يبدو غائماً على نحو غريب، وكأنه مرسوم رسماً خفيفاً، أو مشوّه حتى لا يتعرّف إليه أحد. حتى أنني لا أعرف إن كنتَ رجلاً أم امرأة، وأين كنتَ تعيش حتى أيّام مضت. لا أعرف إلّا مكانك الآن، هنا، عندي، غير ذلك لا أعرف شيئاً، أي شيء. لا أعرف حتى لون شعرك، وما هي رائحتك، أنتِ، أيتها المرأة التي يصنعها خيالي، المرأة التي تحمل بطاقة تبرّع بالأعضاء في كيس نقودها، الفتاة في سنّ الثامنة عشرة التي تقع من فوق الفيسبا التي تقودها من دون خوذة، الأم الشابة التي تلقى حتفها خلال السباحة، المرأة الطاعنة في السن التي حدث لها نزف في المخ. ولكن ربما كنتَ رجلاً مسنّاً مُحبَطاً، مدمناً مشاهدة التلفاز، قبيحاً وبديناً وشرّيراً. والآن سأصبح أنا أيضاً هكذا.

١٤٧

لا أستطيع أن أشعر بكبدي، فليس هناك خلايا عصبية في الكبد،

ولا حتى حول الكبد. غير أنّني أستطيع الشعور بك أنت، أنت هنا. لم نتعارف، ولكن أحدنا يعرف الآخر، إنني أحلم أحلامك، لأنك أحضرت معك كيمياء الحلم.

وما هي صلة القرابة بيننا الآن؟ هل أنتِ ابنة أخت، أم عمّة، أم ابنة خال؟ هل أنتِ الأخت التي أقيم معها علاقة من دون أن يعرف أحد شيئاً عن ذلك بالطبع؟ هل أنت للشقيق عروس وأخت؟ أخي، أيزدهر الآن زنا المحارم؟[1]

أعرف من ملفّي المرضي أنّني حصلت على كبد من «يورو ترانسبلانت». ولهذا أعلم أيضاً أنك لستِ إسبانية رغم أنّني أسمعك أحياناً تتحدثين الإسبانية. توزع إسبانيا الأعضاء المتبرَّع بها على المستوى القومي. «يورو ترانسبلانت» توزّع الأعضاء من دول البينولوكس وألمانيا والنمسا وسلوفينيا وكرواتيا. من الممكن إذن أن تكوني من النمسا مثل أبي، وأن تكوني قد صدمتِ سيّارتك بشجرة أو صخرة في مكان ما في النمسا العليا أو بورغنلاند، أو ربما لقيت مصرعك في بلجيكا أو هولندا أو لوكسمبورغ.

يظن «يورو ترانسبلانت» أننا متوافقان. يرى «يورو ترانسبلانت» أن علينا أن نجرّب الأمر معاً، أنتِ، وأنا، فصيلة الدم السالبة نفسها. لقد وجدَ أحدنا الآخر. وفقدَ أحدنا الأخر. غير أننا سنبقى الآن معاً. ونعيش قليلاً، أنت من خلالي، وأنا من خلالك.

---

(١) هذه الجملة تحيل إلى مقطع في أوبرا «فالكورة» Walküre لريتشارد فاغنر التي تتناول موضوع زنا المحارم.

١٤٨

لا أعرف أي شيء عنك، لا أعرف أيّ شيء مطلقاً. رغم ذلك أفتقدك، أفتقدك بجنون.

١٤٩

على الأقل أعرف متى تُوفيتِ، أعرف يوم موتك، فهو يوم العملية. كنت أفكر أحياناً قبل الاتصال الهاتفي: في مكان ما من أوروبا تتمشين الآن، أو تجلسين في السيّارة، أو في السينما، تشاهدين فِلماً، أو تقودين دراجة، أو ترقدين على المرج في مسبح في الهواء الطلق، تقرأين كتاباً أو تقلّبين صفحاته فحسب، تأكلين الكاتوه أو السباغيتي أو شريحة من اللحم المطهوّ على طريقة «زاور براتين»، من دون أن تعلمي أنك ستموتين قريباً.

١٥٠

ممرّض شاب يدخل إلى الغرفة محضراً معه طعام الغداء. اليوم لا سباغيتي ولا شريحة لحم، ولا قطعة كاتوه أيضاً. حساء ما، مهروس محتواه.

يوماً بعد يوم أصبح أكثر خفة. تخرج المياه من داخل جسمي، كل تلك المياه التي تجمّعت في بطني، والتي كنت أحملها معي في السنوات الأخيرة. تتراجع دوالي المريء، الدم ينساب عبر الكبد الجديدة، لم يعد هناك عائق، ولا ارتفاع في ضغط الدم البابي، لم أعد مجبراً على الذهاب للكيّ بعد الآن، الموعد المقبل يُلغى.

كذلك غدت نتائج التحاليل في تحسن. انخفضت نسبة الأمونيا في الدم. يبدو العالم مختلفاً، هل تنزاح الغلالة؟ أليست هذه الحجرة التي أرقد فيها جميلة؟ الشمس مشرقة، أمام النافذة شجرة، وحقاً: كنت محظوظاً جداً، لا أزال حيّاً. لقد سحبت الرقم الفائز، الجائزة الأولى، لن أقضي إلّا أيّاماً طيّبة، vita nova، حياة جديدة.

١٥١

جاءت ساحرة طيّبة وأخبرتني أنه سُمح لي بالبقاء عدة سنوات أخرى. كلا، لم تمرّ عليّ، لقد اتّصلت هاتفيّاً، في الساعات الأولى من فترة ما بعد الظهيرة، كنت أجلس خلف مكتبي، ثم قالت: كان من المفروض أن تموت الآن، ولكننا، نحن الساحرات الطيّبات، قررنا أن نحاول مرّة أخرى معك، مسموح لك بأن تواصل الحياة، إذا ... غير أنّني لم أفهم للأسف الشرط، كان الخط سيئاً جداً.

١٥٢

وأنت، أيها العضو، هل أنت حقاً جزء مني؟ لمن يكون العضو المزروع؟ هل أُهدي لي، أم أنه لا يزال ملكاً ليورو ترانسبلانت، أم للمستشفى، أم لصندوق التأمين الصحي؟ هل عليّ أن أحتفظ بك فحسب، أن أعتني بك وأمدّك بالدماء لتبقى حيّاً؟ هل أنا وعاء لا غير، جهاز يبقيك على قيد الحياة؟ هل أجد يوماً رسالة في صندوق البريد تقول لي: السيد ف، نودّ أن نستعيد كبدنا، من فضلك احضر إلى المستشفى في اليوم الفلاني، لقد عثرنا على شخص

أفضل، شخص يستحق الكبد أكثر منك، وسيعتني بها عناية أفضل، وسيستفيد منها أكثر.

يا لها من مخاوف.

يمكنني أيضاً أن أعطيك لآخر. أهديك. إذا متّ الآن فقد تُنزعين منّي، عزيزتي الكبد المستعارة، وربما تُزرع مرة أخرى. لقد حدث بالفعل، يحكي لي «ب»، أن نُقل عضو عدّة مرّات. أيتها العملة، أيتها العملة، ينبغي أن تجولي، من يد إلى يد[1].

١٥٣

أقرأ عن حالة في أميركا لا تدخل السرور إلى نفسي: مريض في الخامسة عشرة من عمره لا يريد أن يعيش بعد العملية الثانية لزرع عضو. لم يعد يستطيع تحمّل الآلام، ولم يعد ببساطة يريد مواصلة الحياة، فيتوقف عن أخذ أدوية مثبطات المناعة، ويمتنع عن تناولها، فيطلب أطبّاؤه من الشرطة إحضاره، وإدخاله إلى المستشفى إجبارياً لإنقاذ العضو، لأن العضو بحسب اقتناع الأطبّاء ملك المستشفى. ولكن حكم المحكمة يُجبر المستشفى على السماح له بالرجوع إلى منزله؛ فالخبراء يرون أنه وصل إلى مرحلة من النضج تسمح له بأن يقرر إن كان يريد أن يعيش أو يموت. ولكن المحكمة لا تجيب عن السؤال الخاص بملكية العضو المزروع. يواصل الفتى حياته بضعة أسابيع في منزله، ثم يموت. ويموت معه العضو.

(١) «أيتها العملة، أيتها العملة، ينبغي أن تجولي، من يد إلى يد»: أغنية يردّدها الأطفال خلال لعبة مشهورة في ألمانيا. (المترجم)

أحكي لـ «ب» عن مقابلاتي المُتَخيَّلة مع المُتَبرِّعة، أنني أحلم بها، أنني أتصوّرها فنلندية أو نمساوية، أنني أتوهّم قصّة حبّ أوروبية، لأنني لا أعرف شيئاً عنها.

عندئذ يروي لي كيف كان الأطبّاء خلال الفترة الأولى في طب نقل الأعضاء يتعاملون بسخاء مع أسماء المتبرّعين وبياناتهم. ثمّة صور للمتبرعين الأوائل، مطبوعة إلى جوار صور متلقي الأعضاء الأوائل. كانوا يقولون لأنفسهم: لماذا لا يتصل مُستقبِل الأعضاء بعائلة المُتَبرِّع؟ ربما استطاع الجانب الأول أن يعرب عن شكره وامتنانه، وربّما حصل الجانب الثاني على العزاء والسلوى. نعم، ومن المحتمل أيضاً ألّا يكون الجراحون الذين أجروا عمليات زرع الأعضاء الأولى قد فكّروا في الأمر بإمعان.

رغم أن من السهل تخيّل ما يمكن أن يحدث عندما يقرع مُستقبِل العضو جرس باب منزل ويقول: صباح الخير، أودّ أن أعرب عن شكري لقلب زوجك الراحل. لقد حصلت على قلبه، تصرخ الأرملة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بيته ربّما؟ ماله؟ أتريد بقيّة حياته؟ أتريدني أنا أيضاً؟ لا أسامحك أبداً، لا أسامحك على بقائك حيّاً، تزأر أنثى الأسد.

أو فلنسأل بصور معاكسة: هل سأكون متحمّساً إذا انفتح باب غرفة المستشفى وظهر زوجك فجأة عند فراشي؟ والدتك، طفلك الباكي، أخوك، عشيقك؟ ماذا سينتظرون منّي؟ وهل يُسمح لي، بل هل ينبغي لي أن أبوح لهم بأنكِ ما زلت هنا، تواصلين الحياة داخلي؟

وهل أريد أن أحصل على رسالة من غريب يروي لي فيها كم هي جميلة حياته الجديدة، حياته بقلب أو رئة أو كبد زوجتي المتوفاة؟

الأفضل ألّا يحدث هذا.

١٥٥

تلوّح الشجرة أمام النافذة بأغصانها. هل تلوّح لي؟ هل ينبغي لي المجيء؟

١٥٦

كان من الممكن أيضاً ألا ألتقيك، بل ألتقي شخصاً آخر. آنذاك، في تلك الليلة الشتوية، قُبَيْل الرابعة فجراً، عندما اتصلوا بي ولم أكن مستعداً لأنّني لم أكن أريد إيقاظ الطفلة. كانت الليلة الفاصلة بين الجمعة والسبت، الشوارع متجمّدة، وأظنّ أن حادثة السيّارة كانت وخيمة العواقب.

١٥٧

والآن، ما المدّة الباقية؟ الأيام المقبلة؟ عام؟ أربعة؟ خمسة، سبعة؟ عشرة؟ اثنا عشر عاماً؟ لا نريد أن نكون طمّاعين من الآن. الوقت يمر، إنه يمضي ببساطة.

١٥٨

أستيقظ، وفجأة لا أعود أعرف ما حدث. هل ستُجرى العملية لي،

أم أنها أُجريت؟ أضع كفّي اليمنى مبسوطة فوق القفص الصدري وأحرّكها ببطء تجاه السرّة، تمضي اليد في رحلة استكشاف المجهول، لا تعرف ما ينتظرها، تجول جنوباً في اتجاه السرة، تتحسّس طريقها، وسرعان ما تصل فرقة الاستطلاع في صورة أنملة الخنصر والبنصر إلى مشارف الهضبة المرتفعة تحت القفص الصدري بقليل، تتحسّس الأنامل البروز الذي يتفرّع قبل السرة بقليل. تكوين غريب، أقول لنفسي، سلسلة جبلية تحيط ببطني. عندئذ أعرف أنهم أجروا لي العملية.

١٥٩

وماذا تفعل أمي هنا عند الفراش، في قلب الليل؟ ألم تمت من سنوات طويلة، حتى وإن كنت أنسى ذلك بين الحين والآخر؟ كلا، ليست أمي التي تجلس، لا بدّ من أنها ممثلة تشبهها قليلاً، إنها تشبه أمي قبل ربع قرن، ولهذا السبب وحده لا يمكن أن تكون أمي، وإلّا فإنها لم تكبر على الإطلاق. تجلس السيدة وتقول إنها تلاحظ أنني مستيقظ، تقول «مرحباً»، وتسألني عن حالتي. حالتي جيدة، شكراً، لا شيء يدعوني إلى الشكوى. وحضرتِك؟

١٦٠

ينفتح الباب في الحائط وينغلق. أمّي وجدتي وريبيكا وموتى آخرون يلقون نظرة على الداخل. كيف عرفوا أنني أرقد هنا؟ كيف عرفوا أنّني لا أزال حيّاً؟

أثناء النهار لا يأتي أحد عبر الباب أبداً، لا وجود للباب مطلقاً أثناء النهار، لا ينفتح إلا ليلاً.

ذات مرة أنهض وأريد أن أعبر أنا نفسي من هذا الباب، ولكن ثمّة ثلاثة أبواب أخرى خلفه، وعندما أفتح الباب الأيسر أجد خلفه ثلاثة أبواب أخرى، وخلف الأيسر منها ثلاثة أبواب أخرى، وهكذا دواليك. إلى أين سأصل؟ وكيف العودة؟

١٦١

وهل كان أبي هنا منذ برهة؟ هل أحضر لي التلفاز إلى المستشفى؟ هل أنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وأشاهد سفينة الفضاء تنفجر؟ أليس من المفروض أن يكون راقداً هنا، مريضاً، عجوزاً وضعيفاً؟ أوليس من المفروض أن أقف أنا على حافة الفراش متمتعاً بالصحّة ومتمنياً له السلامة؟ لماذا أرقد أنا هنا، لا هو؟ هل تحتم علينا تبادل الأدوار؟ لا أودّ أن أعترف بذلك، ولكن، بصراحة، أشعر بالغيظ لأنه يبدو في صحّة جيدة.

ساعة يده موضوعة على الكومودينة. ثمنها تسعون ماركاً، عام ١٩٥٥. ثمّة حكايتان لهذه الساعة. في الحكاية الأولى، هي الساعة التي أهداها إليه إشبينه، خاله، بمناسبة حفل تثبيت الأسرار الكنسية. وفي الحكاية الثانية، حكاية المعجزة الاقتصادية، اشترى هو الساعة بأول نقود كسبها بنفسه. حسب زعمه، اشتغل وكان شغله مُرهِقاً في ورشة بناء أربعة أسابيع من إجازته الصيفية. كان يحمل الأحجار،

وكان يشعر بالإنهاك الشديد في نهاية كل يوم عمل، إلى درجة أنه لم يكن يستطيع السير مستقيماً.

في منتصف الثمانينات توقف عن وضع ساعة اليد التي تؤخر الوقت قليلاً في بعض الأحيان، وهو أمر لا يزعجني. كما أن قدرة عقرب الثواني على مقاومة الجاذبية الأرضية والوصول إلى رقم ١٢ تتوقف على وضع ذراعي. وعلى الجانب الآخر يسقط العقرب إلى أسفل. عندئذ يبدو أن الزمن يسير على نحو أسرع.

١٦٢

فجأة يظهر طفل في الغرفة، في قلب الليل، صبيّ لا أعرفه مطلقاً رغم أنه يقول لي بابا. منذ متى لديّ ابن؟ ولماذا يزورني منتصف الليل؟ أليس من المفروض أن يكون نائماً؟ هل أنجبنا هذا الطفل؟ لا أرى أثراً لأمّه.

١٦٣

أستيقظ وأشعر بالسرور لأنّني لا أزال حيّاً. أشعر بسرور بالغ وكأنني لم أعد أتوقع استمراري في الحياة، أشعر بسرور لا يُصدّق. لأنني لا أزال على قيد الحياة فحسب؟ أعرف هذه البهجة الصباحية. ابنتي تستيقظ أحياناً على هذه الحالة، تضحك وتكون سعيدة لأنها تحيا. لا يزال في مقدورها الشعور بالبهجة، إذ لم يمضِ وقت طويل عليها في هذا العالم.

أتدحرج ناهضاً من الفراش، ويدي تمسك بالكيسين. ألقي

المعطف الصباحي فوقي، وأمشي مترنّحاً في الممر. كانت أمّي ستقول الآن بالتأكيد: ارفع قدمك عالياً؛ غير أنني أجرجر قدميّ حتى أصل إلى العربة التي تحمل الصواني وفوقها أوعية الترموس. أتناول فنجاناً، أو بالأحرى كوباً، وأصبّ لنفسي قهوة. طعم القهوة هنا ليس سيّئاً على الإطلاق، بل إن طعمه جيد في فمي. كل صباح أجد طعمه أفضل. ليس صحيحاً أن طعم قهوة المستشفيات ـ وهي قهوة مُصفاة، حمضية بعض الشيء، وليست قوية جداً ـ طعم سيّئ. في المساء، قُبَيْل الاستغراق في النوم كثيراً ما أفكّر، في الرشفة الأولى في الصباح التالي، وأحياناً تكون بهجتي المتطلِّعة كبيرة جدّاً، إلى درجة أنني لا أستغرق في النوم.

في طريق العودة من عند عربة الصواني، أمسك بكوب القهوة كأنني قسّ يمسك بالكأس خلال طقس التناول الكنسي. حالتي جيدة للغاية. لقد استولت عليّ الحماسة التي تولّدها القهوة، رغم أنّني لم أحتس سوى رشفة بسيطة حتى لا يقع مني شيء خلال توجهي إلى الغرفة. القهوة مشروب سحري، يحوّلني من حالة إلى أخرى، ينشطني. أودّ الآن أن أبدأ بهذه الرسالة. أريد فجأة كتابة رسالة الشكر هذه. يبدو لي فجأة أن كتابة رسالة كهذه أمر هيّن، لا بدّ أنها ستُكتب من تلقاء ذاتها. أنتِ أفضل مَن يعرف ما تودّين قوله للأقارب الأعزاء. ليس عليّ سوى الإمساك بالقلم، ثم تكتبين أنتِ ما تريدينه. أجلس على سريري في الغرفة، وأفتح الدفتر ذا الأوراق المسطّرة بالمربّعات، وأمسك بقلم الحبر، قلم جديد، اشتريته من

مكتبة، غير بعيدة عن المدخل الرئيسي، وأضعه على الصفحة. ولكن لا شيء يحدث. هل احتضرتِ ولم تعودي تستطيعين الكتابة؟ أم لم تعودي تريدين، لم أعد أريد؟ أحتسي رشفة أخرى من القهوة، ولكنّ الحماسة كانت قد تبخرت.

١٦٤

كل الراقدين هنا يشعرون برغبة محمومة في سرد حكاياتهم. يملأون أذنيّ بثرثرتهم عمّا يسمّى القدر. يتحدثون ويتحدثون، من دون توقف. الشخص الوحيد الذي لا أسمع منه كلمة هو أنتِ.

١٦٥

فجأة يتضح لي أنكِ، على الأرجح، تواصلين الحياة داخل عدد من الأشخاص الآخرين أيضاً. لم أفكر في ذلك مطلقاً. لم أحصل عليك لنفسي فقط، حبيبتي، لستِ لي وحدي، أظن أن عليّ أن أتقاسمك مع مرضى آخرين، لديّ إخوة وأخوات في نقل الأعضاء، من دون أن أعلم أين هم.

نحن، الخمسة أو الستة الذين استقبلنا أعضاءك. يمكننا أن نصبح أصدقاء، القلب، الرئة، الكليتان، البنكرياس، وأنا: الكبد؛ من الممكن أن نتقابل دون أن يتعرّف بعضنا إلى بعض، وكيف لنا أن نتعارف؟ قد نكون في الوقت نفسه في المكان ذاته، في الحفل الموسيقي عينه، في السفينة نفسها، في الطائرة ذاتها. قد تسقط الطائرة بنا معاً، وننجو نحن وحدنا على جزيرة بعد أن يجرفنا

التيّار. ولكن هذه الحكاية أعرفها، لقد رأيت Lost، كلّ الحلقات، كما أعدت قراءة «روبنسون كروزو»، يا له من كتاب!

قد تقودنا يد غير مرئية، وقد نُحبس معاً في مكان ما، كلتا المرأتين اللتين حصلَتْ كل منهما على كلية، والرجل ذو الرئة الواحدة، وأنا: الكبد، والطفل الذي حصل على بنكرياس، والقلب الذي يخفق الآن في القفص الصدري لمؤرّخ فنّ في الرابعة والخمسين من العمر، ثم نكتشف شيئاً فشيئاً ما يربطنا. وبالمصادفة ـ ولكن، لا يمكن ولا يجوز للمصادفات أن تحدث ـ نجد أنفسنا مجتمعين معاً في عربة التلفريك نفسها، التي تتوقف عن التحرّك فوق هوّة سحيقة. بالمصادفة نظل محبوسين في مصعد أحد المطارات نفسه، ويتحمّل بعضنا بعضاً مرغمين ساعات عدّة. نعم، نعم، الجحيم هو الآخرون، زوّار المسرح يعرفون ذلك.

قد تكون طرق حياتنا قد تقاطعت قبل ذلك أيضاً، في المصايف، في مباريات كرة القدم، على إحدى المُعدّيات، في إحدى الإجازات الأُسَريَّة. نعم، يا لها من قصّة مبتذلة رائعة: إذا أضحت لدينا بعد عملية نقل الأعضاء فجأة ذاكرة أخرى، وماض آخر، إذا وجدنا أنفسنا نعرف فجأة أسراراً، نعرف المكان المخبّأة فيه الغنيمة، مخبأ الشخص الذي يجري البحث عنه، حل اللغز، نعم، وفجأة نصبح هدفاً للملاحقة، في العالم كله، لأن ثمّة آخرين يعلمون عِلمنا الجديد.

أو سيناريو آخر. اثنان أو ثلاثة من الإخوة في نقل الأعضاء يتقابلون في المصحّة نفسها، ليس هذا مستبعداً، وقد يكون حدث بالفعل. وقد يشي تاريخ العملية بالرباط السرّي.

١٦٦

جاري في الغرفة ـ منذ فترة طويلة لم أولِهِ انتباهاً، وهو ما أصبحت أنجح فيه في الآونة الأخيرة ـ يتحدث عن الكرة. نتبادل الحديث عن الموسم الجديد في الدوري الألماني الذي سيبدأ قريباً. هيرتا وبايرن وشالكه وكولونيا. لا يزال الحاضر حاضراً، أنسى ذلك أحياناً. نتبادل عبارات تقليدية، جملاً مكرّرة في أحاديث كرة القدم، جاهزة، قابلة للاستبدال، العبارات هي هي منذ سنوات، بضعة أسماء فحسب هي التي تغيّرت.

١٦٧

أجلس عند النافذة وأنظر إلى أسفل. تمرّ امرأة شقراء بجورب أسود ملتصق بالساق، ومعطف مفتوح بلون فاتح، وتنّورة قصيرة، وشعر مربوط إلى الخلف، وسمّاعة بيضاء على أذنها. على الفور أسأل نفسي، وهذا ما يصبح قريباً ردّ فعل انعكاسياً: هل كان شكلك هكذا؟ خطوة، خطوة، وخطوة أخرى. أتابعها بنظراتي، قد تشعر بأنها مُراقبة، تغيّر ضئيل في حركتها يبدو أنه يشير إلى ذلك، تدير رأسها قليلاً إلى الجانب، تنظر حولها، ثم تعبر الشارع.

حتى اليوم لم أفهم كيف يشعر الناس بأنهم مراقبون، ولا سيما من اتّجاه لا يقع في مجال نظرهم. هل للحدس رادار؟ جهاز استشعار لجزيئيات المراقبة؟ إن كان بمقدوري أن أرسل إليها رسالة، فسأبعث بها الآن إلى المرأة ذات المعطف الطويل الواقي من الغبار، وأقول

لها كم هي جميلة مشيتها، وكم يعجبني أن شعرها الذهبي الأشقر يشعّ بهاءً يصل إلى نافذتي. تنعطف حول الناصية، ولا أعود أراها.

هل كنت تضعين سمّاعتين على أذنيك؟ أيّ أغنية كنت تسمعين عندما قدت درّاجتك في الشارع المزدحم بالسيارات؟ وما هي الأغاني المئة التي تسمعينها كثيراً؟ وأغانيّ المفضّلة، هل هي الآن أغانيك أنتِ؟

١٦٨

ربما لم ينتبه سائق الشاحنة. صحيح أنه نظر في المرآة، لكنه لم يرك عندما كنت تقودين درّاجتك في الزاوية الميتة. هل كنت تودّين المضيّ في الاتجاه نفسه؟ هل انعطفت الشاحنة عندئذ؟ وأنتِ، كالمعتاد من دون خوذة؟ وهل كانت الخوذة ستفيد شيئاً؟ هل فقدت الوعي ولم تستعيديه مرة أخرى؟ هل كان في جيبك بطاقة التبرّع بالأعضاء، في محفظة نقودك، بين كل بطاقات الاشتراك في المكتبات، وصورك الشخصية، وإيصالات التسوّق، والبطاقات التي تحصلين بها على خفض على المشتريات؟ هل كنت في الطريق لشراء هديّة، كتابٍ لأختك؟ أيعقل أنك لم تربطي حزام الأمان؟ هل طرت مخترقة الزجاج الأمامي للسيارة؟ ألم يكن في السيارة التي كنتِ فيها وسادة هوائيّة؟ هل انقلبت السيّارة ثلاث مرات؟ أربع مرات؟

١٦٩

تخطر ببالي مرة أخرى هانيا والحادثة، التي وقعت قبل سنوات،

وأرى أمام عينيّ الآن كيف تسلقنا السيارة خارجين من النوافذ الجانبية المهشمة، ثم سرنا ببطء على أربع بين الزجاج المهشم على الشارع المبلط. تحوّل الزجاج الأمامي وزجاج الشبابيك إلى مكعبات زجاجية صغيرة، فتافيت من سكّر النبات كانت تتلألأ في ضوء القمر والمصابيح.

كنت قد اتصلت بها، وألححت عليها لتذهب معي إلى «أوبرا الدولة»، «ديدو وإنياس»[1]، رحلة إلى العالم السفلي. ليس لأنّني كنت أريد بأيّ ثمن مشاهدة أوبرا، بل لأنني كنت أريد رؤية هانيا. خلال العرض، كنا نجلس شبه متلاصقين. تلامست ركبتانا، ورحنا نثرثر في الاستراحة. قبل أن نعود إلى البيت احتسينا شيئاً في بار مؤقّت لم يعد له وجود في «تور-شتراسه»، ثم انطلقنا بسيّارتها البيجو شبه الجديدة. سلكنا شارع توخولسكي، ثم عبرنا نهر الشبريه. كنت بالمنظر المطل على متحف بوده، وفي الخلفية برج التلفاز وأمامه بروفيل وجهها. ثم اصطدمت سيّارة أخرى بنا في التقاطع خلف جسر إيبرت، من الجانب الذي أجلس فيه، المجاور للسائق. أوصلتنا سيارة إسعاف إلى مستشفى الشاريته. باستثناء الصدمة لم تكن هانيا تعاني من شيء، أما أنا فلم أعد أستطيع السير. انكسر عظم العجز.

قبل أيّام من الحادثة - حكت لي ذلك قُبَيْل الاصطدام بقليل - كان خاتم صديقها الذي يعيش في إيطاليا قد وقع منها في

---

(١) Dido and Aeneas للموسيقار هنري بورسيل Henry Purcell، أوبرا من ثلاثة فصول تدور أحداثها في قرطاج. عُرضت لأول مرة في لندن عام ١٦٨٨. (المترجم)

المرحاض. بعد الحادثة كانت تعودني كل يوم، وتتسوّق، وتطبخ، وتظلّ عندي ببساطة. ممارسة الجنس وحدها كانت معقدة، فبالكاد كنت أستطيع أن أتحرّك.

هل كان لديّ آنذاك بطاقة تبرّع بالأعضاء؟ لو متّ، فهل كان جرس الهاتف سيرنّ مرتين أو ثلاث مرات؟ بالتأكيد. كنت أعرف أن الوقت سيحين يوماً ما، ذات يوم سيكون اسمي على القائمة.

١٧٠

نقاهة، أنا أتعافى. أنام، وآكل، وأستقبل زيارات، من الأحياء، ومن الأموات. أجلس عند النافذة وأسمع الناي. ناي؟ من يعزف الناي في المستشفى؟

كنت أعزف أنا نفسي الناي ذات يوم، قبل وقت طويل، بل ما زال لديّ ناي، من الفضّة، عزمت مرات عدة على بيعه، لكنني لم أستطع في نهاية الأمر أن أفترق عنه. ما زلت أتذكر أنني عزفت عليه في المأتم الذي أقيم قبل دفن أمّي، قال لي أبي قبلها إنها تمنّت ذلك. سرت إلى الأمام، حامل النوت كان هناك، كانت النوتة مفتوحة ومثبّتة بالمشبك المعدني، زحزحت الحامل قليلاً، ثم ضبطتُ الارتفاع، ولففت الصامولة مثبّتاً إيّاه، ووضعت الناي على شفتي السفلى، ووضعت أناملي على الأزرار، وبدأت العزف. لم أعد أعرف ماذا عزفت، قطعة صولو من إحدى كرّاسات التمرين، معزوفة سهلة تمرنت عليها كثيراً جداً، لم يكن المهم إثبات قدرتي على العزف المنفرد، بل عزف الناي في حدّ ذاته. وكنت أفكر

آنذاك أنني في الحقيقة كنت أودّ تعلم العزف على الترومبيت لا الناي، وربما أيضاً الطبول، غير أنني بعد دروس تعلم الناي بدأت لسبب ما ـ هل ألحّت عليّ أمّي حتى أقنعتني؟ ـ عزف الناي، وبقيت أعزفه. كنت أعزف إذاً، وأصغي إلى عزفي، رأيت نفسي أقف في تلك القاعة الكنسية المبنيّة في الخمسينات، محملقاً في الفجوات التي تتخلّل البلاط. كانت الفجوات شكلاً معقداً، حروفاً وأشكالاً لم أستطع فك شيفرتها. كان بإمكاني في الحقيقة عزف المقطوعة عن ظهر قلب، ساعتئذ لن أكون بحاجة إلى حامل النوت. غير أنني أخطأت في العزف لاعتقادي خلال المقدمة الموسيقيّة أن والدتي موجودة بين الحاضرين في المأتم. هُيّئ لي أنها جالسة بين كل أولئك الناس الذين لم أكن أعرف أحداً منهم، وأنها تصغي إليّ مثلما كانت تصغي دائماً إلى عزفي في الحفلات الموسيقية المدرسية. هُيّئ لي أنها تتفرج من مكانها هناك، أو تلقي نظرة عليّ من مكان عالٍ للغاية. لم يخطر لي أن بإمكانها أن تراني وتصغي إليّ من التابوت الذي لم يكن يبعد إلا قليلاً عن يمين حامل النوت، لأن هذا الشيء الراقد في التابوت، كنت قد رأيت الجثمان، لم يكن له أدنى علاقة بها، المسجّى هناك كان دمية، لم تكن تبدو حقيقيّة، دمية شمعية صنعوها لمجرّد أن يرقد شيء في التابوت.

في ما بعد تعجّب أبي لأنني لم أعد أريد التمرّن على الناي، وأنني بُعَيد ذلك لم أعد أذهب إلى الدرس. رغم أنني في الحقيقة كنت أحب العزف في أوركسترا المدرسة.

١٧١

وكيف كانت جنازتك؟ لم يمرّ عليها وقت طويل بالتأكيد. يؤسفني أنني لم أحضرها.

١٧٢

في الأشهر الأولى التي مرّت على وفاة أمي، كنت أدّعي في المدرسة بين الحين والآخر أنني يجب أن أذهب إلى الطبيب. كنت آخذ الإذن ثم أذهب إلى المقابر، وأقف برهة عند القبر، وأسقي الأزهار، وأقتلع الأعشاب الضارة، وأرفع أوراق الشجر التي سقطت إلى جوار الصليب الخشبي المؤقت. لم أستطع أن أصدّق بَعد، أو أفهم، أن أمّي التي كانت قبل فترة قصيرة راقدة في المستشفى ممدّدةٌ الآن في هذه التربة المظلمة الرطبة. كلا، أمّي كانت في مكان آخر.

١٧٣

سمعت أن بعض الذين نقلت إليهم أعضاء بشريّة يذهبون إلى المدافن ويختارون مقبرة، أيّ مقبرة تعجبهم، مقبرة تحمل اسماً له وقع جميل على الأذن، اسماً منحوتاً في حجر جميل، ثم يضعون أزهاراً هناك. أو يجلسون هناك ببساطة. نعم، قد أفعل ذلك أنا أيضاً. سأختار متوفّاة. ليس عليّ سوى عبور «زيه ـ شتراسه». على الجانب الآخر يقع المدفن الكبير.

كنت أحب الذهاب إلى المدافن مع يوليا. زرنا معاً مدافن

كثيرة في برلين. في شتانسدورف، في «زودفست-كيرشهوف»، في «إنفاليدن-شتراسه»، في «زود-شترن»، في جزيرة شونيبرغ، في حي «فايسنزيه»، وتلك المقابر شبه المهدمة خلف متنزه فريدريشسهاين. كانت تكتشف دائماً مقابر جديدة، أظن أن هوايتها كانت جمع المدافن.

١٧٤

في الثالثة لديّ موعد في نهاية الممرّ. ولهذا، قبل الثانية والنصف بقليل، أرفع جسدي من الفراش. أعرف، أنا بطيء. أرتدي معطفاً جديداً واقياً من الجراثيم فوق قميصي، وأضع غطاء الرأس، وأدخل يدي في القفاز الأبيض، وأضع الكمامة على فمي، وأغادر الغرفة قرابة الثالثة إلّا ربعاً. ممرّ المستشفى، يا أيّها الممر، أنت الطريق العظيم بالنسبة إلي. أجرجر قدميّ، أيّ سلحفاة ستكون أسرع منّي، وأمرّ بالعربة وعليها أباريق القهوة والشاي والحليب، وكذلك صحنا تحلية بقيا من الغداء، كتلة صفراء في صحن بلاستيكي، سطحها الجاف كان مُغضّناً كبشرة عجوز. أجرجر قدميّ ماراً بالركن الذي يضمّ مطفأة الحريق، وبالغرفة التي بها الميزان، أمرّ بباب غرفة الممرّضات وبالصندوق الزجاجي حيث تجلس ممرّضة الاستقبال. قد يكون هنا الفندق الذي أقيم فيه، فندق النقاهة في الجبال، مصحّتي في الطابق السادس. أنعطف حول الناصية، لم يبق سوى أربعين متراً، أو خمسين على أقصى تقدير، حتى نهاية الممرّ، ولكن الممرّ ازداد طولاً، هكذا أتوهّم. جزء من الموعد يمثّله نجاحي في

الوصول إلى نهاية الممرّ، للأسف ليس موعدي غرامياً، بل موعد علاج طبيعي. لقد أجهدت فكري بلا طائل لأعرف إن كان من الممكن أن أتبادل القبل بالرغم من كمامة الفم والأنف.

بضعة مقاعد تشكل دائرة، خمسة أشخاص يجلسون عليها، رجل يحمل معه جهازَ أكسجين صغيراً. الهواء في الغرفة خانق، ولكن إذا ظل الشباك مفتوحاً، يتولّد تيّار هوائي، والتيّار سيّئ، لذلك يُغلق الشباك ثانية بعد جدل قصير. عدد من المرضى يضعون كمامات على أفواههم مثلي، أشعر بصعوبة في التنفس عبر الكمامة الشفافة. الجو حار، ولكن لا بدّ من الحركة، تقول متخصّصة العلاج الطبيعي. لديها عشرون، ربما اثنان وعشرون عاماً. منذ برهة باحت لنا بأنها تقود جلسة علاج طبيعي لأول مرة. علينا ونحن جالسون أن نرفع القدم اليسرى، ثم نحرّكها بشكل دائري. علينا ونحن جالسون أن نرفع القدم اليمنى، ثم نحرّكها بشكل دائري. علينا ونحن جالسون أن نمدّ القدمين، علينا أن ننهض، ثم نحرّك في البداية القدم اليمنى، ثم اليسرى بشكل دائري. علينا أن نصنع دوائر بذراعينا. سيّدة مسنّة تناهز السبعين، يمكنها أن تكون أمّي، لم تزرّر قميص نومها جيداً. رغماً عنّي، إذ لم أستطع إغماض عينيّ بالسرعة اللازمة، أرى القليل الذي بقي من جسدها، لم يبقَ شيء تقريباً، نعم، أتعجّب مِن أن جسداً ضئيلاً كهذا يمكنه أن يتحمّل قميص نوم. أكاد أظن أنها بالفعل شبح.



الشمس مشرقة. أجلس إلى جانب النافذة المفتوحة. ينفتح الباب،

ويدخل طبيب إلى الغرفة. يقول لي إن عليّ أن أبتعد عن الشمس. لماذا؟ نعم، نعم، احتمال الإصابة بسرطان الجلد يكون عالياً جدّاً لدى تناول مثبطات المناعة، أعلى من الأحوال العادية بنحو مئةٍ إلى مئةٍ وخمسين مرة. رائع! الشمس إذاً عدوّي الآن. ثمة إحصائيات تقول إن ثلث المنقول إليهم أعضاء بشرية يموتون بسرطان الجلد. في الحقيقة لا أريد أن أعرف ذلك. أقرأ في مقالة أخرى أن نصف مستقبلي الأعضاء البشرية يصابون خلال عشر سنوات بأورام خبيثة. يا له من مستقبل جميل! غير مسموح لي بعد اليوم بأن أتشمّس. رغم ذلك أشعر بالحرارة.

١٧٦

أحملك معي أينما ذهبت، أعرف أنك داخلي، أنت معي دائماً. أُفاجأ بين الحين والآخر إذا ظللت طوال نصف ساعة لا أفكر فيك. عندئذ أقول لنفسي على الفور: نعم، لم أعد الآن وحدي، لن أكون وحدي أبداً، أنت دائماً معي، مزروعة داخلي، مثبتة بالخياطة، تنمين معي، أنت قطعة منّي.

هل يبدو كلامي كشخص أشرق عليه الفهم؟ ألا يتحدث أقوياء الإيمان عن مسيحهم على هذا النحو؟ ألا يزعمون أنه دائماً معهم؟

ذات مرة، يخطر ببالي الآن، أدّت ابنتي الدور نفسه؛ فور ولادتها، ثم بعد ذلك بسنوات طويلة. في الأشهر الأولى كانت كل لحظة وكل فكرة خاصّة بالطفلة. في ما بعد، عندما بدأت الذهاب إلى روضة الأطفال كنت أقضي بين الحين والآخر ساعة أو أكثر من دون أن أفكر فيها.

تزورنا ابنة شقيق المريض في الغرفة المجاورة، تبلغ من العمر ثمانية أعوام تقريباً. سمعت أنّني حصلت على كبد جديدة، وجاءت لتسألني عن اسم الذي أخذت منه الكبد الجديدة. أقول لها إنني أيضاً أودّ أن أعرف اسمه، ولكنني لا أعرفه. وماذا يفعل الآن؟ هل حصل على كبدك؟ هل لديه الآن كبدك؟

تعجبني الفكرة، أن يكون نقل الأعضاء كتبادل الهدايا، عضو مقابل آخر. أفضّل ألا أشرح للفتاة كيف كانت كبدي تالفة، لا أريد أن أقول لها إنها لم تكن تصلح لأيّ شخص، ولم تكن ستسعد أيّ إنسان.

ولكن، أين كبدك الآن؟ تلحّ الفتاة التي تريد أن تعرف كل شيء بدقة. لا أجد مفرّاً من القول: لم يكن أحد يريد الحصول عليها. لقد قطّعوها، وفحصوها، ثم تخلصوا منها على الأرجح. أقول «تخلصوا» وأقصد «رموا»، ربما حُرقت مع نفايات المستشفى الأخرى، والمستشفى مزوّد بمنشأة خاصّة لحرق القمامة، لا بدّ من أن لديهم منشأة كهذه.

سؤال الفتاة يجعلني أفكر لأول مرة في كبدي، الأصلية، الكبد الأولى. كنت أحملها معي طوال أربعة وثلاثين، خمسة وثلاثين، ستة وثلاثين عاماً تقريباً، في كل مكان، وطوال هذه الفترة كانت تعمل، عموماً، على نحو جيد من أجلي. والآن لم أعد أفكر فيها إطلاقاً.

قبل ذلك، نعم. قبل ذلك كنت أعتزم أن أراها بعد العملية، كنت أريد أن أحتفظ بها، أضعها في مادّة حافظة، وربما أدفنها، في

التراب. ثم انتهى بها الأمر في قسم الباثولوجيا، ولم أسأل عنها ثانية. هل أفتقدك، يا قطعة اللحم العتيقة؟

يقول «ب»: لا بدّ من أنها تبدو كثمرة بطاطا كبيرة ومتجعّدة للغاية. لم أعد أريد معرفة شيء عن ذلك.

## ١٧٨

ثمّة حكاية عن مريض أُجريت له عملية زرع قلب، فكان يسمع قلبه القديم، الأصلي، يخفق كل ليلة تحت سريره في المستشفى. أو كان يظنّ أنه يسمعه. كان خوفه من قلبه القديم عظيماً إلى درجة أنه لم يعد يريد الذهاب إلى الفراش أو الرقاد على السرير. وإذا اضطجع مرّة على السرير، وجد نفسه مضطراً إلى النهوض المرة بعد الأخرى ليلقي نظرة تحت فراشه ليعرف إن كان قلبه يخفق هناك، إذ إنه كان يسمعه يدق. وفي النهاية كان ينتقل إلى الغرفة المشتركة، وينام هناك على إحدى الكنبات. هل قرأ قصة «القلب الثرثار»(١) لإدغار آلن بو؟ يا لسروري لأنني لا أسمع بين الحين والآخر سوى وقوقة بطة لا أستطيع فهمها في أي حال.

## ١٧٩

ما العضو؟ ما الذي يُنتزع من جسد شخص ليُزرع في جسد آخر؟ وفق تعريف قديم لتوما الأكويني، فإن ثمّة فرقاً بين الأعضاء والأدوات. ففي حين أن وجود الأدوات، البلطة على سبيل المثال، ليس مرتبطاً

---

(١) The Tell-Tale Heart

بروح محدّدة، فإن العضو، unitum et proprium، لا يفيد سوى روح واحدة. هذا هو المكتوب تقريباً في «المعجم التاريخي للفلسفة»، الجزء السادس، تحت كلمة «عضو». أستطيع قراءة ذلك على شاشة هاتفي، حتى هنا في المستشفى.

حتى يتحوّل عضو منقول إلى أداة أكوينية لا تخدم روحاً واحدة فحسب، بل أرواحاً، أو نُظم مناعة، عديدة مختلفة متعاقبة، فلا بدّ من الاحتيال عليه. وهذا ما يحدث بنجاح، باستخدام مثبطات المناعة التي أتناولها كل يوم، صباحاً ومساءً، كبسولات لا طعم لها.

تتسم الأعضاء بالاستقلالية والتبعية في الوقت نفسه. لا يمكنها أن تكون وحدها ولنفسها، غير أن لها حياتها المستقلة، ولكنها لا تعيشها إلا داخل كيان حيّ. حياة الأعضاء، vita propia، مُستعارة فحسب، لذلك قال شيلينغ إن الأعضاء أفراد لا تظهر فرديتهم إلا بالتبعية لكيان حيّ كلي، أو من خلال العلاقة معه. فإذا فُصل عضو عن الكيان الحيّ، يموت العضو؛ ويموت الكيان أيضاً. الأمر سهل للغاية: من دون كبد أموت، ومن دوني تموت الكبد.

إذاً، فإن هذا الذي أشعر به، هذه الحياة التي تمتد أمامي، هي علاقة تناغمية بين عدة أعضاء. كل ما هو حيّ لا يظهر كعضو مفرد، بل يظهر دائماً في صورة مجموعة. الحياة هي اجتماع مهجّن بين أعضاء مختلفة، عيادة طبية مشتركة، كونسير، يودّ كل عضو فيه أن يبقى على قيد الحياة[1].

(١) انظر: Katrin Slohdju: Interessierte Milieus. Oder: die experimentelle Konstruktion "überlebender" Organe. Wien 2010.

١٨٠

في الليل، النافذة مفتوحة، أسمع في الخارج أمواج البحر، وفي حفيف أوراق الشجرة أسمع ارتطام الأمواج بالصخور.

١٨١

خلال تصفّح الجريدة أنزع صورة امرأة مطبوعة فوق نعي. أقرأ أنها تُوفيت الأسبوع الماضي. لأنني أعرف أنها مُتوفاة، يُهيّأ لي أنها تنظر الآن نظرة مختلفة بشكل ما.

١٨٢

عندما زرتُ أمّي المرة الأخيرة مع أبي، في يوم أحد، كنت أحمل الكاميرا معي، كاميرا ثقيلة مصنوعة من المعدن، مينولتا SRT 101، كاميرا عاكسة أحادية العدسة. التقطتُ صوراً للمستشفى من الخارج، أحجار الشارع، الخطوط البيضاء في موقف السيارات، كما صوّرت مقابض الأبواب وممرّ المستشفى من الداخل، ولكنني لم أصوّر أمي، لم تخطر ببالي هذه الفكرة. باستخدام صورتين شاحبتين وغير واضحتي المعالم استطعت أن أحدّد نافذة غرفتها، كانت في الطابق الرابع أو الخامس.

كانت ترقد هناك على فروة خروف، لأن فروة الخروف تجعل الرقدة أكثر راحة. هكذا قالوا في قسم الأونكولوجيا من ذلك

المستشفى الأنثروبوسوفي[1]. لم أكن بالتأكيد أعرف آنذاك معنى كلمة «أونكولوجيا». ولكنني ما زلت أتذكر أنها سألتني أن أحكي لها شيئاً، ولكنني لم أعرف ماذا أحكي لها، وهل لديّ ما أحكيه؟ من الاثنين إلى الجمعة كنت أذهب إلى المدرسة، وربما ذهبت أيضاً في اليوم السابق للزيارة، أي يوم السبت. فقد كنّا نذهب إلى المدرسة يوم السبت كل أسبوعين، ومن المحتمل أن أكون كتبت بحثاً مدرسياً، أو إملاءً بالألمانية، أو درست اللاتينية. بعد الظهر كنت أذاكر دروسي في البيت، وربما كنت أشاهد قبلها أو بعدها فِلماً أو فيلمين، في الطابق الأرضي، في غرفة المعيشة. أفلام كنت أَستعيرها من أصدقاء أو أكون سجّلتها في الليل قبل ذلك. فقد كان من الممكن برمجة جهاز الفيديو. أجهزة الفيديو كانت حديثة جداً، وأيضاً فكرة مشاهدة الأفلام في البيت، متى يحلو لك، بمعزل عن برنامج التلفزيون، وبمعزل عن قنوات التلفزيون الثلاث فقط التي كانت في أي حال لا تعرض شيئاً في فترة العصر. وقد أكون ـ وإنْ كان من غير المرجّح ـ تدربت على الناي، أو ذهبت إلى المدينة، إلى المكتبة العامة، مَن يعرف؟ وقضيت المساء في القراءة أو مشاهدة التلفزيون، أو ـ وكانت هذه تسلية جديدة ـ مع ألعاب الكمبيوتر؛ كان الجهاز في غرفة مكتب أمّي، ولم تعد تستخدمه، ولن تستخدمه في ما بعد. فضّلت ألا أبوح لها بأيّ شيء عن ألعاب الكمبيوتر التي كنت أكتب

(١) قسم الأونكولوجيا هو «قسم الأورام». أما كلمة «أنثروبوسوفيا» فتعني «حكمة إنسانية»، وهو علم أسسه النمساوي ردولف شتاينر (١٨٦١-١٩٢٥). ويرى الطب الأنثروبوسوفي أن المرض يرجع إلى خلل في التوازن بين جسد الإنسان وروحه، ولهذا فإن هدف هذا الطب هو إعادة التوازن إلى حياة الإنسان. (المترجم)

برامجها بعناء من قائمة مطبوعة بالكمبيوتر، ثم أسجّلها على شريط كاسيت ـ العصر الحجري لأجهزة الكمبيوتر المنزلية ـ كنت أعرف أنها ستعتبر مثل هذه الألعاب إهداراً للوقت. ربما أخبرتها بأنّني يوم الاثنين، مثل كل يوم اثنين، كنت في مختبر التصوير بالمدرسة، وحمّضت صوراً، أي إنني استنسخت صوراً، بالأبيض والأسود والرمادي، لأنني لم أفهم آنذاك الاستخدام الصحيح للحاجز الضوئي والإضاءة. وربما عرضت عليها إحدى صوري «النيجاتيف»: خيوط متكسرة في طبقة الأسفلت، حفرة صغيرة جفّ ماؤها، رسوم بالطين، سطح المياه، كانت كلها تقريباً لقطات من قريب. غير أنني لم أنظر إلى أمي. لم أر، أو لم أكن أريد أن أرى، كم كانت حالتها سيئة، ولم أدرك أيضاً أن هذه زيارة الوداع، أو لم أكن أريد أن أدرك ذلك؛ بل لم يخطر ببالي قط ـ كنت آنذاك في الثانية عشرة، أو في الثالثة عشرة تقريباً ـ أنها قد تموت، رغم أنني كنت أعلم أنها نظرياً، ولكن نظرياً فقط، قد لا تتغلب على مرضها.

والآن، ها هي ترقد هنا، على الأقلّ ليلاً. وهي لم تمت تماماً، أبداً. الأمّهات يبقين، دائماً.

## ١٨٣

قبل وفاتها بعام، وبعد علاج كيميائي حسبتْ معه أنها تغلبت على المرض، راحت أمّي تُجري إصلاحات في البيت. في الطابق الأرضي أمرت العمّال في البداية أن يفتحوا غرفة السفرة على المطبخ، ثم يصلوا غرفة الموسيقى بغرفة المعيشة جاعلين منهما غرفة واحدة، وأخيراً أن

يوسّعوا النوافذ المطلة على الحديقة. فهُدم السور المنخفض الذي ينتهي بحافة الشباك التي وُضعَتْ عليها أصص الزهور، ثم رُكّبت نوافذ بانورامية تصل حتى الأرض. أعجبني كيف كان عمّال البناء يعيثون فساداً بآلة الحفر التي تعمل بالهواء المضغوط. كان ينبغي لمنزلنا أن يغدو أوسع وأكثر رحابة وانفتاحاً. لم تعد أمّي تريد أبواباً، وطُلي كل شيء بالأبيض. كانت تنهض من فراشها بمجرد دخول الحرفيين المنزل.

١٨٤

في اليوم الذي توفيت فيه، كان يوم اثنين، عدت من المدرسة إلى البيت وكنت أريد أن أحكي لها شيئاً. فجأة كان لديّ ما أحكيه، شيء لا بدّ من أن تعرفه. اتّصلت برقمها في المستشفى، الرقم الذي كنت أحفظه غيباً، لأنني طلبته كثيراً على قرص هاتفنا في الأسابيع الأخيرة، وسمعت صوت الجرس، ثم صوتاً غريباً قال لي إن أمي نُقلت إلى غرفة أخرى. هكذا كان الردّ في أيّ حال.

أحضر أبي معه فروة الخروف مرة أخرى. في ما بعد كانت مفروشة ـ ولا أعرف لماذا ـ على الأرض في غرفتي، وأحياناً على سريري أيضاً.

فرشنا عربة الأطفال، عربة الابنة، بفروة حَمَل أيضاً.

١٨٥

اليوم يعودني الأطبّاء، العيادة الكبيرة، لا بدّ أنه يوم الاثنين. يتوافد

الأطبّاء بعد السابعة بقليل، يوقظونني، فأرى معهم ثلاث طالبات. أدعك عينيّ طارداً النوم منهما، وأنظر إلى الأحذية تحت البنطلونات والمعاطف البيضاء، قطعة من الحياة الخاصّة: تنتعل طالبتان أحذية رياضية، الثالثة، شقراء، تنتعل «باليرينا» وردية اللون. طبيب القسم ينتعل حذاءً ذا نعل جلدي، ربّما صُنع يدويّاً، طبيبة تنتعل صندلاً ماركة «بيركنشتوك»، رئيس الأطبّاء ـ لا أصدق عيني ـ يقف أمامي منتعلاً حذاءً جلدياً خفيفاً أبيض اللون. مرحباً، هل أنت رولف إيدن؟ هل أجرى لي العملية رجل ينتعل حذاءً كهذا؟

في ما بعد، أنجح مرة أخرى في السير حتى الميزان، أتأمّل «شباشب» المرضى معي: شباشب مفتوحة، شباشب ذات الإصبع، بنتوفلي، أحذية من الكاوتش مزوّدة بخروم للتهوئة، أحذية رياضية. أرى كل الأنواع ما عدا الخف ذا الرقبة المبطن من الداخل.



قبل وفاة أمي بشهرين أو ثلاثة، قتلت أقربُ الصديقات إليها نفسَها وابنُها البالغ من العمر سبعة أعوام. كانت تسمّي نفسها روت، رغم أن والديها كانا قد اختارا لها اسم غرترود عام ١٩٤٢، عندما كانت ألمانيا لا تزال مملكة عظمى. المنزل الذي سكنت فيه، وهو مبنى جديد يدعو إلى التباهي بعض الشيء، بُني مكان فيلا قديمة، كان يقع بجوارنا، سور منخفض من الخرسانة كان يفصل بين حديقة المنزل والرصيف. قادت سيّارتها الرينو R4 إلى المرأب، وتركت المحرّك دائراً، ثم أغلقت بالمفتاح الباب الذي يقود من المرأب إلى

المنزل، وأغلقت أيضاً بوابة المرأب. كان خزّان الوقود ممتلئاً. يُقال إن المحرك كان دائراً عندما عُثر عليها؛ ولكن من المحتمل ألا يكون هذا صحيحاً على الإطلاق. فالمحرّك لن يجد أكسجيناً للاحتراق بعد وقت ما، فيختنق في النهاية أيضاً. ابنها، هارون بنيامين ـ يبدو أن اسمه اليهودي لم يكفها كتعويض ـ كان يجلس على كرسيّ الأطفال في المقعد الخلفي مربوطاً بالحزام.

بسيارة رينو R4 أخرى سافَرتُ مع أمّي ذات مرة إلى كابول، لا بدّ من أن ذلك كان عام ١٩٧٥ أو ١٩٧٦؛ وبقيت أنا آنذاك عند جدتي. وهذه المرأة، وهي طبيبة لديها عيادة خاصّة، لم يخطر ببالها شيء أفضل من أن تقتل طفلها وتقتل نفسها بهذه الطريقة! بدافع من اليأس السياسي، هكذا كتبت في رسالة الوداع، كانت تخشى أن يستولي النازيون مرة أخرى على السلطة، وأن يبدأ الأميركان حرباً نووية، وأن تسبّب مفاعلات ذرّية تلويث الأرض كلها بالإشعاعات، وخوفاً من موت الغابات وتدمير البيئة إلخ، إلخ، إنها لا ترى مستقبلاً، وكل هذا الهراء البلاغي.

كانت قد خلطت لابنها في الأكل حبوباً منوّمة، ثم وضعته في السيارة، ودارت بالسيّارة دورة حتى نعس، ثم ابتلعت الحبوب المنومة وشربت ما يكفي معها، ثم قادت السيارة إلى المرأب المزدوج ذي السقف المائل، حيث كان اللوحان الخشبيان اللذان كان زوجها يستعملهما لركوب الأمواج معلقين تحت السقف. أغلقت باب المرأب بجهاز التحكم عن بعد، ووضعت حشوة أمام فتحات التهوئة، ثم أنزلت زجاج نوافذ السيارة، وتركت المحرّك دائراً.

ربّما يحتمل أن كلّ هذه المعاناة الناجمة عن انسداد الآفاق السياسية والإيكولوجية لم تكن سوى ذريعة، لأن السبب الحقيقي كان زوجها الذي كان قد تعرّف قبل وقت طويل إلى صديقة، وكان ينوي أن يهجرها. في أي حال، أعلم منذئذ لماذا يلصقون لافتات صفراء في المرائب الجديدة يكتبون عليها: «انتبه! لا بدّ من إيقاف المحرّك وإلّا تعرّضت للاختناق!».

١٨٧

تُوزع الحبوب المنومة بكثرة في المستشفى، وتؤخذ بكثرة، ليلة طيّبة. أطلب إليهم كل مساء قرصاً منوّماً، ولكن، بدلاً من أن أتناوله، أضعه مع الأقراص الأخرى في درج الكومودينة الخاصّة بي. ممنوع هذا بالطبع منعاً باتاً.

١٨٨

في إحدى الليالي أستيقظ شاعراً بالسعادة فجأة. يفاجئني شخصياً مقدار سعادتي. وفجأة أكتشف مرة أخرى أن ثمّة أشياء كثيرة للغاية خارج المستشفى. هناك الطفلة التي لا تزال تحتاج إليّ عدة سنوات، وثمّة أشياء كثيرة يمكن رؤيتها، فعلها، قراءتها، ثمّة الكثير من الحياة. كلّ شيء أمامك، أليس كذلك؟ أليس كلّ شيء في انتظار أن يُعمل، ويُفعل، ويُقتَحم، في انتظار أن يَكتمل؟ بعد عدّة ساعات، في الصباح التالي عقب الفطور تتبخر النشوة. ما قبل الظهر أسوأ الفترات. المحلول المعلّق بيدي يَقطُر. لا أسمعه، لكنّني

أراه يقطر. الحامل الذي تُعلّق به الزجاجة يُسمّى في المستشفى مشنقة.

١٨٩

ثم يحدث ألا أتمكن مرة ثانية من المشي من السرير حتى الحمام. انتكاسات صغيرة. الممرّضة، ألطفهن وأجملهن في الوقت نفسه، تغسل لي ظهري، تغسله بمنشفة صغيرة دافئة، تبلّها عدّة مرات في وعاء به ماء وبضع قطرات من الصابون السائل، لفترة طويلة لن أتمكّن من الاستحمام. ليس فقط لأنني لا أستطيع السير حتى الحمّام، بل لوجود هذا البروز على بطني أيضاً، خياطة الندبة الهائلة، كما أن الأنابيب البلاستيكية الشفافة معلقة ببطني.

١٩٠

ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد. في الماضي ظللت فترة طويلة أيضاً لا أستحمّ. في الشقة الواقعة في حيّ شونيبرغ لم يكن هناك حمّام. ولكن كانت هناك على الأقل ـ وهو ما لم يكن شيئاً بديهياً في كل المنازل ـ دورة مياه داخل الشقة. لكي أستحمّ كنت أقف إلى جانب حوض المطبخ في بانيو صغير من البلاستيك، وأغتسل بمنشفة صغيرة. بعد ذلك، كنت أضع وعاء الاستحمام في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمطبخ. في البداية كنت أذهب مرتين أسبوعيّاً إلى حمام السباحة، ثم رحت أقلّل من مرات ذهابي. وفي نهاية المطاف لم أعد أذهب على الإطلاق، لأن الجدات والأجداد كانوا

يضايقونني عندما يمارسون سباحتهم المحمومة العمياء في المياه الدافئة أكثر من اللزوم، أو عندما لا يكترثون لأحد، أو عندما كانوا يفعلون الأمرين معاً. أو ربما كنت كسولاً إلى درجة عدم القدرة على النهوض في الصباح الباكر للذهاب إلى حمام السباحة، ثم العودة لأنطلق بعدها مباشرة إلى الجامعة. البديل كان الذهاب من حمام السباحة إلى الجامعة مباشرة، وهو بديل مرفوض، إذ لم تكن لديّ رغبة في البقاء طوال اليوم أحمل في المدينة حقيبة بها لوازم السباحة المبلولة. فإن سألني أحد: كيف أتحمّل الحياة في شقتي من دون حمّام أو مرشّ أو بانيو ـ وهي أسئلة كانت توجّه إليّ غالباً من الزائرين الألمان الغربيين، المدللين مثلما كنتُ يوماً، الذين لا يستطيعون أبداً تخيّل الحياة من دون حمّام أو تدفئة مركزية ـ كنت أحكي عن ذهابي إلى حمّام السباحة، رغم توقفي تماماً عن ذلك.

بين الحين والآخر كنت أستحمّ في مكان آخر، عند الغرباء، هكذا كنت أقول آنذاك[1]. وذات يوم دعتني إحدى صديقات ريبيكا التي كانت تعرف وضعي السكني لكي أستحمّ مرةً عندها. كانت تسكن في شقة من غرفة ونصف غرفة في «أبوستل ـ باولوس ـ شتراسه»، ولم تكن لديها تدفئة مركزية. ولكن في المقابل كانت لديها كابينة للاستحمام في المطبخ. جلسنا طويلاً في المطبخ، على المائدة فطائر وعنب. لم أعد أعرف عن أيّ شيء تحدّثنا. ليس من المحتمل أن نكون تكلمنا عن حكاية ريبيكا الصعبة. وقرابة المساء

(١) التعبير الألماني fremdduschen يحيل إلى تعبير آخر هو fremdgehen، ويُقصد به أن يخون رجل زوجته مع امرأة أخرى، أو العكس. (المترجم)

نهضَتْ وسألتني هل أريد الاستحمام الآن، ثم قالت: أنا ذاهبة إلى غرفة النوم، وهو ما بدا لي كأنها تقول «سأنتظرك في غرفة النوم»، ولكن ربما أخطأت السمع. خلعت ملابسي، ووقفت في كابينة الاستحمام، وفتحت المياه وغسلت شعري مستخدماً الشامبو الذي تستخدمه، شامبو أخضر من ماركة «شاوما» كان موضوعاً على شبكة معدنية. عندما دخلت غرفة النوم كانت قد أدارت التلفاز، وراحت تتمطى نصف عارية على حشوتها المزدوجة، وصحن العنب إلى جانبها على الوسادة. كاد العنقود يتحول هيكلاً، وحيثما اقتطعت حبّة خلّفت بقايا ضئيلة ذات لون أخضر فاتح. إقتطفت حبّة أخرى ووضعتها في فمها بطريقة ذكّرتني بمشاهد في الأفلام الإيروتيكية الألمانية القديمة التي كانت القنوات الخاصّة لا تملّ من تكرار عرضها. أردت أن أضحك، لكنّني لاحظت أنها تفعل ذلك بجدّية.

١٩١

نظيفاً بعد الاغتسال ومرتدياً قميصاً نظيفاً، أفكر مرة ثانية في القفز من النافذة. النافذة مرتفعة جداً، وعرضها كافٍ وهي مفتوحة. ليس عليّ سوى تسلّق حافة النافذة. وفي الصباح التالي أتخلص من قياس درجة الحرارة، ومن كل شيء آخر.

أتذكّر حكاية والدة مارغيت. لم أكد أتعرّف إلى مارغيت حتى حكت لي الحكاية بعد نصف ساعة. في عصر أحد الأيّام أرسلت أمّها أباها نحو الخامسة والنصف ليتسوّق، عليه أن يشتري بسرعة خبزاً وشرائح من اللحم البارد. في ذلك الوقت لم تعد مارغيت منذ سنوات

تسكن مع والديها في فيينا. عندما عاد والدها بالأطعمة كانت الأم ترقد على الرصيف بعد أن قفزت من نافذة في الطابق الرابع. قالت مارغيت إن أمّها أرسلت والدها خصيصاً للتسوّق حتى يجد شيئاً يأكله بعد انتحارها. إلى هذا الحد كانت تعتني به، حتى بعد موتها.

اليوم أستطيع أن أفهم والدة مارغيت جيداً. لا شيء يعجبني. كل شيء يثير أعصابي. ما معنى كل هذا؟ لماذا أرقد هنا؟ من فضلك، لم أعد أريد بداية جديدة، لا أريد شيئاً آخر. لقد اكتفيتُ.

١٩٢

عليّ، في الحقيقة، أن أشعر بالعرفان بالجميل، العرفان بالجميل إلى أقصى حد. عليّ أن أبلغ المنتهى في الشعور بالعرفان بالجميل. مشكلة العرفان بالجميل كما ينبغي أن أشعر به: يجب أن يكون عرفاني بالجميل أكبر، أكبر كثيراً مما أشعر به. ولكن أليست هذه هي المشكلة عموماً تجاه كل الهبات العظيمة جداً؟ الإنسان لا يستطيع أن يمنح مقابلها شيئاً. إنها تجعل الإنسان صغيراً. كيف يمكنني أن أشكر أحداً على وجودي؟ رغم أنّني أسأل الربّ الحبيب بين الحين والآخر أن يمنحني التواضع، فهو شيء لا أتحمّله فترة طويلة أبداً. ينبغي أن أكتب رسالة إليك، لا إلى أقاربك أتفضّلين أن تكتبي أنت الرسالة لنفسك؟ أعيرك يدي.

ماذا قيل عن استبداد الهِبات الذي تحدّث عنه مَرسيل موس[١]

---

(١) Marcel Mauss (1872-1950).

في كتابه الشهير؟ يحصل المانح عبر هِباته على سلطة سحرية، بل دينية، تجاه الممنوح. هل أصبحت الآن ملكك؟

في ما بعد، أعاد جاك دريدا تعريف الهبة، الهبة الحقيقية من دون مقابل. وفق هذا المفهوم فإن التبرّع بعضو هو الهبة في أكمل صورها، ذلك أن من المستحيل ردّ هذه الهبة.

في كل مرة أتذكر فيها جاك دريدا ـ لأن أحداً يستشهد بأقواله أو لمجرد ذكر اسمه ـ أرى المشهد أمام عيني مرة أخرى؛ كيف وقفنا، أنا وجاك دريدا أحدنا إلى جانب الآخر لنتبوّل. كان ذلك في دورة المياه في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية(١) الواقعة في «بوليفار راسباي»، قبل محاضرته مباشرة. آنذاك، في مطلع التسعينات، كنت أذهب إلى محاضرته كل أسبوع في باريس، وكانت القاعة مزاراً للطلبة من مختلف أنحاء العالم. كان يقف هناك عندما دخلت دورة المياه، ألقيت التحية ووقفت إلى جانبه، لوجود مبولتين فقط. وحاولت بكل جهدي ألا أبدو كأنني أختلس النظر إلى قضيبه. كنت أحب محاضراته، لكنني أتذكر أنه ذات مرة فقد أعصابه لأنه لم يستطع تفسير سبب الضحك الصبياني الذي ساد القاعة، وذلك عندما تحدث عن المثالية الألمانية، مستخدماً الكلمة الألمانية spucken، ليصبح معنى ما قاله: بُصاق المثالية الألمانية. وعندما كرر للمرة الثالثة أو الرابعة جملته «هيغل يبصق»، أوضح له شخص أن عليه أن يقوول spuken، بمد حرف الـu، لتصبح عبارته

(١) EHESS: École des Hautes Études en Sciences Sociales.

«هيغل يظهر كالشبح»، وليس هيغل يبصق. والآن، ها هو يظهر كالشبح أمامي.

١٩٣

ثم يقيسون درجة الحرارة مرة أخرى. يوم جديد في المستشفى، يوم جديد في حياتي، قريباً سيكون قد مر بي ما يزيد على ١٣ ألف يوم.

هل قسنا درجة الحرارة؟ لا، بالطبع لا، لأنّني لا أزال نائماً. في كل صباح الموّال نفسه، وبسرعة يحلّ المساء، وتأتي الممرّضة بأدوية اليوم التالي، وتوزّع العلب البلاستيكية الصغيرة ذات الأقسام الأربعة، للصباح والظهيرة والمساء والليل، وتضع فوق كل كومودينة علبة. اسمي مكتوب على الغطاء الشفاف الذي أرى عبره الأقراص، يساعدني هذا كي لا أنساه.

ألا تصلح هذه العلب البلاستيكية الفارغة لخلط الألوان المائية؟ قد أبدأ قريباً بالرسم، لوحات مائية من المستشفى، وانطباعات مريض: الجدار، الشجرة، التلفزيون، الخزانة، وظلال السرير على الأرضية، ترسم الشمس في أغلب الأحيان أشكالاً جميلة للغاية. نعم، لدي فجأة رغبة في رسم أوراق الشجر أمام نافذتي. الأصدقاء والمعارف القدامى، أسعد كل يوم برؤيتهم. هذه الخضرة، والامتلاء، والكثافة. يجب أن أرسمها، والأفضل أن أرسمها ورقة ورقة، وسأكون مشغولاً على نحو جيد.

ألن تساعدني المائيات العلاجية؟ ليس غريباً أن تُقدم في دور

النقاهة دورات في صنع السلال، والفخار، والحفر على الأحجار، والرسم بالألوان المائية: رسم سحابة جميلة، وهامات الشجر، ثم سحابة أخرى جميلة، نعم، هذه التي تمرّ في السماء، التي تبدو معلقة ضائعة فوق مهبط المروحيات.

١٩٤

كانت أمّي ترسم خلال مرضها، ربما كان ذلك جزءاً من العلاج في المستشفى الأنثروبوسوفي. تردّدتْ على عدة دورات للرسم، الرسم بألوان الباستيل وبالألوان الزيتية والمائية، كما أنها كانت موهوبة إلى حد ما في رسم الاسكتشات، وكانت تعرف ـ وهو ما كان يترك لديّ انطباعاً وأنا طفل ـ استخدام الخطوط بطريقة تُظهر التباين بين النور والظلال. فكانت إذا رسمت تفاحة بدت بالفعل تفاحة، نعم، بل إنها كانت تستطيع رسم أحصنة تبدو حقاً مثل الأحصنة. أما أحصنتي فكانت ولا تزال تبدو مثل الخنازير، خنازير بقوائم طويلة.

من ناحية أخرى، هكذا أرى الأمور اليوم، كانت صور أمي فظيعة: نوارس ترقد على أعمدة السور الخشبي؛ غروب الشمس على بحر من ألوان الباستيل. كانت تذهب بالصور إلى محالّ متخصّصة وتطلب إطاراً غالياً، ثم تعلقها على جدار الدرج. عندما توفيت، حملناها من هناك إلى القبو. وفيما بعد، تخلّص منها أبي الذي لم يكن عاطفياً.

لا أزال أتذكر تعابير وجه أحد النوارس، أظن أنها رسمته في

جزيرة زولت. ألم تكن في مستشفى هناك؟ لم أعد أعرف. كان النورس الراقد فوق العمود ناظراً إلى البحر يشبه جدتي. كانت أمي، هكذا فكرت، ترسم أمها كنورس عندما يمر بها طائر.

١٩٥

الزمان يغدو هنا مكاناً. هل تغنّي الآن «بارسيفال»[١]؟ هل هذه أنتِ؟ نعم، يغدو الزمان هنا مكاناً، إنه في هذه الغرفة. وكل شيء، سواء حدث منذ مدة طويلة أم في مكان بعيد، يحضر فجأة ثانيةً، قريباً للغاية، على بعد أشبار، ليس عليّ سوى الإمساك به.

١٩٦

أتأمّل أرضية المستشفى ولونها اللطيف، أرضية من اللينوليوم ذي اللون الرمادي الفاتح المختلط بالأزرق. هل اختُرع الفنّ التجريدي في أحد المستشفيات؟ في مكان يكون فيه لدى الإنسان وقت كافٍ للحملقة في شيء ما وقتاً طويلاً جداً، وقتاً طويلاً إلى أن تفقد الأجساد شكلها وتصبح مجرّد لون، ويمسي اللون جسماً؟ أتعجّب من كل ما أستطيع رؤيته في هذه الأرضية وعلى الحائط الأبيض. ليس عليّ إلا الحملقة ساعتين أو ثلاث ساعات في المكان نفسه، فإذا بكل فكرة وكل ذكرى تصبح متجسّدة، يمكن رؤيتها من كل جانب، يمكن تقليبها، بل إنني أحياناً ألفّ وأدور حولها.

---

(١) Parsifal: «بارسيفال» أوبرا مشهورة لريتشارد فاغنر. (المترجم)

١٩٧

ألكسندرا التي كان والدها يدير محلاً للمستلزمات الطبّية ماتت غرقاً في تركيا، في حوض السباحة بالفندق، رغم أنها كانت سبّاحة ماهرة. كان زوجها يجلس على حافة الحوض دون أن يلاحظ شيئاً. كانت مع طفليها في الإجازة، الطفلة الصغيرة لم تتعدّ أحد عشر شهراً. كانت ضحكتها رائعة. ما زلت أسمعها. أسمعها الآن.

١٩٨

يبقى شذى في الغرفة إثر خروج طبيبة ذات عينين لوزيتين رائعتين. هل وضعت عطراً؟ رائحة الطبيبات ليست هكذا في العادة. أشم أصابعي وأحاول أن أتبيّن كنه الشذى، لقد صافحتني، لكنني لا أشم سوى رائحة الليفوزان، الصابون السائل في الحمّام الذي أحب استعماله جداً. إنني أكثر من غسل يدي، ربما أكثر من اللزوم، وأستخدم أيضاً سائل التطهير من الجراثيم. فهناك جهاز صغير معلق في الحمام إلى جانب الحوض، مزوّد بيد وبداخله زجاجة، وجهاز آخر خارجاً في الممر، إلى جوار الباب المؤدي إلى غرفتنا مباشرة. كلما مررت به، أضغط على اليد بكوعي تاركاً الكحول ينساب في الكفّ الأخرى المفتوحة، ثم أدعك اليدين كما في الصورة الملصقة عليه. سبع مرات أو ثمانيَ أطهّر يدي. أصابع يدي اليسرى واليمنى تفوح منها رائحة المطهّر. المطهّر والليفوزان، عطران أستخدمهما في المستشفى.

مَن فاحت مِنه رائحة ماذا؟ يوليا كان يفوح منها عطر Rive Gauche من Yves Saint Laurent، وفي بعض الأحيان كانت تضع Chanel N ١٩ أو N ٥. تلميذة معي في المدرسة ـ مرّ وقت طويل على ذلك ـ كانت تفوح منها رائحة زيت الباتشولي. أجد نفسي أفكر في سوزانه التي كان يفوح منها عطر L'Eau d'Issey، آنذاك، عندما كانت ترنّ جرس شقتي صباحاً مرّة أو مرّتين في الأسبوع، ثم تنتظرني أمام باب البيت. عندئذ كنّا نذهب إلى الساحة الرياضية، أنا على قدميّ وهي إلى جانبي على الدرّاجة، العدْو، عشر دورات، أحياناً ١٢ دورة، دون أن نتحدّث كثيراً، هي إلى الداخل، وأنا إلى الخارج. بعد سبع دورات أو ثمانٍ كنا نفترق، هي تسرع، وتضع السمّاعة على أذنيها، ثم تركض مبتعدة. لم نكن نتبادل الحديث إلّا فيما بعد، عندما نعود غارقين في عرقنا. كانت تحكي لي عمّا فعله ابنها، الذي كان آنذاك في الثالثة أو الرابعة من عمره، أو عن غرابة سلوك زوجها الذي سيصبح لاحقاً زوجها السابق. أو أنها، إكمالاً لرياضتها الصباحية، تنطلق بالدرّاجة من «تسيونسكيرش-بلاتس» إلى حيّ «شارلتنبورغ» لتذهب إلى مُعالِجها، رغم أنه لم يكن ينصحها سوى بالإكثار من الحركة وتناول كبسولات زيت السمك التي كانت تكلفها كل شهرين ١٤٠ يورو. أليست هذه أدوية وهميّة غالية جداً، لا تضرّ ولا تنفع؟ هكذا سألتها ذات مرة، فكان ردّها: لكنها تساعدني. لو كانت أرخص، لما فعلت.

في التقاطع، عند الجدار الذي كان لا يزال يقسم المدينة،

والواقع الآن في «ماور بارك»[1]، قبل الوداع تبادلنا القبلات، لكننا لم نتحدّث قطّ ـ في الحقيقة هذا أمر عبثي ـ عن علاقتنا التي بدأناها قبل ذلك بأعوام، حيث سكنّا معاً عدة أشهر، وكنا نمارس الحُب بين الحين والآخر، فيما كانت هي في الحقيقة تعيش مع والد طفلها اللاحق. زجاجة عطرها، L'Eau d'Issey، كانت على الرفّ فوق الحوض في الحمّام.

٢٠٠

أشمّ رائحة المطر عبر النافذة المفتوحة. ليس للماء وحده هذه الرائحة. أشمّ المطر وأسمع شدو الشحرور. شحرور آخر يردّ عليه، ويشدوان بين الحين والآخر.

٢٠١

حكى لي شخص مرةً أن النمل يفرز مادّة عطرية تحول دون أن يظنّ النمل الآخر أنه ميت. النمل له رائحة طوال حياته تتلاشى بعد موته. الحشرة التي لا يفوح منها عطر الحياة، يحملها نمل متخصّص في النقل خارج الجحر. شرطة العطور لدى النمل يقظة وصارمة. يطلقون على هذا السلوك «نقل الموتى»، أي التخلص من الأجساد الميتة قبل أن تبدأ عملية التحلل؛ حشرات عديدة تعيش في ممالك تمارس عملية نقل الموتى هذه. لا تفوح من النمل الميت رائحة الحياة بعد ساعة واحدة من الموت. لقد احتفظت ذاكرتي بهذه المعلومة أيضاً.

(١) أي «حديقة الجدار». (المترجم)

ألا تزال رائحة الحياة تفوح منّي، أم أنني مت؟ ألن تشمّ الممرّضات ذلك؟ الطبيبة ذات العينين اللوزيتين؟ جاري؟ أم أن رائحتك تنساب منّي منذ الآن؟

لا أستطيع شمّ رائحتي. كثيراً ما تقول الطفلة لي: رائحتك كريهة.

٢٠٢

أشمّ رائحة زهر هنا في غرفة المستشفى، ولكن الأزهار لم تعد موجودة هنا من فترة طويلة، الأزهار تجلب جراثيم كثيرة جداً. أشمّ رائحة تين، وخزامى، وليلك، وبيلسان، وأزهار الزيزفون. أودّ أن أشمّ أزهار الزيزفون في حزيران مرّة أخرى، الشاطئ الرطب، قميص نوم ريبيكا، صخرة دافئة، طحالب جافة، أرضية الغابة، الجويسنة العطرة، شَعر يوليا، ورد. ورد. تفوح من الجنائز رائحة الورد، هكذا تعمل حاسّتي الشمّية.

٢٠٣

رائحة الطعام في الممر. تنتظر الصواني في الرفوف الساخنة في العربة الحرارية. يأتي الطعام ثلاث مرّات في اليوم. يحمله ممرّض ثم يضعه على ذراع الكومودينة الذي يمكن فرده وطيّه. غطاء من مادة اصطناعية بتجويف دائري في المنتصف يغطي صحن الطعام ويحافظ عليه ساخناً، وعاء الشوربة مغطى بغطاء من المطاط، ألقي نظرة عليه فأرى أنهم لم يحضروا مرقة لحم، بل شوربة خضر مهروسة، مرة أخرى.

قبل أن أرفع غطاء الصحن الرئيسي، أتخيّل تحته شيئاً آخر تماماً، مفاجأة كبيرة: زهرة، كتاب، إصبع مقطوعة، قلب طازج.

ثم؟ قطعة مربّعة من لازانيا الخُضَر على الصحن المقسم، جزء من ورقة سبانخ يبرز من طبقات العجين المطهوّة طهواً جيداً. منظر الطعام لا يفتح الشهيّة، تذكّرني السبانخ بالطحالب. وفجأة أحلم بكل وجبات الطعام التي أكلتها يوماً، أحلم بمعكرونة حبوب الخشخاش، «كنودل»[1] بالمشمش، ثم كومة التفاح الذي قطفته بنفسي في الحديقة، و«هاشيه كنودل» باللحم المفروم، «فلكيرل» بالأعشاب والجامبون، وكل الأطعمة التي كانت جدّتي تعدّها في النمسا.

هل ملأت بطاقة الطعام؟ يقطع الممرّض عليّ أحلامي. السؤال نفسه كل يوم. نعم، فعلت. بالطبع. كان عليّ الاختيار بين الزبدة والمارغرين، بين العسل والمربّى، واخترت خبز السندويتشات بدلاً من شريحة أخرى من الخبز المصنوع من خليط من الحبوب، وفاكهة. طعام ١، طعام ٢، طعام سهل الهضم، وتنويعات أخرى، مثلما كان الأمر في مطعم الجامعة.

كذلك يمكنني، وهذا ما يُعدّ ردّاً أيضاً، أن ألقي بصينية طعامي على الأرض. أتذكّر وجبة غداء في فرنسا، قبل سنوات عديدة، كنت عند العائلة المضيفة في برنامج للتبادل بين تلاميذ المدارس، انزلق مني السكين فوق قطعة اللحم، فطارت عالياً قطعة الستيك

---

(١) طعام مشهور في النمسا وجنوب ألمانيا، يُعدّ من الدقيق على شكل كريّات. (المترجم)

مع كل البطاطا المحمرة تقريباً الموضوعة في صحني، ثم سقطت على الأرض. بدأ كلا الطفلين يضحكان، ثم زحفنا وحبونا معاً فوق البساط لكي نجمع الطعام. كان الكلب النائم تحت المائدة أسرعنا في الوصول إلى اللحم.

٢٠٤

الطبيبة ذات العينين اللوزيتين تعمل اليوم. تنتعل حذاءً رياضياً من ماركة «أونيتسوكا تيغر»، وفي أذنها حلق لامع. تصافحني وهي تضحك. لا تخاف من ملامستي، غير أنها تطهّر يديها بعد ذلك. هذا ما أفضّله أنا أيضاً.

٢٠٥

سأنزل لأحضر الجريدة: ما كاد جاري يقول ذلك حتى كان قد عبر الباب. آمل ألّا يُحبس داخل مصعد لا يُستخدم إلّا نادراً، مثل أحد المرضى في مستشفى برليني، لم يعُثر عليه إلّا بعد مرور ثلاثة أيام. كان قد بدأ يلعق بوله من أرضية المصعد. ضغط الرجل على جرس الإنذار، وراح يخبط على جدران الكابينة، وصرخ، ولكن لم يسمعه أحد. ليس موتاً جميلاً، أقول لنفسي، أن تموت عطشاً في مصعد مستشفى.

فيما بعد يحكي لي جاري عن رجل ضلّ الطريق في أحد المستشفيات، ولم يُعثر على جثته في إحدى حجرات الآلات الفارغة إلا بعد مرور خمسة أو ستة أيام. كان أقاربه قد علقوا في

كلّ مكان على أرض المستشفى أوراقاً عليها صورته. لم يكن يريد سوى تدخين سيجارة. التدخين، يقول جاري في الغرفة، يضرّ فعلاً بالصحّة.

٢٠٦

جسدي يأكلني، كل شيء يتحرّك. ماذا يسري هكذا في داخلي كالنمل؟ ويخرج منّي؟ ذات مرّة جاء النمل من الحديقة إلى غرفتي وأنا طفل. كنت قد تركت في درج الكومودينة أغلفة حلوى كثيرة جداً.

٢٠٧

طالبة الطبّ التي تشارك في الفحص الطبّي هذه المرة جمعت شعرها الأشقر إلى الخلف وربطته نصف ربطة، مثلثات حمراء صغيرة من الخشب تتدلى مترجّحة من شحمتَيْ أذنيها، تبتسم وتضحك لتخفي ارتباكاً ضئيلاً تشعر به. إنها تعجبني، مثلما كانت تعجبني زميلة لي في الفصل، دانييلا التي جلست إلى جانبي لفترة في الصف الدراسي العاشر. هل رسبت؟ كلا، لم ترسب. كانت خلال العام المدرسي قد نُقلت إلى صفّنا من الصف الحادي عشر، وهو إجراء كان الآباء العطوفون يتخذونه ليجنّبوا أبناءهم مذلة الرسوب، حتى وإن تساوى الأمر في النهاية. في وسط العام المدرسي انتقلت إلى صفّنا، وكانت تجلس إلى جانبي في دروس الفرنسية، يوميْ الأربعاء والجمعة، الحصّة السابعة. ولمّا كنت أشعر بالملل، فقد بدأت أكتب

لها على قصاصات ورقية، رسائل قصيرة، كلاماً ساذجاً. نجحت في أن أجعلها تعطيني دروساً خصوصية رغم أن اللغة الفرنسية لم تُثر اهتمامي مطلقاً آنذاك. لم يكن معنى هذا أنني كنت بحاجة إلى دروس خصوصية، لا، كنا ـ هذا هو الاتفاق ـ نمثّل أننا نستذكر دروسنا. أنا مثلتُ دور التلميذ، وهي، الأكبر منّي بعام، مثلتْ دور المعلمة في فترات ما بعد الظهر، عندها في البيت. كنت أذهب إليها بالدرّاجة، وكانت تستقبلني عند باب المنزل، ثم تصحبني للدرس إلى مائدة كبيرة ضخمة من خشب البلوط في غرفة السفرة الداكنة. في المرة الأولى استغرق الدرس، بحسب الاتفاق، خمساً وأربعين دقيقة، في المرة الثانية لم يتجاوز الدرس نصف ساعة. بعد ذلك كنّا نرقد في حجرتها على الأرضية المكسوّة بالموكيت. لا يمكن أن نكون استمعنا إلى الموسيقى إلّا نادراً، إذ لم يكن في حوزتها أكثر من أربع أسطوانات أو خمس. ولكن هذا لم يكن ـ ويدي في سروالها الداخلي ـ يعنيني مطلقاً. كنت أسجّل لها شرائط، خليطاً من أغاني Joy Divison، وSmiths وThe Fall وStranglers، ولكنها، وهذا ما كنت أظنّه، لم تكن تسمعها أبداً. كانت دائماً، وعلى نحو غريب، مضطربة. حمرة الاضطراب دائماً في وجهها، وكأنها كانت تتوقع أن يدخل علينا في أيّ وقت والدها الذي لم أقابله يوماً. بعد الصف العاشر غيّرت المدرسة، وفقدت أثرها. لا أعلم أين تسكن اليوم.



لأول مرة منذ أن رقدت في هذه الغرفة ألاحظ الصورتين المعلقتين

على الحائط أمامي، لا بدّ من أن أمتدح نفسي، إذ إنني أرقد هنا طوال أسابيع دون أن ألاحظ، مجرد ملاحظة، وجود هاتين الصورتين لمارك شاغال، هذا أيضاً إنجاز. أرى الآن باقة أزهار، وأرى ثنائيّات المحبّين المتعانقين. لا أحبّ شاغال، «كيتش» رخيص، ولكن فيما أفكر في ذلك، ألاحظ أن الصور لا تزعجني. تذكرني الألوان بجدران غرف أشعّة إكس، وبألوان معاطف الزوار في قسم العناية المركزة، أزرق باهت وأصفر كالبول. الأزرق الباهت والأصفر البولي ـ هكذا أراهما الآن ـ لونان جميلان.

٢٠٩

في أقسام الأطفال في المستشفيات التي عولجت فيها كانوا يعلقون في كل مكان ـ هكذا كان انطباعي آنذاك ـ رسوم أطفال بشعة، شخبطات ليس إلّا. الصبية في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لا يجدون مثل هذه الرسوم جميلة، لم يعودوا يرونها جميلة، أو لا يرونها جميلة بعد. ولكن شخبطات الابن أو الابنة، هذه تصبح مهمّة. أنا أحتفظ بها جميعاً.

٢١٠

كنت لا أزال في بون، عندما دخلت مستشفى الأطفال في «أدناور أليه»، إلى جانب وزارة الخارجية مباشرة. ذات يوم أتت فتاة من الضفة الأخرى لنهر الراين لزيارتي. تعارفنا في أحد المخيّمات، وتبادلنا رسالتين أو ثلاثاً، لا أعرف كيف أو مِمّن علمت بوجودي

في المستشفى، كنت أخجل من كلمة مستشفى الأطفال بعد أن بلغت السادسة عشرة. نافذة الغرفة التي شغلتها وحدي كانت تطلّ على الراين. وعلى الضفة الأخرى، وعلى مسافةٍ قصيرة في اتّجاه تيّار النهر، كانت تنهض «الجبال السبعة». حكتْ لي أنها أتت من كونيكسفينتر بالقطار. وبالطبع سألتها إن كانت تعرف موقف السيّارات الذي أطلقت منه مجموعة «جناح الجيش الأحمر»، RAF، النارَ على السفارة الأميركية الواقعة على الضفة الأخرى في غودسبرغ، لم يكن قد فات وقت طويل على ذلك. جلست هناك، قريباً جداً من سريري، وأمسكت بيدي. كان لون عينيها عميق الزرقة، عميق الزرقة على نحو لا يُصدَّق، عينان زرقاوان لم أر مثيلاً لهما فيما بعد.

٢١١

أُقلِّب في دفتر قديم، كنت أدوّن فيه ملاحظاتي، وجدته في جيب جانبي من جيوب حقيبتي البنّية. هناك نسيته على ما يبدو. أقرأ، راقداً في المستشفى، ملاحظات عن المستشفى، لقد كتبت هذه الملاحظات حتماً، يبدو الخط كخطي. مرّة بعد أخرى أقرأ كلمة «مستشفى». في الحقيقة لا أريد بعد اليوم سماع كلمة «مستشفى» أو كتابتها، أو قراءتها. ولكن، لأنني أعرف أنه سيتحتّم عليّ أن أسمع وأقول كلمة «مستشفى» كثيراً جداً، أحاول التآلف معها، أقول بصوت خافت: مستشفى، مستشفى، مستشفى. أحاول أن أكتسب مناعة ضدّ هذه الكلمة، مستشفى، مستشفى، مستشفى، أنطق بهذه الكلمة كثيراً إلى أن تفقد معناها، مستشفى، آه مستشفى. ليست كلمة «مشفى»، أو «مركز علاج» أفضل.

في المستشفى، يقول جاري وزميلي في الغرفة بعد أن سمعني أتمتم: محكوم علينا بالرقاد والانتظار إلى أن تتحسّن حالتنا، أو أن نصبح مرضى حقاً. لا عجب أن الكلمة بالألمانية تعني «دار المرضى».

٢١٢

ألقي نظرة من النافذة، فأرى القناة، وأفكر مرة أخرى أن أنهض وأرتدي ملابسي وألج المصعد هابطاً، وأخرج من المخرج الجنوبي وأسير حتى القناة، ثم أتمشّى على طولها في اتجاه محطة «ليرتر» للقطارات. ولكن محطة «ليرتر» لم يعد لها وجود، المحطة القائمة اليوم تسمّى المحطة الرئيسية.

واحدة من شقيقاتي تكبرني سنًّا حكت لي أن المحطة لم تكن سوى مساحة من الرمل في يوم من الأيّام، باستثناء شجرة واحدة، ساحة للتدريب والمدفعية، صحراء صغيرة، ثم بنوا هناك مدينة حدائق مخصّصة للمرضى، شيّدها لودفيغ هوفمان تنفيذاً لفكرة رودولف فيرشو: مدينة للمرضى! هكذا قال القيصر عند تدشينه المكان عام ١٩٠٦. الأكشاك القديمة في مدينة المرضى هذه هُدمت كلها، ما عدا ثلاثة، وفي أحدها مستشفى السرطان للأطفال. اليوم تنهض مبانٍ عالية في الطريق الأوسط، وفي أحدها أرقد.

٢١٣

كل ربع ساعة ينهض جاري الجديد، يمسح فُتاتاً متوهَّماً من فراشه،

ويشدّ ملاءة السرير فارداً إيّاها، ثم يجرّ قدميه حتى الخزانة، ويفتح الباب، ثم يقلب الأكياس البلاستيكية الموجودة في الرفّ الخاصّ به، ويشرب جرعة من عبوة عصير، أو يتناول تفاحة. لقد أحضر معه كيساً كبيراً فيه تفاح صغير متغضّن.

كان يملك حديقة في سيبيريا، يحكي لي، يعيش في ألمانيا منذ أربعة أعوام فقط، يتردّد على المستشفى، مرة في الشهر. كان في الماضي يقود شاحنة في أنحاء سيبيريا، ناقلاً جذوع الأشجار إلى مصنع الخشب، ثم الألواح الخشبية من المصنع إلى ورش البناء، عبر غابات التايغا، في درجة برودة تبلغ أحياناً الأربعين تحت الصفر. إذا هبطت درجة البرودة عن ذلك لا يمكن فعل شيء، عندئذ لا تعمل محرّكات الاحتراق. لم يكن ممكناً القيام بعمله إلا بشرب الفودكا، غير أن الفودكا لا تدفئ الجسم فعلاً. بعد نحو أربعين شتاءً من الفودكا تلفتِ الكبد.

لهذا هو هنا. بطنه منتفخ، وعندما يتدحرج من السرير، فإنه يدحرج معه عشرين لتراً من الماء، كلّ أربعة أسابيع تُفرَّغ هنا في المستشفى، ثم يمتلئ بطنه مرة أخرى.

٢١٤

كان لديّ معلم جغرافيا يتحدّث بإعجاب عن سيبيريا، عن الرحابة والبرودة والاتساع. كان معجباً أيضاً بالمشروعات الكبرى للاتحاد السوفياتي هناك، مثل تحويل مجرى الأنهار السيبيرية لريّ الأحراج في الجنوب، والمدن الجديدة في الجليد. لم يكن عجوزاً ليكون

أُسر في الحرب. وبالتأكيد ما كانت حماسته البالغة لسيبيريا في تلك الحالة ستكون كبيرة هكذا. هل شارك مع معلمي الجغرافيا في رحلة استكشافية بالقطار عبر ربوع سيبيريا، أم هو يحلم بذلك؟ لا أزال أتذكر أن هذا المعلم، السيد غلهار، نصح صفَّنا، يوم كنا في السنة الثامنة أو التاسعة، بأن نشرب، إذا وددنا الشرب، الفودكا، وألّا نحتسي تلك الأنواع الملوّنة والحلوة من الليكور. من الأفضل ألّا نشرب البيليز وكذلك الكوراساو الأزرق، بل الفودكا. كان يقول، لأنها تولد النشوة الأكثر نقاءً وصفاءً، وتخلّف صداعاً أقلّ، وفي معظم الأحيان لا تسبّب أيّ صداع في الصباح التالي. كان خبيراً على ما يبدو.



نعم، ينبغي للإنسان أن يجتاز كل محنه، يقول جاري في الغرفة قاطعاً تأوّهاته. يتحرك بجهد جهيد تجاه الخزانة، ويتناول مرة أخرى تفاحة من كيس التفاح، تفاحة صغيرة صفراء مدوّدة. حكى لي من قبل أنه يعثر على التفاح في قطعة أرض غير مبنيّة، في مكان ما شرق برلين، لا أحد يريده، وهو يجمعه. يعود ليجلس على سريره، ويقطع الثمرة إلى أربع قطع بمطواة الجيب الصغيرة، ثم يخرج البذور، ويقشر الأرباع ثم يغرز نصل المطواة الصدىء في قطعة تفاح ويدخلها إلى فمه. بعد أن يأكل آخر ربع، ينهض ثانيةً، ويسير إلى الخزانة، ويبحث في ثلاثة من أكياسه السبعة، إلى أن يعثر في النهاية على العلبة التي تضمّ آلة الحلاقة الكهربائية. كان بإمكاني أن أقول إن الآلة في كيس متجر «كاوفهوف»، لقد أخرجها وأدخلها ثلاث مرات من قبل. ما يكاد

يحلق بضع شعيرات نابتة في وجهه، حتى يضع الآلة مرة أخرى في العلبة الكارتونية الأصلية التي لم تنجُ من صدمات، ولكنني عندئذ لم أكن أرقد هنا في هذه الغرفة، إنني أرقد على الأرضية الخضراء في حديقته السيبيرية التي يتغزّل فيها، البرقوق ينمو ويتساقط في فمي، والتفاح الناضج الأحمر يسقط على العشب. أزهار أواخر الصيف، أزهار لم أر لها مثيلاً من قبل تتألق بألوان الخريف المبكرة. يجلس حواليَّ عدد من الأرانب التي لا تشعر بخوف. لا تقفز بعيداً إلّا عندما أسمعه يتأوّه ثانيةً، يتأوّه أمامي شاكياً مصيره الألماني ـ الروسي. يقول لي إنه ولد على ضفاف الفولغا قبل التهجير القسري، ثم هُجّر طفلاً صغيراً إلى سيبيريا، والفضل لستالين، الشتاءات الأولى كانت فظيعة، نشأ وكبر في حفرة في الأرض، مُحاطاً بجبال من الجثث، ينبغي للإنسان أن يجتاز كل محنه، يقول للمرة الثانية، أو ربما للمرة الثالثة أو الرابعة، ثم يضيف بلكنته الروسية: ولا بدّ من الأمل، من دون أمل ينتهي كل شيء.

## ٢١٦

في المدرسة الابتدائية كانت معنا في الفصل طفلتان من أبناء المهاجرين الأواخر(١). الأولى اسمها غيرتراوته، والثانية إليزابيت. اسمان كانا لهما على أذني وقع غريب للغاية وسط كل البنات اللائي

(١) يشير مصطلح «المهاجرون الأواخر» Spätaussiedler إلى ذوي الأصول الألمانية الذين عادوا ليستوطنوا ألمانيا بعد العام ١٩٩٣، وهم أبناء أقليات ألمانيا كانت تستوطن، عبر أجيال في بعض الأحيان، مناطق في شرق أوروبا وجنوبها على وجه الخصوص. (المترجم)

يحملن أسماءً مثل «هايكه» أو «تانيا»؛ كنت أعتبر الاسمين غير متلائمين مع تلميذات في عمرهما. يتناسب الاسمان بالأحرى مع مربّيات صارمات في بيت للأيتام، قلت لنفسي، لا مع تلميذات في صفّنا. لا أتذكر أنني تحدّثت معهما ولو مرة واحدة خلال السنوات الابتدائية الأربع، وأظنّ أن أحداً لم يتحدّث معهما، وهما لم تنطقا بكلمة قطّ. كانت البنت الأجمل، إليزابيت، لها شعر أشقر طويل، تضفره دائماً في ضفيرتين، وترتدي طوال أسابيع الفستان نفسه، وتحته سروال داخلي من الصوف. لم ألاحظ آنذاك كم كانت جميلة، فقد كانت تبدو كأنها آتية من كوكب آخر.

٢١٧

ذات ليلة أجد نفسي أتزحلق فوق السرير المزوّد بعجلات على أنهار سيبيريّة متجمّدة، أتزلّج في اتجاه الجنوب، فوق ممرات للتزلّج ممتلئة بالطمي، وأبقى عالقاً خلال هبوب عواصف ثلجية، ثم أمرّ بنقطة تفتيش مرورية، لكنني أعلم أن الشرطة في سيبيريا لن تكلفني سوى زجاجة فودكا، أنطلق عبر التايغا إلى أن يتأوّه محرّكي، ويعلو صوت تأوّهاته أكثر فأكثر، فأستيقظ. يتأوّه جاري وكأنه أصبح جهازاً للتنفس، تنفّسه يصدر خشخشة، وحشرجة، يأخذ نفساً قصيراً، ويجاهد للحصول على هواء، ثم يعود مرة أخرى إلى تأوّهاته ذات الوتيرة الواحدة.

في صباح اليوم التالي يقول لي إنه بلغ الـ«البياتيلكتا» الثالثة عشرة. كان لا بدّ من أن يشرح لي أن «بياتيلكتا» كلمة روسية تعني خطة خمسية. أحسبُ عشرة في خمسة، ثم ثلاثة في خمسة، وأضيف

الناتجين. أحتاج إلى نحو دقيقتين لهذه العملية، لقد أبطأ المستشفى فكري. إنه يبدو في الحقيقة أكبر من ذلك. لا بدّ من أنه شعر بما فكرت فيه، لذلك يقول: الزمن يمرّ سريعاً عندنا في روسيا.

## ٢١٨

كل ليلة تدخل الغرفة الممرّضة الليلية في جولة تفتيشية على الغرف، فتنظر إلى المحاليل، وتفحص إن كنّا نرقد في أسرّتنا كما ينبغي، وما إن كنّا تناولنا أدويتنا. تسألنا هل نحتاج إلى منوّم. تفتيشُ الغرف، كما في المدرسة الداخلية.

## ٢١٩

ذات مرة، كنت لا أزال تلميذاً، حبست نفسي لدى كاتيا في المدرسة الداخلية لكي أقضي الليلة عندها. قبل نهاية وقت الزيارة بقليل هرّبتني إلى حجرتها في الطابق العلوي، وهي حجرة تقاسمتها مع زميلة لها في الصف. قبل أن تبدأ المربّية جولتها التفتيشية جلستُ في خزانة ملابسها. جلست هناك مثل «هاني وناني» في قلعة شركنشتاين، أو ـ وهذا التشبيه يعجبني أكثر ـ مثل الصبي رايموند فيدرمان خلال فترة احتلال باريس بعد أن دفعت به والدته إلى الخزانة في الممر. ولكن، لم تكن الشرطة الفرنسية واقفة أمام خزانتي لتقبض على والديّ، وتنقلهما إلى الصالة الرياضية Vélodrome d’Hiver[1]،

---

(١) Vélodrome d’Hiver هي الصالة الرياضية التي جمع فيها اليهود في فرنسا قبل ترحيلهم إلى «معسكرات التصفية» عام ١٩٤٢. (المترجم)

قبل أن نقوم، نحن الألمان، بترحيلهم إلى أوشفيتس؛ أمام خزانتي لم يكن هناك سوى واحد من المربّين سأل الفتاة إن كان كل شيء على ما يرام. وهو ما أكدته ببراءة، كانت كاتيا تستطيع دائماً ادّعاء البراءة المقنعة. بعد برهة دقت على باب الخزانة، وخرجتُ، وفي أعقاب ذلك تسللت الفتاة الساكنة معها إلى صديقتها في غرفة أخرى. سرير كاتيا، لا أزال أتذكر، كان ضيقاً.

بعد ذلك بفترة قصيرة، وقبل أن تُفصل من المدرسة الداخلية، سافرنا معاً إلى إنكلترا. بدأت الرحلة بأن رافقتنا أمّها حتى محطة القطارات الرئيسية في كولونيا. كانت تريد أن ترانا نصعد إلى قطار الليل المتّجه إلى لندن. لم تكن تعرف أننا قطعنا تذكرتين إلى مدينة آخن، ومن هناك كنّا نريد أن نواصل السفر بالأتوستوب. على رصيف المحطة ودّعت الأم كاتيا بأن طلبت منها ألا تجلس في الخارج على قاعدة تواليت قذر، كان همّها الأكبر هو التواليت القذر، للأسف لم تكن لديها أيّ فكرة عمّا تفعله ابنتها.

وبعد ثلاث سنوات ـ كانت قد قطعت تدريبها في إحدى شركات البستنة، كما تخلت عن نيّتها أن تصبح مهندسة زراعية ـ قرّرت كاتيا أن تساعد أحد تجار المخدّرات من معارفها على تهريب ٨٠٠ كيلوغرام حشيشة من إسبانيا عبر جبال البيرينيه. انطلقا في سيّارة «كارافان» حتى الحدود ونقطة التفتيش. لفت نظر موظف الجمارك الفرنسي أن السيارة هابطة جداً وتكاد تلامس الأرض. حُكِم على كاتيا بتهمة الاشتراك في الجريمة، وقضت نحو عامين في سجن فرنسي.

٢٢٠

لكل ممرّضة طريقتها المميزة في التعامل مع المرضى. إحدى الممرّضات تلفت الانتباه عبر بشاشتها المبالغ فيها، الأخرى تظهر خشونة لافتة ولطيفة في التعامل، والثالثة دائماً صارمة وواضحة ومحدّدة وغير ذاتية. ممرّضة أخرى تحكي لي ذات ليلة أنها تودّ أن تتوقف عن العمل ممرّضة، لأنها تريد أن تعمل ثانيةً في مزرعة والديها التي سوف تتولى إدارتها يوماً ما. سوف يتحتّم عليها عندئذ أن تذهب إلى الحظيرة لترى حال الأبقار في الليل أيضاً، إذاً يمكنها أن تتدرّب هنا على ذلك. وأنا، أقول لها، سأكون بكل سرور طوال هذه الفترة البقرة التي تتدرّبين عليها.

حتى أكثر الممرّضات فظاظة تغدو بعد أحد عشر أسبوعاً في القسم رقيقة حنوناً، يقول جاري الذي قضى العام الماضي أحد عشر أسبوعاً هنا.

٢٢١

ملل المستشفيات، لا أستطيع أن أتحمّلك أكثر من هذا، لا أستطيع أن أتحمّلني أكثر من هذا؛ غير أنني أتحمّل في النهاية. ليس الأمر بهذا السوء في الحقيقة. يأتي الطعام في وقته كل عدة ساعات، وبين الحين والآخر يزورني شخص ما.

٢٢٢

أتذكر اختبارات التنفس قبل سنوات، في الصباح الباكر هنا في

فيرشو. كان عليّ أن أحضر صائماً قبل السابعة صباحاً إلى غرفة الفحص الخالية من النوافذ، مرة في الشهر، طوال عام. في السابعة تماماً كنت أنفخ النفخة الأولى في كيس من الألومنيوم، ثم أغلقه بصمام حلزوني، وأشرب محلولاً عالي التركيز من سكّر الشعير ـ لم يكن طعمه جيداً، لم يكن طعمه جيداً على الإطلاق، حلاوته لا تطاق، كأساً بأكملها ـ ثم أنفخ كل نصف ساعة في كيس من الألومنيوم، نفختين أو ثلاث نفخات: عبر النفَس يمكن قياس ما ينتج عن عملية تحول الغذاء إلى طاقة، ما يعني أيضاً قياس قدرة الكبد على العمل. كان هذا مشروعاً بحثياً كلفني «ب» بالاشتراك فيه، وهو ما فعلته بكل سرور. كل ما كان عليّ فعله هو النفخ في تلك الأكياس. فإذا ملأت كيساً، كنت أضبط المنبّه ثانيةً على نصف ساعة، ثم أرقد على سرير الفحص وأقرأ شيئاً أو أغفو. نحو الساعة الثانية ظهراً كنت أنفخ في آخر الأكياس الخمسة عشر التي كُتب على كل منها البيانات بدقة، وكان الطبيب المشرف على الدراسة يحملها إلى مخبره في كيسين كبيرين من أكياس جمع القمامة، الهواء الدافئ ليس ثقيلاً، ثم يقوم طوال أيام بفحص أنفاسي المعبأة في أكياس. كان يعجبني ذلك، أخْذ النفس، ثم النفخ، للأسف لم يدفعوا لي مقابل ذلك شيئاً. اليوم هناك اختبار موحّد لوظائف الكبد من خلال الأنفاس، ولا يستغرق سوى ساعة واحدة.

٢٢٣

تأتي طبيبة ذات معطف مفتوح إلى الغرفة وتقف عند فراشي، وتتحدث

مع الممرّضة وتسألني شيئاً لا أفهمه. لا أفهم ما تريد لأنّني وجدت نفسي مجبراً منذ أن دخلت الغرفة على الحملقة في شفريها الكبيرين اللذين برزا بشكل واضح، أكثر من واضح، من خلال قماش بنطلونها.

حكت لي مصمّمة أزياء ذات مرة عن ممثلة جاءتها يوماً ما وطلبت منها أن تغيّر من تفصيلة كل بنطلوناتها حتى يحدث هذا التأثير تحديداً. تعجبت مصمّمة الأزياء، ولكنها استطاعت مساعدتها.

ذهبتُ مرّةً مع ريبيكا ـ لا بدّ من أن ذلك كان خلال زيارتها الأخيرة لباريس ـ إلى معرض سنوي أقامته إحدى مدارس الفن هناك. ورحنا ننظر بإعجاب إلى طاقم لصنع نسخة من الجبس لأعضاء المرأة التناسلية الخارجية. هذه الأطقم ـ والفكرة لفنّانة باعت على طاولتها التي يمكن طيّها، عدّة مئات من النسخ ـ كانت مكوّنة من أنبوبة صغيرة من معجون الحلاقة، وآلة حلاقة تُستخدم مرة واحدة، وعلبة صغيرة من الفازلين، وكيس من الجبس وعلبة من الكرتون تفتحها المرأة المانحة للشكل نصف فتحة ثم تضغط على الجبس بعد تقليبه. اشترينا طقماً، وفي البيت انهمكنا بالطبع على الفور في صنع نسخة جصّية من شفري ريبيكا وبظرها، كانت هديّة الوداع من ريبيكا. كنت أستخدم هذه النسخة الجصّية المكعّبة الشكل لأضعها كمثقلة جميلة فوق رسائلي إلى أن ضاعت منّي، ولا أعلم أين أو كيف.



تحدّث، أيّها السرير العزيز ذو العجل، تحدثي معي أيتها النوافذ

والخزائن والمائدة وزرّ الطوارئ. احكي لي كلّ شيء أيتها المصابيح الموفرة للطاقة، أيّها الضوء الشحيح. تحدّثي معي يا حشوتي العزيزة، تحدثي معي، يا أغطية السرير العزيزة، وتحدثي معي أنتِ أيضاً، أيتها الخطوط العزيزة، الخطوط الرقيقة الزرقاء والخضراء. قل شيئاً يا حامل المحاليل العزيز، وأنتِ أيضاً يا زجاجة المضاد الحيوي التي ظلت تقطر حتى فرغت، تحدّث، أيها السقف العزيز، أيها التجويف العزيز الذي يؤدّي إلى النافذة، أيتها الخزانة العزيزة في الجدار، أيها الرف العزيز بعلبه الكرتونية الخضراء، الثلاث المكدَّسة، التي تضمّ القفافيز التي تُستعمل مرة واحدة، وعليها الأحرف التي ترمز إلى القياسات المختلفة، S وM وX، حروف تريد أن تعدني بشيء آخر تماماً، تحدث أيها الرشاش العزيز المضاد للجراثيم، تحدث أيها الرباط العزيز، وتحدث أيها الوعاء المخصّص للقمامة الملوّثة، أيتها الأجهزة العزيزة بوصلاتها للأكسجين والهواء المضغوط، تحدثي معي أيتها الوسادة العزيزة التي يرقد فوقها هذا الرأس وينام ويخرّف وييأس، وفي بعض الأحيان تنتابه الحماسة الشديدة.

# الزرافة المتعبة

وزن المريض طبيعي مقارنةً بطوله، اللياقة البدنية ضعيفة مع وجود ارتعاشات خفيفة، الحالة النفسية عادية. ليس ثمّة مأخذ على البشرة والأغشية المخاطية، لا رائحة فم كريهة أو انتفاخات. حالة الرأس والرقبة عادية من دون أي إشارة إلى حدوث عدوى، ليس هناك ما يشير إلى حدوث احتباس في الوريد الأجوف، جدار البطن مشدود، لا مقاومة محسوسة للأدوية، ندبة ملتئمة بعد عملية الزرع، مجرى القناة المرارية في مكانه الطبيعي. لا فتق. ثمّة نقص في حساسية البشرة في منطقة الندبة.

سُمح لي بأن أحزم متاعي وأغادر المستشفى، إلى دار النقاهة. ستنقلني سيّارة إسعاف. يأتي السائق مع كرسيّ متحرّك إلى الغرفة، ويأخذ حقيبة السفر الخاصة بي، فأقول: وداعاً أيتها الغرفة، مع السلامة أيها القسم. وسرعان ما وجدت نفسي أجلس في باص صغير، ينطلق تجاه الشمال خارجاً من المدينة، أجلس قرب النافذة إلى اليسار. أتعجب أنا نفسي للبهجة التي أشعر بها عند رؤية كل مبنى، وكل محطة وقود، وكل مصنع مهجور، وكل سوبرماركت رخيص، وكل متجر للوازم البناء. منذ فترة طويلة لم أر مركزاً لبيع البُسط والسجّادات. ثم أشعر بالفرحة أيضاً لرؤية الأوتوستراد والحواجز على جانبيه. أنظرُ من مكاني العالي بعض الشيء إلى كل السيّارات التي تجتازنا. في كل سيّارة يجلس إنسان واحد على الأقل.

معي في الباص مريضان آخران. أتبادل الحديث مع امرأة لا يمكن أن تكون أكبر مني بكثير. نتحدث عن فصول السنة. نتحدث عن الطقس. أقول لنفسي: كل شيء على ما يُرام، عندئذ تبدأ تحكي حكاية مرضها، تحكيها كمغامرة، وكأنها تريد القول: أُنظر، لقد اجتزت كل هذا، وعانيت من كل هذا، ونجوت منه حتى الآن!

٢٢٥

تقع دار النقاهة على بحيرة كبيرة ليست بالعميقة، تسمّى موريتس. أرقد على سرير كبير في غرفة ذات شرفة، وهي تطل ـ نظرياً ـ على البحيرة، غير أن الأشجار نمت أمامها، وحجبت الرؤية. في بعض الأحيان أقف في الشرفة وأبحث ببصري عن عُقاب أبيض الذنب يُقال إنه يعيش في المنطقة. لكنني لا أرى شيئاً.

٢٢٦

يتقابل ثلاثمئة أو أربعمئة مريض في دار النقاهة بخطوات عرجاء، في الفطور والغداء والعشاء، في الطريق إلى البوفيه، وعند الدخول والخروج. ثمّة مريضان أصغر منّي، اجتاز كلاهما عملية زرع كلية، أما الآخرون ـ مرضى قلب أو معدة أو أيّ شيء آخر ـ فكلهم أكبر منّي، بل أكبر منّي بكثير جداً. من المحتمل، أقول لنفسي، أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أكون فيها، في مكان ما، أحد أصغر الناس سناً. صباحاً وظهراً ومساءً نجلس معاً إلى المائدة، في ما عدا ذلك نقضي وقتنا في ما وُصف لنا من علاج وأنشطة. الإقامة هنا شاملة، All inclusive. ثمّة جداول لكل يوم، وتتردّد الشائعة التي تقول إن مَن لا يذهب إلى عدد كبير من الجلسات العلاجية، يتحتّم

عليه في النهاية أن يتحمّل تكاليف فترة النقاهة. لا أصدّق هذا، ولذلك أظلّ في فراشي وأتخلف عن الرياضة المبكرة في الغابة في السادسة والنصف صباحاً، كما أتغيّب عن دورة صنع السلال. أذهب إلى النادي الرياضي، فهذا شيء لن يسبّب ضرراً. يجب عليّ أن أستخدم أجهزة اللياقة البدنية، وأن أمارس التمارين الرياضية، والتدرّب على الملاكمة، أترجّح بين دورة الفخار ونحت الحجر الأملس، أسمع محاضرات عن تناول مثبطات المناعة مدى الحياة والأخطار الناجمة عن ذلك؛ وأتعلم أسماء كل الأطعمة غير المسموح بتناولها: الطعام النيء، وغير المُقشر، وكل شيء ينبت في التربة. لا خسّ بعد اليوم. وعموماً فإن أفضل شيء أن أقتصر في طعامي على المُغلف والمجمّد، أو ما جُعل صالحاً للتناول. مُعلبات. والأفضل ألا أتناول شيئاً يبدو صحّياً من محلّ الطعام العضوي، ثمرات النيّة الحسنة تحتوي على جراثيم كثيرة للغاية، لا لحم نيئاً، لا سوشي، ولكن الأمر ليس سيئاً، فعمّا قريب ستخلو البحار من أيّ أسماك على في أي حال. والحذر من التجمعات البشرية الكبيرة، من حمامات السباحة، من الأطفال الصغار، ومن المرضى. أعرف أنني لن ألتزم كل هذا دائماً. أجلس هنا، أُصغي إلى ما يُقال، أو لا أصغي، أشعر كأنني عدت إلى المدرسة، أرسم أشكالاً بشرية وغير بشرية على ورق الدفتر ذي السلك اللولبي، وأنتظر، للأسف بلا جدوى، أن يُدق جرس الاستراحة الكبيرة. منذ زمن المدرسة لم أشعر بمثل هذا الملل. أبدأ برسم أشكال بشرية على الطاولة، وأفكر في أسماء الفرق الموسيقية التي يمكن أن أحفرها على سطحها، ولكن لا يخطر ببالي

سوى الفرق التي كنت أحفر اسمها في الصف التاسع أو العاشر. The Smiths, The Cure, Sioxsie, the Banshees.

٢٢٧

الأحاديث على الطاولة تدور حول موضوع واحد: دائماً يتكلمون عن الأمراض، من دون أي عوائق أو خجل، وكأن المهم هنا هو أن يزايد كلٌ على الآخر. كل واحد يريد أن يكون قد مرّ بقصّة أسوأ من غيره، أو على الأقل يعرف تلك القصّة. يتباهون بالمرض، وكأننا في مسابقة الأقدار الصعبة، وأسوأ قصّة مرض هي التي تربح. لم يعد المرض عيباً، على العكس، في عالم النقاهة وإعادة التأهيل فإن المرض هو إعادة تقييم كل القيم، ووسام على صدر المريض. لقد جمعنا كلنا في أي حال حول هذه الطاولة.

أحاول ألا أنصت دائماً، أقرأ أثناء الأكل الصحيفة. رغم ذلك أدرك بمرور الوقت أن كل مرض، مهما كان، يمنح مريضه حكاية. حكاية يحب أن يحكيها المريض، أو تحب أن تحكيها المريضة، المرة بعد الأخرى، بعد تزويدها بزخرفات، وإبطاء إيقاعها، وتطويلها وإضافة التحولات الدراماتيكية عليها. أن تسمع نفسك تحكي معناه أنك ما زلت تعيش. أن تتكلم معناه أنك لم تمت. ولكنني لم أعد أتحمّل هذا اللت والعجن. لقد حصلت على كفايتي منه إلى الأبد.

٢٢٨

أتعلم المشي مرة أخرى. كل يوم بضع خطوات أكثر، كل يوم مسافة

أطول. أستطيع المشي عشرة أمتار، عشرين متراً، أستطيع المشي حتى البحيرة. أشم الغابة والصنوبر، فالأشجار كثيفة هنا، الأرض مغطاة بثمار البلوط والكستناء ما يجعل السير طريّاً. في الأسبوع الثالث أصبحت لديّ رياضة محبّبة جديدة، الرياضة اسمها Nordic Walking. أسخر من هذه الرياضة، ثم أكتشف أن «النوردك ووكينغ» يسبّب متعة وبهجة بالقدر نفسه الذي يبدو فيه سخيفاً ومضحكاً. ألا يبدو المشي سخيفاً جداً؟

## ٢٢٩

يأتي الزوار إلى البحيرة، الصديقة أو الصديقة السابقة، لسنا متأكدين في هذه المسألة تماماً، الطفلة مع أمّها، السيد والسيدة روتشكي، السيدة هانيكا، السيدة روزينغر، السيد أنغيله، السيد ميركل. نجلس على دكك في الشمس، في المقهى، على البحيرة.

## ٢٣٠

أودّ الذهاب إلى الحلاق، منذ مدة طويلة لم أقصّ شعري، منذ أسابيع وأنا أريد الذهاب إليه، أريد التحرّك، ولكن القراءة في دفتر الملاحظات الأسود القديم، الذي لا يزال في حقيبتي، تكبّلني. أقرأ «الزرافة المتعبة»:

لماذا أنا متعب هكذا؟ أنا متعب إلى درجة أنني لا أستطيع النوم.

*

هل أنا متعب لأنني أرقد على السرير؟ أمتعبٌ أنا لأنني عايشت

أشياء كثيرة جداً؟ هل عايشت بالفعل شيئاً؟ أأنا متعب لأنّني لم أعايش شيئاً بعد؟

*

يحلّ التعب بعد الأكل، مع امتلاء المعدة. وفي الصيف مع الحرارة. وفي الشتاء. وفي الخريف أيضاً. أمّا تعب الربيع فلا أودّ التحدّث عنه.

*

أأنا متعب لأنّني تحدثت مع أشخاص أكثر من اللزوم عن أشياء أكثر من اللزوم؟ لأنني قلت أكثر من اللزوم؟ ماذا قلت؟

*

أنت تحكّ عينيك، تقول أمّي. حكّ العينين علامة على التعب. وأنا الذي كنت أعتقد أن بالحكّ يُطرد النوم أو التعب من عينيّ.

*

النوم الذي يلتصق صباحاً بالأجفان: هل هو مادّة النوم، أم هو الطبقة المترسّبة من التعب؟

*

أنت تتثاءب ـ كانت هذه هي الجملة الأخرى التي تقولها أمّي. كانت تفسّر التثاؤب أيضاً كعلامة. ولهذا كنت أحاول

أن أقمعه في حضورها مساءً. ولكن قمع التثاؤب ليس سهلاً على الإطلاق.

*

ولماذا أنفر إلى هذا الحد من التثاؤب العالي الصوت، وكما لا أفعل مع أيّ حركة أخرى تنمّ عن عدم اللياقة؟ من أين أتت هذه الحساسية المفرطة؟

لا صوت يصدر عن الجسد ينفرني للغاية مثل التثاؤب. هل لأنني ـ شخصياً ـ دائماً متعب؟

*

الكلمة وحدها، حرف الألف والواو. نطق كلمة «تثاؤب» يعني تقريباً أن تتثاءب.

*

أصبح مُتعباً لمجرد التفكير في كل ما يمكنني فعله. الإمكانيات العديدة تصيب بالتعب.

*

الإعياء (باللاتينية defatigatio) هو تعبير عن شعور بعدم الارتياح نتيجة إرهاق أو مرض أو احتياج غير مُشبع إلى النوم. هذا بالتقريب ما نقرأه على صفحة ويكيبيديا. ولكن لماذا؟ أليس الإعياء الذي نشعر به بعد بذل مجهود شيئاً جميلاً؟ أليس الإعياء الحقيقي مكافأة؟

*

يصيب العمل المتواصل بالتعب، عدم العمل والوخم يصيبان أيضاً بالتعب.

*

ينشأ الإعياء الجسدي من عدم التوازن بين الإرهاق والراحة، مثلاً عند الإرهاق الذهني أو الجسدي الشديد، أو من قلة النوم، أو بسبب غياب الحافز، أو من الملل.

*

لأنني دائماً متعب، تعطيني أمي منذ العام المدرسي الثاني قهوة في الصباح مع حليب كثير. إن أردنا الدقة، كانت تعطيني حليباً مع قليل من القهوة.

*

منذ سنوات تصيبني القهوة بالتعب أيضاً. في فترة ما كان للقهوة أثر منشط. للأسف ولّى هذا الزمن، لم تعد القهوة قادرة على طرد خمولي. (تبدو كلمة «منشط» اليوم وكأنها جالبة للنعاس، وكأنها مأخوذة من إعلان عن القهوة من القرن الماضي).

*

يا إلهي، شاب مثلك، لماذا أنت متعب هكذا؟ يسألني الرجل المسن. للأسف لا أستطيع أن أشرح لك.

*

قد أكون متعباً لأنني أنوب عن جدّي في التعب. فهو نادراً ما توفر لديه وقت لكي يرقد وينام؛ لأنه كان عليه أن يأتي إلى المنزل من معسكر أسرى الحرب سيراً على الأقدام. هل نَقَلَ إليّ تعبه؟ هل عليّ أن أكون متعباً بدلاً منه؟

*

أشعر كأن أحداً يعيش على حسابي، أم أنني أنا الذي فعل ذلك؟

*

يجتاحني شعور بالتعب الخانق والقاتل، بعد أن أذهب بالطفلة إلى الفراش. تختلط بهذا التعب الرغبة في السُكر. أعتقد أن والديّ كانا يفعلان ذلك. ما أكاد أذهب إلى الفراش، حتى تُفتح زجاجات النبيذ.

*

كنت معجباً وأنا طفل بقدرة البالغين على الاستغراق فوراً في النوم. كان والدي يمدّد جسده، ويغمض عينيه، وينام. ما إن يسترخي حتى يستغرق في النوم. اليوم الوضع معكوس: الطفلة تنام على الفور، وأنا، البالغ، أظلّ راقداً لساعات مستيقظاً، إذ إنني أجد نفسي أفكر في هذا وفي ذاك، ثم في آلاف الأشياء الأخرى.

*

ثم أغفو، وأستيقظ بعد برهة ثانية. وأسأل نفسي هل التعب هو

الذي أيقظني. يا له من هراء!

*

أنا متعب من كل هذه الهموم التي تشغلني. إنها وخزات ضميرك الذي لا يدعك تنام، أسمع أمّي تقول. هذا هو السبب إذاً.

*

التعب الناتج عن الفراغ. لعله أكثر سلوك إنساني إنسانيةً أن يقول الإنسان لنفسه: سأبقى راقداً، اليوم لن أفعل شيئاً، سأنتظر ببساطة، لن أنهض من الفراش، هل أصبحت أوبلوموف[1]؟

*

لكن الإنسان ينهض، رغم أنه يشعر بالإنهاك التام. لا أستطيع تخيُّل الحيوانات وهي تفعل ذلك، فالحيوانات لا تضبط المنبّه.

*

تنام الكلاب كثيراً، أمّا الزرافات فلا تنام تقريباً. على الرسم البياني الذي يوضح مدّة نوم حيوانات ثديية مختلفة يشغل الإنسان موقعاً متوسطاً تقريباً. هل يصعب على الزرافات أن ترقد ثم تنهض ثانيةً؟ هل تستهلك طاقة كبيرة أثناء ذلك؟ هل تشعر بخدر في قوائمها عندما ترقد؟ هل هناك علاقة بين قلة نومها ورقبتها الطويلة؟ ألا ينبغي أن تشعر الزرافات بالإرهاق

(١) Oblomow: عنوان رواية روسية للكاتب إيفان غونتشاروف Iwan Gontscharow (١٨١٢-١٨٩١). نُشرت الرواية عام ١٨٥٩، وهي تعالج موضوع طبقة النبلاء الروسية الغارقة في الكسل والسلبية. (المترجم)

الفظيع؟ أم هي ـ في نهاية الأمر ـ لا تجد وقتاً للنوم، لأن عليها أن تأكل باستمرار، في كل يوم نحو ثلاثين كيلوغراماً من الأوراق، وهو ما يستغرق من ست عشرة ساعة إلى عشرين؟

*

إن تحتم على الإنسان أن يأكل كثيراً مثل الزرافة، فلن يفعل شيئاً آخر. لن يكون لديه وقت لبناء الكاتدرائيات وصنع الطائرات وتشييد المستشفيات، لا وقت لقراءة الكتب وكتابتها، لا وقت للسينما أو أيّ شيء آخر.

*

تحتاج «الفئران المتغايرة» إلى عشرين ساعة من النوم. هل تُلتَهم معظم هذه الفئران أثناء النوم؟

*

قصّة التعب لديّ هي قصّة الأرق. ليس صحيحاً مطلقاً أنّ مَن يشعر بالإرهاق الشديد يستطيع النوم أو الاستغراق في النوم بسهولة. هذه محض أكذوبة.

*

أنا متعب بلا أيّ سبب.

*

أجمل أنواع التعب هو الإسباني، تعب النعاس، tengo sueño. تجعل الإسبانية من التعب حُلماً.

*

وهناك هذا التعب الجميل للغاية، صباح الأحد، الذي ينساب ويختلط بتعب عصر يوم الأحد. كم هو جميل أن تتنقل بلا جهد من تعب إلى آخر.

*

الغريب أن المياه في الشلالات لا تتعب من السقوط، أقول لنفسي عندما وقع بصري على صورة لشلالات نياغارا.

*

أليس «عدم الرغبة في المزيد» شعوراً أكثر إنسانيّة بكثير من «الرغبة دائماً في المزيد»؟ أيُّ حيوانٍ يستطيع أن يقرّر الاعتزال؟

*

في أيّ شيء أفكر عندما أكون متعباً؟ هل تكون لديّ أساساً القدرة على التفكير؟ يا لها من حالة رخوة!

*

هل ما زال ثمّة شيء في رأسي؟ المفاجأة: الفراغ هنا هو السيد. وهذا الفراغ يكاد يكون مثيراً للاهتمام، إذا استطعت أن أجد طاقة للاهتمام به.

*

هل يسبّب نقص الأكسجين التعب؟ ألا أحصل على هواء

كافٍ؟ هل أختنق ببطء هنا على الأرض؟ هل خُلقت ربّما ـ يا له من وهم جميل ـ للعيش في أجواء أخرى؟

*

التعبُ جبلٌ أتدحرج عليه، وادٍ عميق، سهلٌ، واسعٌ ورحبٌ وفارغٌ وصخري في آن. يتّسم بطوبوغرافيا لابلورية لكوكب مجهول. للأسف أنا متعب إلى حدٍّ لا يسمح لي بأن أكتشفه. أفضّل الاستغراق في النوم.

*

أنا منهك إنهاكاً فوق الوصف. غير معقول. الإنهاك فوق الوصف.

*

لا تشعر الطفلة بالتعب أبداً، تنكر تعبها دائماً، بل تحاول بالفعل أن تنفي التعب. كلما بقيت مستيقظة فترة أطول، زاد نشاطها، إلى أن يمسي هذا الإفراط في النشاط إعياءً شديداً.

*

التعب الكيميائي اللطيف، التعب الجميل الناتج عن البروبوفول، يمكنني أن أتعوّده. كان مايكل جاكسون يستطيع النوم بعد تناول البروبوفول. الآن ينام إلى الأبد.

*

التعب من الحياة: أن ترغب في التوقف ببساطة. يأتي على

شكل موجات. المرّة تلو الأخرى. يأتي أيضاً إليّ.

*

كم هو غريب أن أنام ملء جفوني وألا أشعر بالتعب، لأنني استطعت في وقت ما الاستغراق في النوم. ولكنني بالطبع لا أتذكر ذلك.

*

لماذا أشعر بكل هذا التعب؟ لماذا لا أستيقظ؟ لماذا أريد بعد النهوض من الفراش العودة مباشرة إلى النوم؟ بسبب الشتاء فحسب، وبسبب عدم وجود أوراق على الشجر؟ هل هذه هي جينات السبات الشتوي لديّ؟

*

لماذا لا يمارس الإنسان السبات الشتوي؟ ألأنه لا يستطيع افتراس وتخزين ما يكفيه لكي ينام شهرين أو ثلاثة أشهر؟ سيكون جميلاً أن نستغرق في النوم في كانون الأول، لنستيقظ في منتصف آذار عندما تكون شجيرات الفورسيثيا مزدهرة.

*

غالباً ما تستغني الطيور المهاجرة عن النوم تماماً، وتطير لياليَ بأكملها.

*

أم تنام الطيور خلال الطيران؟ في معظم الأحيان تغمض عيناً

واحدة فقط، وتظلّ العين الثانية تراقب الأجواء. يُقال إن النوم الأحادي لا يقلّ فائدة للنصف المستريح من المخ عن نوم الليل العميق.

*

سيكون جيداً لو استطاع الإنسان أن ينام بنصف مخّه فقط. بالتأكيد سيكفي نصف المخ تماماً لمشاهدة التلفاز وللقيام بأنشطة أخرى عديدة.

*

الجلوس على الكنبه والنظر إلى الفراغ. الحزن المقيم، التعب، الإرهاق على نحو آخر.

*

التعب يفرّق، متعباً أكون وحيداً تماماً.

*

الجنس يسبّب التعب. غفوة ما بعد الجماع سهلة، لكنها ليست دائماً مرغوبة.

*

وبالرغم من التعب، يحدث أحياناً أن تأتيني فكرة. هل صحيح أن التعب يكون مصدراً للإلهام؟ لست متأكّداً تماماً من صحّة ذلك.

*

متعباً للغاية أكون لطيفاً. متعباً يكون قلبي ليّناً.

*

التعب ـ مَن قال ذلك؟ ـ هو ألم الكبد.

٢٣١

أجلس أخيراً عند الحلّاق الذي يقصّ الشعر الطويل، وألاحظ أنني لم أعد متعباً. وأعرف السبب.

# ثلج

يمكننا افتراض معرفة السيرة المرضية التفصيلية للمريض جيداً. عرض السيد «ف» نفسه في قسم الإسعاف والطوارئ بسبب معاناته من تقلصات في البطن. المريض يتناول مثبطات المناعة. أثبتت نتائج الفحص الفيروسي وجود فيروس مضخّم للخلايا، بنسبة ٢٠٠٠٠٠/٧. لهذا بدأنا بحقْن المريض في الوريد بـ«سيمفن» كعلاج مضاد للفيروسات، كما أجرينا فحصاً منظارياً وقائياً للقولون أكّد الاشتباه في وجود التهاب في القولون.

٢٣٢

على الفور تعرّفت الغرفة إليّ. السرير، المصباح، الكومودينة، النافذة والمنظر الذي تطلّ عليه، كلها تهمس: ها أنت هنا ثانيةً، أخيراً عدت من دار النقاهة، عدت إلينا.

ثمّة مضاعفات: لا أستطيع ولا أريد أن آكل شيئاً، لا أستطيع أن أشرب شيئاً، أعتمد على المحاليل. والسبب هو الفيروس المضخم للخلايا، وهو في العادة فيروس غير خطِر، لكنه يغدو خطِراً في حالات ضعف الجهاز المناعي. يعطونني حقنة في الصباح وأخرى في المساء، وأدوية قلوية قويّة تهاجم الأوعية الدموية. ثم الحقن بين كل حين وآخر، مكان الوخزات يظهر لديّ في صفين باللون الأحمر فوق كلتا ذراعيّ، وفي النهاية يبحث الأطبّاء عن أوردة في القدمين، أشعر بنفسي مثقوباً. لا يخطر ببال الأطباء أن يحقنوني تحت اللسان كما كانت يوليا تفعل عندما كانت مدمنة مخدّرات. لحسن الحظ. أحتفظ بهذه الإمكانية لنفسي.

٢٣٣

أشعر بالوجع في كل مكان، مزاجي سيّئ، لم أعد أريد. حتى صوت أمي القائل «تماسك قليلاً وكن رجلاً» لم أعد، على سبيل الاستثناء، أسمعه.

٢٣٤

أقلّب في الصحيفة وأقرأ حكاية فيتانجلو بِني، وهو شرطي إيطالي متقاعد زار زوجته في المستشفى. وهناك، رحمةً بها، وضع منشفتين عليها ثم قتلها بمسدّسه. رصاصتان في الرأس، ورصاصتان في الصدر. قال الشهود إنه كان كعادته هادئاً ولطيفاً عندما دخل غرفتها في المستشفى، لم يلفت نظرهم سوى حقيبة سفر صغيرة كان يحملها. جلس على فراش زوجته، ومسح على رأسها، ثم همس بشيء في أذنها، بعد ذلك تناول منشفتين ووضعهما على وجهها وصدرها، وقبل أن يستطيع أحد أن يتدخل كان قد أخرج مسدّساً وأطلق النار مرّتين. ثم أطلق رصاصتين أخريين لأنه لاحظ أن زوجته، البالغة من العمر ٨٢ عاماً، ما زالت تتنفس. عندئذ جلس على كرسي، وأخرج هاتفه المحمول من جيبه واتّصل بالشرطة، بزملائه القدامى. «لم أستطع أن أتحمّل رؤيتها تعاني هذه المعاناة الشديدة، إنها الآن ترقد في سلام»، يُقال إن هذه كانت كلماته عندما قبضت عليه الشرطة. كان قد حزم الحقيبة من أجل السجن.

هل يأتي أحد، أسأل نفسي، ويشعر بالشفقة تجاهي، ويطلق عليّ الرصاص؟

٢٣٥

الطفلة هي سبب بقائي هنا أصلاً، لا يخطر ببالي سبب آخر. نعم، أعرف أن غياب ماما أو بابا فجأة شيء ليس جميلاً.

زارتني ابنتي هنا مرّة، مع أمّها. لم يعجبها ذلك، كانت تريد الخروج من المستشفى على الفور. لم يكن هذا أباها الذي رأته راقداً، بل رجل غريب تصله أنابيب بأجهزة، مريض غريب الأطوار.

ما زلت أتذكر أنني أنا أيضاً ـ رغم كوني آنذاك أكبر من ابنتي بكثير ـ لم أهتمّ كثيراً بأمي في المستشفى. لم أكن أريد أيّ علاقة مع المستشفى، بل لقد كرهت زيارة المستشفى. كانت أمّهات زملائي في الصف اللواتي يتمتعن بالصحّة ويلعبن التنس ويقدن الكابريوليه يثرن إعجابي أكثر بكثير من المرأة المحتضرة على فروة الخروف.

٢٣٦

يطير دبّور المرّة بعد الأخرى أمام الشباك، وينقر من الداخل على اللوح الزجاجي، ينقر بجسده كله، يريد الخروج، لكنه لا يتقدّم خطوة إلى الأمام. الحائط الزجاجي يمثّل شيئاً لا يفهمه. سرعان ما ينقر على اللوح أبطأ فأبطأ، الآن يزحف، السجين يريد الانطلاق إلى السماء. أفكر في الأمر: هل أدعه يلسعني، أم أقتله بضربة واحدة من الجريدة الملفوفة. القتل بالجريدة كان طريقة أبي ـ كان عليه أن يفعل ذلك أحياناً لأن أمي كان لديها خوف هستيري من الدبابير، وكانت تصرخ عندما ترى دبّوراً واحداً. يمكنني أن ألفّ الجزء الاقتصادي والثقافي من الجريدة وأهوي بهما، لست بحاجة إلى التحرّك بسرعة شديدة أو إجهاد نفسي، الدبور منهك.

أفكر في الحيوانات التي قتلتها، في الكلاب التي وقعت في المختبر ضحيّة الجرّاح شتارزل، وفي الأحلام التي أعتقد خلالها

أحياناً أنني قتلت إنساناً، أحلام الذنب التي يطفو فيها تأنيب الضمير فوق كل شيء، ويتّضح لي عندئذ: عليك أن تتعايش مع ذلك. بعد الاستيقاظ أشعر دائماً بانزياح الهمّ عن صدري عندما يتكشّف لي أنني ربما لم أقتل أحداً. حقاً؟ ألا أتحمّل مسؤولية موت هذا أو ذاك؟ موتك أنتِ؟ هل ينبغي أن أشعر بالذنب لأنني نجوت، بينما لم تنجي أنتِ؟

٢٣٧

وأنا أفردُ الجريدة مرة أخرى، أكتشف إعلان وفاة السيد الذي كان يجلس قبالتي بشكل مائل إلى المائدة في دار النقاهة. في قاعة الطعام الضخمة كنّا الوحيدين في الصباح اللذين يقرآن الجريدة ويريح كل منا الآخر من سرد تفاصيل المرض. من دون أن نتبادل كلمة واحدة ساد الاتفاق بيننا على اعتبار مطالعة الصحيفة أكثر إثارة من حكايات زرع العضو الجديد. الآن أقرأ أنه تُوفي قبل أسبوع، وهو ما يذكّرني، رغم أني أحاول ألّا أفكر في ذلك، بأن نحو عشرين في المئة من الذين أُجريت لهم عمليات زرع أعضاء يموتون قبل أن تنقضي السنة الأولى. في أي حال، عمّا قريب سأكون قد تجاوزت الثلاثة أشهر.

من «ب» أعرف أن فرص البقاء على قيد الحياة في أميركا أفضل كثيراً. ولكن هذا يرجع فحسب إلى أنهم لا يجرون عمليات زرع أعضاء على الإطلاق في معظم الحالات التي تكون فيها حالة المرضى سيّئة للغاية، وبالتالي لا تكون فرصهم في البقاء على قيد

الحياة كبيرة. المستشفيات التي تتباهى بنسب النجاح لديها، تفضّل إجراء عمليات نقل أعضاء في الحالات السهلة.

٢٣٨

مرة أخرى يحالفني الحظ. المادّة السحرية العدوانية لها مفعول جيد، نسبة الفيروسات في الدم تتراجع. كان من الممكن أن يطول الأمر أكثر من هذا بكثير. ألقي نظرة خارج النافذة، أوراق الشجر تلوّنت وتتساقط. قل لي مرّة أخرى، ما اسم هذا الفصل؟ في القناة تُفرَّغ سفينة محمّلة بالفحم، أرى قطار الضواحي المعروف بقطار «الإس بان» يمرّ من بعيد بعرباته ذات اللون الأصفر والأحمر، وبعدها قطار بضاعة، سماء بيضاء.

٢٣٩

رأيت الفصول الأربعة كلها تقريباً هنا، لا ينقصني سوى الشتاء. لا بدّ من أن أنتبه لأمنياتي، إذ إن الثلج يبدأ على الفور بالهطل. يهطل بكثافة، ندفات سميكة، ثلج يجعل الإنسان مبتهجاً، هكذا، بلا سبب. أحاولُ، المرّة تلو الأخرى، تَتَبُّعَ طيران ندفة ثلج، قد تكونين أنتِ هذه الندفة. يمرّ وقت طويل من دون أن أنجح في ذلك، إذ إنها تبدو كلها متشابهة تماماً، رغم أنني قرأت مرة أنه، طوال تاريخ الأرض، لم تسقط من السماء قطّ ندفتان متماثلتان، ذلك أن احتمالات التبلور كبيرة بشكل لا يمكن تخيّله.

خسارة، لقد توقف هطول الثلج. ولا شيء يبقى على الأرض.

٢٤٠

أرقد تحت غطاء نظيف، القهوة على الكومودينة؛ يا لها من صورة نموذجية لمستشفى، لمصحّة ريفية! وهناك أتلقّى التحذيرات لأنني خلّفت فوضى هائلة على صينية الإفطار. لقد فعلت مثل الطفلة التي أعدّ لها شرائح الخبز، قطعت الحافة الصلبة للشرائح، ثم صنعت منها كومة، وككل صباح تقريباً، أكلت بالملعقة بقايا عبوات العسل والمربّى. ربما أنا الدبّور.

٢٤١

أتقابل في الممرّ ثانية مع المرأة العصبية، العملاقة. تقاطعت طرقنا كثيراً، ومثل كل مرة بدأت على الفور تحكي: أنها تشعر بكبدها الثالثة وكأنها التهمت إنساناً آخر. تحدثت عن ذلك من قبل، في الغرفة المشتركة، ذات ليلة عندما لم نستطع، هي وأنا، أن ننام. تقول إنها أكلت إنساناً آخر، نعم، لقد أطعموها لحماً بشرياً في غرفة العناية المركزة، والرجل الذي التهمته كان رجلاً وسيماً وقوياً للغاية. لكنه أيضاً قاتل لقي مصرعه خلال هروبه من الشرطة، ولهذا أُصيب في الرأس، تتحدث عن موته الدماغي، إلى آخره.

لا أستطيع للأسف التحدّث معها عن خيالاتها الآكلة للحوم البشر، فهي لا تريد سوى التحدّث بمفردها. تعجبني فكرتها، فهناك شعوب أصلية تؤمن بأنها تستطيع اكتساب شجاعة الأعداء المهزومين خلال طقس كانيبالي، ولا يعني هذا أن المحاربين المقتولين يُلتهَمون

بجلدهم وشحمهم. يكفي في الغالب تناول قطعة من القلب والكبد.

أسأل نفسي: ألم أكتسب أيضاً شجاعتك، هذه الفضيلة التي طواها النسيان تقريباً؟ هل هذا هو سبب تحمّلي كل هذا؟

٢٤٢

تقول لي الممرّضة التي تودّ أن تعمل قريباً في مزرعة والديها، إن مريضة تعتقد في غمرة حماستها لبقائها على قيد الحياة، أنها ربحت في اليانصيب أعلى مبلغ. اتصلت بكل أصدقائها وقالت: لقد ربحت ملايين، اشتروا ما تريدون، سأدفع ثمن كل شيء. ثم وعدت الطبيب الأول في القسم بعشرين مليوناً لتوسيع المستشفى.

في الحقيقة، هذا صحيح، لقد ربحتْ. لقد ظلتْ على قيد الحياة، العالم ملكها.

لكن حماسة البقاء على قيد الحياة، هذا ما لاحظته، لا تدوم للأسف طويلاً. الأيام الفظيعة، اللانهائية، الخاوية، المفعمة باليأس، كلها ستعود. رغم أن لديّ الآن حياة جديدة، كل شيء على الصفر، البداية من جديد مرة أخرى. ألا ينبغي أن أهلّل من الصباح حتى المساء؟ كل يوم؟ بلا توقف؟

٢٤٣

مرة أخرى أرى في الشارع رجلاً يرتدي «أُفرول» ويقود درّاجته وسط السكون، يقود درّاجته بخفة فوق الأسفلت في خطوط

متعرّجة، وكأنه عقد سلاماً مع العالم كله. من الواضح أنه ليس متعجّلاً.

عندما أنحني من النافذة المفتوحة لكي أتابعه ببصري، ألاحظ أنني لا أستطيع القفز بسهولة من هذه النافذة. في الطابق الأسفل يمتد من الواجهة إفريز مغطى بالحصى، سقف مسطح ينتهي بشكل مائل. لا أستطيع مدّ رأسي خارج النافذة إلا لأنّني تسوّلت المفتاح الذي يفتح النافذة على مصراعيها من الممرّضة التي أتفاهم معها تفاهماً ممتازاً في الوقت الحالي. إذا قفزت الآن من هذه النافذة، فسوف تواجهها متاعب كبيرة.

في بعض الأحيان أسهّل الأمر على نفسي وأفكر في الطفلة التي تستطيع أن تفرح على نحو لا يصدّق. يساعدني ذلك، فالفرحة تنتشر كالشعاع. هذه هي حيلة الأطفال التي تنجح في الغالب.

٢٤٤

ما زلت عند النافذة، أحصي السيارات في الموقف. الأماكن الثمانية أو التسعة محجوزة، لوحات بأرقام السيارات تبيّن الأماكن المحجوزة لهذه السيارة أو تلك. تبرز من بين السيارات سيارة فولكسفاغن من موديل «الخنفسة»، إنها تشذ عن سيارات «الأودي» أو الـBMW الأكبر كثيراً. وعموماً لم يعد المرء يرى سيّارات «الخنفسة» إلا نادراً، أقول لنفسي. لقد تغيّرت الأمور من سنوات طويلة، ولم يعد الناس يقصدون «الخنفسة» عندما يقولون «فولكسفاغن».

٢٤٥

كانت أمي ـ حتى وإنْ كنتُ لا أستطيع تذكّر ذلك، إذ إنني لا أعرف ذلك إلا من الصور القديمة في أحد الألبومات ـ تقود خلال سنوات حياتي الأولى سيّارة من موديل «الخنفسة». أنا إذاً، هكذا أتخيّل الأمر، ركبت بعد ولادتي «خنفسة» أوصلتني من المستشفى إلى البيت.

٢٤٦

فيرينا أيضاً كانت لديها «خنفسة»، وأحياناً كانت تمرّ بي لأركب معها. كانت قد ورثتها من جدّتها. وبالرغم من أنها حقوقية، كانت تجلس كثيراً في مكتبة قسم اللغات الرومانية، وفي الحقيقة كانت تفضّل أن تدرس الإيطالية وآدابها. كتبت رسالة الدكتوراه عن موضوع قانوني لم يكن يثير اهتمامها كثيراً. عانت من سطوة والديها، الأب، رئيس محكمة الولاية العليا، والأم محامية ناجحة للغاية، وتكاد تكون مشهورة. كلاهما حوّل حياتها إلى جحيم.

كنّا نتقابل بين الحين والآخر في الكافتيريا القديمة لجامعة برلين الحرّة، أو عند مدخل المكتبة، وكانت تأخذني معها إلى حيّ كرويتسبرغ حيث كنت أسكن أنا في ناحية من «غورليتسر بارك»، وهي تسكن في الناحية الأخرى. ولأن والديها كانا ينفران من المنطقة، انتقلت للسكن هناك، لا إلى المنزل في شمارغندورف الذي كتبه والدها باسمها، حيث تنتظرها هناك شقة أخرى أكبر كثيراً

من شقتها الحالية. بجانبها في «الخنفسة»، حيث كان كل شيء يهتز اهتزازاً خفيفاً، كنت أنظر إلى شفتيها الممتلئتين والطريتين، وكأنها أجرت لهما عملية تكبير، ولكنها لم تفعل ذلك، وكنت أتخيّل أن أعيش معها ذات يوم في هذا المنزل القريب من غابة «غرونه»، حيث كنت معها ذات مرة عندما مررنا به. كنت أتخيّل نفسي متزوّجاً بها، رغم أنني كنت دائماً أشعر معها ببعض الملل، وإنْ على نحو مريح للغاية. الغريب أن خيالي كان يرسم، حتى قبل أن نتبادل القبل لأول مرة، كيف سأخونها في ما بعد، خلال المداعبات الأولى الرقيقة الحذرة في سيّارتها كنت أعرف كم من مرّة سأكذب عليها، بل كتبت في رأسي النهاية السيّئة لقصّة حبّنا، قبل أن تبدأ أساساً.

بعد سنوات اتصلت بها مرّة عن غير قصد. حكت لي أن لديها ابنة في الثانية من عمرها، وأنها متزوّجة بطبيب نفساني، وتسكن في شمارغندورف، وأنها حامل مرة أخرى.

## ٢٤٧

أينما نظرت، رأيت طبيعة صامتة. هل لأنّ لديّ الكثير من الوقت؟ أكثر من اللازم بكثير؟ ولهذا أستطيع الحملقة طويلاً في الجدار وفي الكومودينة وزجاجات المياه وعبوات العصير والكتب التي لم تُقرأ بعد، إلى أن يتحول كل شيء أحملق فيه إلى طبيعة صامتة. ربما رغبت في رؤية طبيعة صامتة فحسب، لأن اسمها بالفرنسية natures mortes؟[١]

(١) أي: طبيعة ميتة. (المترجم)

أنا الآن أحيا ولا أعيش، كسول ومتعب. إنّني أنتظر، غير أنّني لم أعد أرغب في الانتظار. لم أعد أعرف ماذا أنتظر.

٢٤٨

عاصفة في الخارج. هل هذه العاصفة الخريفية تحوّل درامي؟ أشجار الكستناء أمام النافذة أصبحت فجأة صلعاء، فقدت كل أوراقها تقريباً، كلها. تمطر في الخارج، في الداخل لا، أظن أنها تمطر بغزارة. لا أعرف ما إن كان الناموس سينجو من هذا المطر، ما إن كان الناموس لا يزال على قيد الحياة الآن. تخطر ببالي مرة أخرى الأحاديث عن جمع أوراق الشجر المتساقطة في الحديقة. في العام السابق أو ما قبل السابق سمعت تلك الأحاديث هنا. الآن سقطت أوراق مرة أخرى.

٢٤٩

أحلم أنهم أفرجوا عنّي، وأنني غادرت السجن إلى المنزل. هناك من ينتظرني لتوصيلي، ماما وبابا، أنا ـ يا للغرابة ـ في الخامسة من عمري مرة أخرى، وأعود إلى بيتنا. ما زالت حجرتي هي الحجرة ذات النافذتين المطلتين على الحديقة التي تهبط أرضيّتها قليلاً في نهايتها تجاه المدق. ألم نهجر هذا البيت منذ سنوات طويلة؟ ألم يُبَع البيت؟ ألم تمت جدتي التي كانت تسكن معنا هناك؟ ولماذا تحيا أمّي ثانيةً؟

٢٥٠

أرى في الممرّ رجل التفاح السيبيري. يرتدي القميص ذا المُربّعات

نفسه كما كانت الحال قبل أسابيع، ويمسك بكيسين من البلاستيك، وكأنه يتشبث بهما. أومئ إليه وألقي التحيّة، لكنه لا يلاحظ وجودي. يدفع بطنه الممتلئ عن آخره بالمياه مرة أخرى حتى يصل إلى باب غرفة الممرّضات، وينحني في خنوع، ويطلب من إحدى الممرّضات أن تسمح له باستخدام الهاتف، مرّة واحدة، مرّة واحدة فقط. تسمح له الممرّضة، إيماءات الخضوع، وحركة الخنوع الرمزية، الخادم، كل هذا أعجبها على ما يبدو، بل ربما جاء على هواها، وقد يكون مسّ قلبها فحسب.

٢٥١

ما مصير كل هذا عندما أموت؟ أظنّ أنني أفضّل أن تكون لي ذاكرة عود من أعواد الحشائش على حافة طريق يمرّ به الجميع، عود حشيش لا يراه أحد أبداً إلى أن يُقصّ يوماً أو يُنتزع، أو يجفّ ببساطة.

٢٥٢

لديّ وقت لأتأمّل أرضية المستشفى، وقت لا ينفد. كل يوم يُخيَّل إليّ أن هناك أشياء أخرى تماماً يمكن رؤيتها، رغم أنها الأرضية نفسها المصنوعة من اللينوليوم والتي تشبه بركة ملوّنة بالرمادي المائل للأزرق. وسريري هو القارب الذي يحمله التيّار تجاه هذه البركة، المياه صافية وملساء كالمرآة.

٢٥٣

تفرغ عاملة النظافة ذات المعطف الفستقي اللازوردي والشعر

الداكن سلةَ المهملات التي ملأتُها بالصحف غير المقروءة، وتضع كيس قمامة نظيفاً. تمسح المائدة، وغطاء المصباح الذي يترجّح خلال ذلك لبرهة يميناً ويساراً، وفي الختام تمسح الكومودينة. قبل ذلك ترفع الأشياء الموضوعة عليها، وعندما أكوّم كتباً كثيرة (لا أقرأها) وصحفاً على الصينية التي تُطوى، تشكو من أنها لا تستطيع القيام بعملها. أعتذر لها. لا تأخذ معها زجاجات المياه الفارغة، فهذا خارج نطاق عملها. أحياناً تقوم الممرّضة بذلك في المساء في آخر جولة لها، أو الجولة ما قبل الأخيرة في الغرف، قبل أن تتسلّم الممرّضة الليلية العمل. لا تفعل ذلك من دون إبداء ملاحظة عن أن الذي أحضر الزجاجات الممتلئة يستطيع بالتأكيد أن يعيد الفارغة. أعشق محاولات التربية هذه. ها قد عدت طفلاً في الثامنة، بعد قليل سأنادي ماما.

٢٥٤

ومرة أخرى جار جديد، جزّار لبناني قطع أصابع يده اليمنى الأربع. لم يفصلها عن يده، ولكنه كاد يفعل. سكاكينه بتّارة، لقد قطع كل الأربطة وصولاً إلى العظم، يقول لي، لقد انزلقت يده العارية تحت النصل. لم أفهم تماماً كيف حدث ذلك، ولا أريد أن أفهم. يدي تؤلمني أثناء استماعي إلى حكايته، مررت بهذه التجربة من قبل، الألم المنقول عبر التعاطف مع الآخرين.

يدير محلّ جزارة خاصّاً به، منذ عدة سنوات. يأتي لزيارته اثنان من العاملين لديه، ويحضران معهما لحماً وخبزاً عربيّاً وخُضَراً، يحضران كمّيات كبيرة، لا يريد أن يأكل طعام المستشفى. يدعوني

لآكل من كل صحن، وأنا أجرّب. بعد ذلك يحكي لي عن بيت المتقدّمين للّجوء في رسولسهايم الذي عاش فيه عام ١٩٩٠، يحكي لي أنه ينحدر من عائلة جزّارين، وأنه عمل لمدة اثني عشر عاماً في مصنع لحوم قبل أن يفتح جزارته الخاصة، في شونيبرغ، هاوبت-شتراسه، غير بعيدٍ عن «الأوديون».

سقط اثنان من إخوته صريعين في الحرب. لا، هو يقول إنهما قُتلا. أخوه الأكبر منه مات برصاص الإسرائيليين، عام ١٩٨٢، خلال الاجتياح الإسرائيلي الأول للبنان. الأخ الآخر، أخوه الأصغر، لقي حتفه عند انفجار قنبلة خلال الحرب الأهلية، جاري يحمّل مقاتلي المليشيات المسيحية المسؤولية عن موته.

ذات يوم وقف أولاده الخمسة في الغرفة، أربع بنات وصبي. أجمل البنات، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، نحيفة، شعر داكن، كنت أقول لنفسي إنها شاحبة بعض الشيء، وفجأة تنهار، ببطء في البداية، بالحركة البطيئة، ثم بسرعة. تفقد الوعي على نحو لم أكن رأيته حتى تلك اللحظة إلا في السينما. لا تحب المستشفيات، يقولون عندئذ، ولم تكن تريد المجيء، ولكن لم يكن أمامها خيار، كان عليها أن تحضر.



عمّاتي يقلن دائماً، هذا سقط صريعاً في اليونان، والآخر في أفريقيا، وآخر في روسيا. وأنا، عندما كنت أسمعهنّ يقلن ذلك وأنا طفل، كنت دائماً أظن أنهم سقطوا في هوّة عميقة، سقطوا إلى أسفل سافلين، كنت

أراهم يسقطون بالزيّ العسكري الذي كانوا يرتدونه في الصور ذات الإطار الفضّي إلى جانب مرآة غرفة النوم، الإخوة والآباء والأبناء.

٢٥٦

في الصباح يأتي الممرّض ويسأل عمّا أريد أن أشربه. ماذا تودّ أن أشرب؟ أقول: قهوة. أقول دائماً قهوة، فالماء موجود على الكومودينة. في المساء أشرب شاياً.

٢٥٧

ليس عليّ سوى الرقاد. ليس عليّ سوى الرقاد والادّعاء بين الحين والآخر أنني قست درجة حرارتي. كل صباح أخترع رقماً، فأنا منذ مدة طويلة كسول، كسول إلى أقصى حدّ، كسول إلى درجة أنني فعلاً أعجز عن وضع الترمومتر تحت إبطي. وأقول لنفسي، في الحقيقة أنا مسرور لوجودي هنا. يحرّر المستشفى من أشياء كثيرة تبدو في المعتاد مهمّة إلى أبعد الحدود.

لقد قضيتُ هنا فترةً ربّما أطول من اللازم.

٢٥٨

أحملق لمدة ساعتين أو ثلاث في زجاجة الماء ذات اللون الرمادي الموضوعة على الكومودينة. أحب شكلها، والورقة الملصقة عليها. تبدو ذات كبرياء، الزجاجة. أظنّ أنها تضيء.

وألاحظ أن من غير الصعب أن تنظر إلى الأشياء لمدة طويلة إلى

أن تعني لك شيئاً آخر تماماً. وإنْ كنت لا أعرف على وجه التحديد: ماذا؟

٢٥٩

لا يزال النهوض من السرير صعباً. إذا رقدت، فإنني أظلّ راقداً. عضلات البطن التي أحتاج إليها للنهوض قُطعت عرضياً، أفتقد اليد المعلقة فوق الفراش التي ألجأ إليها في المعتاد لرفع جسدي. نزعتها ممرّضة القسم، لأنها ترى أنّ عليّ أن أتمرّن على النهوض، وأن أبذل جهداً من أجل ذلك. من المرجّح أنها على حق.

بدلاً من رفع جسدي باستخدام ذراعي، ينبغي لي الآن أن أرقد على ظهري، وأن أثني ركبتي، وأرفع الخصر باستخدام القدمين، ثم أتزحزح إلى حافة السرير باستخدام الكوع. فإذا وضعت قدميّ على الأرض، أستطيع أن أرفع جذعي إلى الوضع القائم بذراعيّ.

أشعر بالندبة لدى كل حركة.

٢٦٠

ما زالت أعصاب جدار البطن في المنطقة المحيطة بالندبة ميتة، لا أشعر بها، ولا أشعر أيضاً بالسرّة. إذا مررت بأصابعي فوق البشرة، أتعجّب لأنني بالطبع أنتظر أن أشعر بأصابعي، كما أن بشرة جدار البطن لا بدّ من أن تشعر بالأصابع التي تمر عليها، غير أن الأنامل لا تتحسّس سوى شيء يبدو لها كأنه السطح الخارجي لقربة ماء مصنوعة من الكاوتشوك.

أحب الندبة وأجدها جميلة، بل إنني فخور بعض الشيء بهذه الندبة، وبالكتابات التي دوّنت عليه، والتي لم أستطع فك شيفرتها بعد. يطلق عليها الجرّاحون نجمة المرسيدس.

وإن لم يُجبر «أوديسيوس المستشفى» على الذهاب إلى مستوطنة العقاب، إن سُمح له يوماً بالذهاب إلى المنزل، فهل سيتعرّفون إليه من خلال هذه الندبة؟ قابلتي لا تزال حيّة، لقد كتبت لي بطاقة بريدية تتمنّى لي فيها الشفاء العاجل.

٢٦١

كانت عندي ندوب أخرى قبل ذلك. أكبر ندبة خلفتها عملية، أُخذت خلالها عيّنة من كبدي لتحليلها، العينة الأولى؛ حدث ذلك في مستشفى لم تكن تُجرى فيه مثل هذه العمليات كل يوم. الطبيب، وهو والد أحد زملائي في الصف، شق بطني في البداية بالمشرط، ثم حفر في جانبي بإبرة من الصلب النقيّ في حجم ظفر طفل، بينما كان هناك أربعة آخرون، أطبّاء وممرّضات، يمسكون بي جيداً. وانتزع مني عيّنة من نسيج الكبد. أعترف بأنني تألمت. على مقياس الألم الذي كان مع الطبيبة ذات الشعر الأحمر سيحتل ذلك على الأقل الدرجة السابعة، إن لم نقل الثامنة، ولكنه كان ألماً قصير الأمد. العمليات اللاحقة لأخذ عيّنة من الكبد لم تخلّف سوى نقاط ضئيلة، ومعظمها اختفى الآن تحت الندبة الكبيرة الجديدة، أو أصبح جزءاً منها. اليوم لديّ ـ يا له من شيء عملي! ـ ندوب جديدة فوق القديمة.

٢٦٢

وفجأة أجدني وحدي في الغرفة. لا أحد بجواري، ولا حتى ورقة فارغة. على الفور تبدو الغرفة أكبر كثيراً. أشعر كأنّني في فندق. الفارق الوحيد هو أن العاملين في خدمة الغرف لا يطرقون الباب قبل الدخول.

أتذكّر غرفة في مدينة مكسيكو، لا تبعد كثيراً عن النصب التذكاري Monumento a la Madre. قضيت سبعة أسابيع في الفندق نفسه، أجرة الغرفة نحو ١١ دولاراً في اليوم. كانت عملة البيزو قد فقدت من قيمتها تلك الفترة. بعد ذلك انتقلت إلى فندق آخر، أرخص، يقع في Calle Mariscal، مقابل أكاديمية الفنون. لكن الفندق كان أيضاً ماخوراً، وهو ما لم ألاحظه إلا بعد السكن فيه. لم يعجب ذلك غلوريا.

٢٦٣

كُمّ الريح على السطح المنبسط أمامي يرتفع وينخفض. يبدو متعباً، وقد تحوّل لونه إلى ما يشبه الرمادي، مبقّعاً، قذراً تقريباً، اللون البرتقالي أصبح باهتاً. ستكون راهبة مهملة تلك التي ترتدي غطاء رأس كهذا.

تتكاثر السحب في السماء، ثم تنزاح. وتطلع الشمس، وفي المساء تغرب. غير ذلك لا يحدث شيء تقريباً.

٢٦٤

يا ليت ريبيكا تمرّ عليّ. لو أتت، لكان بإمكاننا أن نتمشى بجانب

القناة، فوق أوراق الشجر الذي ما زال موجوداً على الطرق المخصصة للسير وعلى المدق القديم إلى جانب المياه، أتخيّل خشخشة الأوراق، يمكننا أن نتهادى على الأوراق مصدرين خشخشة حتى «ساحة بكين»، ثم نجلس هناك في أحد المقاهي.

دائماً ما أنسى، دائماً ما أريد أن أنسى أنها لم تعد تعيش. رحلاتها إلى أفغانستان. مرتين أو ثلاث مرات سافرت إلى هناك مع «هيئة التعاون التقني»، خرجت منها كلها سليمة، لم تُختَطف، ولم تُعدم، ولم يسحبها أحد من سيّارتها في أحد الحواجز ليقتلها بالرصاص. كلا، لقد ماتت هنا في برلين، في الطريق إلى مكتبها وسط البلد، بعد أن أوصلت ابنها ذا العامين ونصف العام إلى الروضة. كانت تعبر الشارع، فدهستها سيّارة لتوريد البضائع. على الفور لفظت أنفاسها الأخيرة.

## ٢٦٥

أحلم بأن فاتورة ما وصلتني. لو أنني آنذاك، في ذلك اليوم الذي سال فيه حبر قلمي، قرأت العقد. على أي شيء وقعت؟ هل يجب عليّ الآن أن أدفع؟ أليس لكل شيء ثمن؟ يأتي الطبيب الأول في القسم بورقة إلى الغرفة. أعتقد في البداية أن الورقة ـ أصغر قليلاً من الصفحة العادية قياس A4 ـ هي شهادة ما، شهادة الفائز أو شهادة فخرية مثل تلك التي يحصل عليها التلاميذ المشاركون في دورات الألعاب على مستوى الجمهورية. شهادة مكتوب عليها، وإنْ بصياغة ركيكة، «مبروك، لقد نجوت!». لكن الطبيب الأول لا يهنئني، ولا

يقول سوى: تفضّل، الفاتورة، ثم يقدّم إليّ ورقة. ألقي نظرة عليها، وأرى رقماً بالغ الضخامة، مبلغاً لا يمكن النطق به، رقماً فلكياً لن أستطيع أبداً ـ وهو ما أعرفه من الآن ـ أن أجمعه طوال حياتي. وهو ما أقوله له أيضاً. لا يهمّ، يردّ علي، يمكنك أيضاً السداد بدمك. بدمي؟ وهل لدمي هذه القيمة العالية؟ أسأل وقد فوجئت بعض الشيء، فيجيبني الطبيب الأول (أسمع حفيف نعله، إنه بلا شك نعل جلدي): أقصد رمزياً بالطبع. لا أفهم قصده. ماذا يظن؟ أليس كل شيء في الحلم رمزياً؟ لم أعد أستطيع توجيه الأسئلة إليه، فقد انصرف، وبقيت الفاتورة على الكومودينة.

تقوم شركة التأمين الصحي الإلزامي بتسديد الفاتورة، أشعر بانزياح عبء كبير عندما خطر ذلك ببالي بعد أن استيقظت. التأمين الصحّي لا تصله فاتورة المستشفى فحسب، بل تُرسل إليه فاتورة أخرى من «يوروترانسبلانت» مقابل توفير العضو المزروع والتكاليف المرتبطة بذلك. وحتى الآن لم يتّصل بي أحد موظفي التأمين الصحّي ليسألني إن كان باستطاعتي أن أموت بسرعة أكبر، لأن هذا سيكون أقل تكلفة. ولم يستعلم أحد حتى الآن إن كان الأمر يستحق كل هذا الجهد من الأساس؛ إن كنت أستحق كل هذا بالنسبة إليهم، أي ما يُسمّى مجتمع المتضامنين.

في ما بعد أقرأ في الصحيفة عن أقرب تلاميذ توماس شتارزل إلى قلبه، الجرّاح النجم ورئيس الأطبّاء في مدينة إسن، «عبقري الكبد» كما يُطلق عليه، الذي كان يطلب تبرّعات عينية قبل إجراء العملية، خمسة آلاف، وأحياناً عشرة آلاف يورو، رزمة جميلة من

الأوراق النقدية توضع في جيب معطفه. من أجل أن يضمنوا أنه هو الذي سيجري العملية، فقط لا غير، وليس أيّ مساعد من مساعديه. الآن يقبع في السجن.

٢٦٦

ماذا اشترطت الجنيّة الطيّبة؟ لم أفهمها على الهاتف. اتصلي بي مرة أخرى، اتصلي بي مرة أخرى من فضلك.

٢٦٧

تمرّ الأيام. ويدخل الغرفة ممرّضات وممرّضون وأطبّاء وزوّار، يدفعونني إلى مكان ما، ثم يعيدونني مرّة أخرى. ذات مرة يدفعني رجل ذو «سكسوكة» وشعر قليل على رأسه، هو أيضاً يتقن طقوس التواصل باللكنة البرلينية: كيف حالنا اليوم؟ هه، إلى الأمام إذاً، والآن الزاوية. يحكي لي عن عربات النقل المراقبة باللاسلكي والتي يبلغ عددها ستاً وعشرين في الفترة الصباحية، تقلّ بعد الظهر. وكلها مزوّدة بهاتف محمول تابع للمستشفى، وعليها أن تصدر إشارات: أنا الآن في القسم، استقبال المريض، أو: وصلت إلى الهدف وتحت الخدمة مرة أخرى. يُقال إن رئيس المشرفين يجلس أمام شاشة ويستطيع مراقبة حركة سيّارات النقل، ولكن هناك فجوات في الاستقبال على أرض المستشفى، وهناك يستطيع أن يلتقط أنفاسه قليلاً. يسير يومياً خمسة وعشرين كيلومتراً إلى ثلاثين، يقول الممرّض التائه، ويضيف: في المساء لا يكون لديّ

احتياج إلى المشي. عمر الأحذية خمسة أشهر، وأحياناً نصف عام.

٢٦٨

كم يعتنون بي، وكم هم لطفاء معي في المستشفى. لديّ فراش، وأحصل على طعام، ثلاث مرات في اليوم. ثمّة أماكن أخرى تخلو من المستشفيات، الناس يموتون هكذا ببساطة. بينما أرقد أنا هنا على سريري طوال أسابيع وشهور وسنوات، وكلّ الأطبّاء والممرّضات والممرّضين والمختصّين في العلاج الطبيعي والسائقين وعمال النظافة يهتمّون بأمري.

وماذا عليّ أن أفعل حتى أستحق هذا؟

٢٦٩

أنظر إلى الحائط وإلى الخزانة، ثم إلى التلفاز المثبت تحت السقف، وإلى الصورتين اللتين يتجاهلهما بصري دائماً. أنظر إلى الكومودينة قرب الفراش، وإلى لوحة الأزرار التي لا يعمل فيها سوى زرّ واحد، وهو ذلك الذي يشعل الضوء ويطفئه. لا أثر للبحر، فأنا لا أرقد على شواطئ المحيط الهادئ، ولا أرى أمام النافذة سوى هامات الشجر، أنتظر! عمّا قريب ... في الخارج يُقام مسرح الفصول الأربعة، هناك عرض، المسرحيّة لا يزال عنوانها الخريف، في كلّ صباح يتناقص عدد الأوراق على الشجر. ولهذا فإن الرؤية الآن لا يعرقلها شيء، أرى المبنى القائم على مسافة قصيرة ينمو كل يوم بعض الشيء، هكذا يبدو التقدّم. لقد بدأ كهيكل من الحديد

الصلب، والآن فإن مكعّباً كبيراً أصفر يسطع وراء قضبان «القطار الدائري».

٢٧٠

أنهض وأرتدي الروب الصباحي فوق القميص ذي الأجنحة، وأستغني عن ارتداء المعطف الواقي من الجراثيم، وأسير ببطء تجاه باب القسم. أخرج إلى الممرّ، ويقلّني المصعد التالي هابطاً، أنجح في الوصول إلى الكشك، ولا أكاد أتعجّب من إنجازي، وأشتري الجريدة، وأترنّح سائراً في طرق متعرّجة إلى أن أخرج من المستشفى. أشعر ببرودة وسط الرياح، ولكنني أريد رؤية نافذتي من أسفل. أحصي الطوابق عبر الشرائط الطويلة الملصقة على الألواح الزجاجية. أنظر! إنه الطابق السابع، كنتُ محقاً، لقد أصبت الهدف، أتعرّف إلى نافذتي من خلال الزجاجة الفارغة الموضوعة على الحافة المنخفضة أمام النافذة، خلف الأسياخ، منذ ما لا يقل عن أسبوع. ألوّح إلى الأعلى، للغرفة التي لا يسكن فيها أحد، ألوّح لي، أنا الجالس في الأعلى، وأتخيّل أنّني أراني، في مركز المراقبة، جالساً على الكرسيّ العالي.

٢٧١

أخذني عمي في النمسا معه مرةً في رحلة صيد، لا بدّ أنني كنت في العاشرة أو الحادية عشرة. أيقظني حوالى الرابعة فجراً ومضى بي وهو يحمل بندقية الصيد الخاصّة به عبر حديقة الفواكه إلى الغابة،

حيث كان الظلام يحيط بنا فترة طويلة، إلى أن وصلنا إلى منطقة تخلو من الأشجار. وهناك ـ لقد تذكرت الآن ـ تسلقنا مقعد الصيّاد العالي. جلسنا هناك من دون أن ننطق بكلمة، في انتظار الفريسة. لم يمرّ وقت طويل حتى أتت إلى المرج. وكأن الأيائل تلعب معنا «الغمّيضة». كان عمّي يمسك بالبندقية في يده، ولكنه لم يطلق الرصاص على أيّ من تلك الحيوانات. وعندما هبطنا من المقعد العالي، وقف أمامنا على الطريق المؤدّي إلى الغابة يحمور صغير، لم يجرؤ على الخروج إلى المنطقة الخالية من الأشجار والانضمام إلى الأيائل الكبيرة. سدّد بصره في اتجاهنا، ناظراً إليّ، فنظرت في عينيه. وفي هذه اللحظة كان عمّي قد رفع البندقية وصوّب. طار الحيوان إلى أعلى، فاتحاً قوائمه على اتساعها، ثم هوى وسقط على الأرض. كان قد فارق الحياة. شق عمي بطنه في المكان نفسه، ورمى معظم أحشائه خلف الشجيرات، وهو ما سيدخل السرور إلى قلب الثعلب، قال عمي. أما جمجمة اليحمور المفصولة فقد فتحها فيما بعد بالمنشار في الحديقة، رحت أشاهده خلال ذلك. أكل المخ والخصيتين مع بيض مقليّ في المساء، وسمح لي بأن أتناول لقمة على سبيل التجربة.

٢٧٢

أخذ عينة من الدم، كما هي الحال كل يوم تقريباً. وكما هي الحال دائماً فإنني أشعر بالخوف من أن أخيّب أمل الطبيبة، فأنا أريد أن أقدّم نتائج طيّبة. أنا لا أعرف كيف حالي، كيف حالي حقاً، إلّا

عندما أعرف نتائج التحليل. أنا ملفّ مرضي، أنا منحنى النتائج، أنا

صوديوم بوتاسيوم كالسيوم

كرياتِنين ألبومين

بروتين بِلروبين

ليباز أميلاز

ALT AST GGT

LDL HDL

GLDH LDH

MCH MCV

MPV MCHC

الخلايا اللمفاوية كريات الدم البيضاء

الخلايا الوحيدة الصفائح الدموية

الخلايا المحبّبة كريّات الدم الحمراء

ثلاثي الغليسريد هيماتوكريت

كولسترول هيموغلوبين.

٢٧٣

وفجأة لم تعد هناك بطاقات طعام. أُلغيت البطاقات المثقوبة، البقيّة الباقية من نظم الكمبيوتر القديمة، تلك البطاقات التي كانت توزع

علينا حتى أمس لأضع في كل يوم علامة على أصناف الطعام التي أودّ أن أتناولها. المعجزات تحدث أحياناً. يأتي الآن أحد الممرّضين بجهاز إلكتروني إلى الغرفة، ويسألنا عمّا نود أن نأكله. بلا رغبة حقيقية، إذ يتحتم عليه أن يتلو القصيدة نفسها في كل غرفة، يقرأ علينا الإمكانيات المختلفة. على الفور بدأت أفتقد البطاقات المثقوبة.

٢٧٤

تدخل الحجرة امرأة في سنّي تقريباً، وتبدأ بمسح الأرضية. تصطدم ممسحتها بكلّ قوائم الكراسي والطاولات. يوجعني ذلك، قوائم الكراسي والطاولة، الكرسيّ المنخفض، وسلة الأوراق - إنّها زميلاتي. والمرأة تدفعها هكذا بلا رحمة.

مسحت الأرضية في اتجاه الباب، وتريد الآن مغادرة الغرفة، فأقول لها: شكراً. ترفع بصرها، وكأنها لم تلاحظني إلّا الآن، تنظر إليّ، ثم ترفع خصلة شعر من وجهها، وتتنحنح، وترفع زاوية فمها لأعلى ليبدو كأنها تبتسم، ثم تقول بصوت خافت: العفو.

٢٧٥

يغادر المستشفى جاري في الغرفة، كارل هاينتس الذي كان يعمل طبّاخاً في مدمّرة في سلاح البحرية بألمانيا الشرقية. لديه بضعة أقوال حكيمة لي: كلُّ يوم هو يومٌ جديدٌ، الحاضر دائماً الآن، كل وجبة لا تؤكل سوى مرّة واحدة، ليس هناك فرصة ضائعة تعود ثانيةً.

سأحاول ألّا أنسى ذلك.

## ٢٧٦

عصر يوم الأحد في المستشفى. متعب أنا من الرحلات التي أقوم بها إلى الحمّام، متعب من التجوال في الممر، متعب من النظر خارجاً، متعب من فتح وإغلاق الكتاب الذي لا أكاد أقرأ فيه سطراً. يرقد كلانا مرة أخرى على الحشوة. أنت دائماً هنا عندما أستيقظ، وعندما أرقد ثانيةً لأتقلب في الفراش فحسب. أشعر بك مع كل نَفَس، وفي كل حركة، نرقد معاً في القارب نفسه الذي يطفو بنا معاً على سطح البحر.

## ٢٧٧

وكلّ هذه الأطلال من الذكريات، اليأس، المواقف المحرجة، البهجات الصغيرة في المستشفى، ربما وجب عليّ أن أدوّنها، قد يصبح ذلك ما يشبه رسالة شكر.

نعم، vita nova، يجب عليّ أن أبدأ هذه الحياة الجديدة. عاملة النظافة محقة في هذا الضجيج، عليّ ألّا أرقد هكذا، عليّ أن أفعل شيئاً، عليّ أن أمدّ يدي إلى الدفتر ذي السلك اللولبي أو إلى المفكّرة، قلم الحبر هنا، وهو يكتب بسلاسة تامّة. عليّ أن أبحث عن قلم الحبر، وأنزع غطاءه، وأبدأ ببساطة، لديّ فكرة بخصوص الجملة الأولى، من الممكن أن تكون: أصلُ بعد منتصف الليل بقليل ـ في تلك اللحظة يهتز الهاتف على الكومودينة ويبدأ بالتجوال فوق السطح الأملس، أمدّ يدي وأمسكه، وأستقبل المكالمة، لكنني لا أسمع في البداية شيئاً، ثم أسمع صوتاً يقول: بابا؟ هل ستأتي قريباً إلى البيت؟

# خاتمة

بعد عام من زراعة الكبد عرضَ المريض نفسه لإجراء فحص طبّي روتيني، وكانت حالته العامّة ممتازة. من خلال الكشف على المريض وبتحليل وظائف الكبد أظهر العضو المزروع قيامه بوظائفه على نحو جيد في ما يتعلق بكفاءة أدائه لعمليات التمثيل الغذائي والتخلص من السموم. بالفحص الكيميائي المخبري وفحص الأنسجة لم نجد مظاهر تُذكر تشير إلى تلف آني أو مزمن في الكبد. أظهر الفحص بالسونار أن التروية الدموية عادية وكذلك مورفولوجيا الكبد.

شكر وامتنان خاصّ لعديد من الأصدقاء الذين قرأوا مخطوطة الترجمة وأفادوني بملاحظاتهم، وأخصّ بالشكر الشاعر المغربي حسن نجمي والصديق محمد الحشاش.

**سمير جريس**

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنّشر

# سلسلة الأدب

## الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- أَلِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)

## ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

## د. نعمة الله إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز - ألف يوم ويوم (قصة)

## د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتَتِ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

## د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)
- كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

## منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة) - هارالد هارمان
- فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر) - د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية) - نافتج سارنا

## جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)

# سلسلة الأدب

- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

## منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

## راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

## روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

## طلال حيدر

- آن الأوان (شعر)
- سرّ الزمان (شعر)

## عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)

- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

## سردار أوزكان

- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

## د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

## د. محمد طعّان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

## ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

## نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) - د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

## سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

## سلسلة الحب

### شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

### رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

### عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

### بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- أصل الغواية (قصص قصيرة) - منتهى العزة
- باب للخروج (رواية) - طارق فرّاج
- حبيبتي الحقيقة (شعر) - أحمد طقش
- الخامدون (قصص قصيرة) - ربى عنبتاوي
- نسرين ستموت الليلة (رواية) - خديجة نمري

### شعر

- أثواب الحزن - هدى السراري
- أنظر إليك - مرام المصري
- خريف من ذهب - جوزيف طوبيّا
- خطوات أنثى - ردينة مصطفى الفيلالي
- خفيفًا كزيتٍ يُضيء - بلال المصري
- ضوع الياسمين (شعر - حكايات - خواطر) - أ. د. محمد توفيق أبو علي
- الظلُّ فجر داكن - مهدي منصور
- كما يقع التفاح - هادي مراد
- ما يفعله الغريب في الليل - محمد دياب
- متْل السَّكْت - سوسن مرتضى
- ميتينغ meeting - جوليان حكيم
- هو وهي في السعودية - هتان بن محمد طاسجي
- وراء الأفق - إبراهيم أبو زيد
- وصيّة شاعرة - ناهد عيد
- يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى - غسّان علم الدين

### مهدي منصور

- أخاف الله والحب والوطن
- الأرضٍ حذاء مُستَعمَل
- الظـلُّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

### سليم حيدر

- آفاق
- أشواق
- إشراق
- ألوان
- ألحان
- أشجان
- لبنان
- يا نافخ الثورة البيضاء
- ألسنة الزمان
- مهرجان العدالة

# سلسلة الأدب

## دراسات

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** – لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو** – بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** – د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** – ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** – تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية** – د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** – د. عادل كامل الآلوسي
- **الحريم اللُّغوي** – يسرى مُقدّم
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** – نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** – د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** – هادي محيي الخفاجي
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية** – د. محمد توفيق أبو علي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** – عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** – د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** – نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** – منير عبود

## روايات

- **أرملة مهندس** – صالح ابن عايض
- **إعصار بالتيمور** – حسين عبد الرسول سبيتي
- **إمرأة... وظلّان** – خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** – فيصل فرحات
- **بائع الفستق** – سمير عطا الله
- **حقيبة حذر** – عاطف البلوي
- **رقص تحت أشجار الكستناء** – عباس جعفر الحسيني
- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** – وائل ردّاد
- **سوريّو جسر الكولا** – ياسين رفاعية
- **صورة على هاتفٍ جوّال** – إلهام منصور
- **العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة)** – اسماعيل الأمين
- **عشّاق أمي (قصص قصيرة)** – هاجر عبد السلام
- **الغشوة** – راضي شحادة
- **في حديقة الملك** – ميّادة العسكري
- **قصة مشربية** – **قصة يوطوبيا** – حسن فتحي
- **محاولات اغتيال علي (قصص قصيرة)** – محمد بركات
- **مولود وثلاثة آباء** – نائل ماجد مجذوب
- **نهاية جيل** – محمد سعيد طالب
- **هل يفرّقنا الدين؟** – حسن السيد أسعد فضل الله
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** – قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

## سلسلة الأدب

### روايات عالمية

- **«الأصولي» المتردِّد** - محسن حامد
- **ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة)** - ييون لي
- **اعترافات غايشا** - آرثر غولدن
- **بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني** - نيلوفر بازير
- **بومبي** - روبرت هاريس
- **بيل كانتو - الرهينة** - آن باتشيتا
- **التوأم** - غيربرند باكر
- **حكاية الشتاء** - پول أوستر
- **حياة** - دافيد فاغنر
- **الخجل والكرامة** - داغ سولستاد
- **دماء الأزهار** - أنيتا أميرسڤاني
- **الطربوش** - روبير سوليه
- **عند تلاشي الضّوء** - أويغن روغه
- **فتاة من بلغراد** - لويس دو بيرنيير
- **اللعنة على نهر الوقت** - بير بيترسون
- **ما تخبّئه لنا النجوم** - جون غرين
- **متتالية فرنسية** - إيرين نميروفسكي
- **مرض الموت** - مارغريت دوراس
- **موعظة عن سقوط روما** - جيروم فيراري
- **الناس والآخرون** - قدري قلعجي

### مكتبة نوبل

- **حبٌّ محرَّم** - يوكيو ميشيما (الذي تخلّى عن جائزة نوبل مرّتين)
- **الديار** - توني موريسون
- **رحمة** - توني موريسون
- **المنوَر** - جوزيه ساراماجو

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: ‎+٩٦١ ٧ ٩٩٦٢٠٠ /٣٠٠
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**

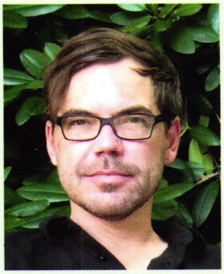

**دافيد فاغنر**

كاتب ألماني من مواليد العام ١٩٧١، درس الأدب المقارن وتاريخ الفن في جامعات بون وبرلين وباريس. في حوزته جوائز أدبية كثيرة منها أفضل رواية أجنبية للعام ٢٠١٤ في الصين، وجائزة كرانيشتاينر التشجيعية للأدب عام ٢٠١٤، وجائزة معرض لايبزيغ للكتاب عام ٢٠١٣ وهي من أرفع الجوائز الأدبية في ألمانيا، وجائزة كوليك الأدبية، بالإضافة إلى جائزة جورج غلاسر الأدبية عام ٢٠٠١، وجائزة ديدالوس للأدب عام ٢٠٠٠، وجائزة والتر زيرنر عام ١٩٩٩. ترجمت أعماله إلى ١٧ لغة، وهو يعيش حالياً في برلين.

**«هل أنا من أنا بسبب التسمّم البطيء فحسب؟ ... أليس من الممكن ألا أكون ذلك الإنسان الذي أعتقد أنني هو؟ ... هل لحزني أسباب كيميائية بسيطة للغاية؟ هل تُحدّد الكيمياء في جسدي مشاعري؟**

**شيئاً فشيئاً أتعلّم التفرقة بين المظهر السيئ الذي ينحو نحو التحسّن، والمظهر السيئ الذي ينحو نحو النهاية. للأسف، لا أستطيع أن أحكم على منظري. أنا أعمى أمام المرآة».**

رجل يعيش بكبد مريضة ينتظر أن يموت أحدهم ليحصل على كبده وليُمنح فرصة عيش حياةٍ طبيعيّة.. يتابع، من على سريره في المستشفى، حوادث السير القاتلة والجرائم وضحايا الحروب، وينتظر، ويحلم: بالهروب الكبير، بحبيبته، بمن يحبّونه ويحبّهم، بطفولته، برجلٍ انتحر، وآخر قتله هو، بمركبته الفضائية البيضاء، وطبيبه، والممرّضات، وكبده الجديدة، ويجعلك تقلّب الصفحات معه بسرعةٍ جنونية.

روايةٌ تتأمّل في الحياة وجدواها، يتقاطع فيها الكاتب مع كافكا تارةً، بقدرته على التحوّل والتحويل، ويضاهي ماركيز طوراً، بقدرته على الخوض في تفاصيل نمرّ بها ولا نوليها أدنى اهتمام، لكنّها، على بساطتها، تشكّل في أحيان كثيرة لبّ «الحياة».

رواية؟ إنها أكثر من ذلك. إنها الحياة كلها قدّمها الروائي الألماني الأبرز بين أبناء جيله بأسلوب سلس، وتمكّن المترجم، الحائز جائزة معهد غوته للترجمة الأدبية عام ٢٠١٤، من نقلها عن الألمانية بدقة وأمانة وشغف.

ISBN 978-9953-88-985-6

9 789953 889856

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب: ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ٩٦١١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٩٦١١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر